

مسألة مؤلفات و رسائل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - رقم ٥٣

الفوائد العلمية من الدرر البازية

فوائد من التفسير

درر من عظمة شرفها سماحة الشيخ العلامة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رحمه الله وأجزله له الترتيب في عامي ١٣٩٨ - ١٣٩٩

راعية وقدم له تعالى الشيخ العلامة

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

أعنى بإخراجه وأشرف على طبعه

محمد السليم بن محمد بن عبد الله السليم

فضله له ولوالديه وطيبه السليم

الجزء الرابع

الرسالة العالمية

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الفردوس

www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



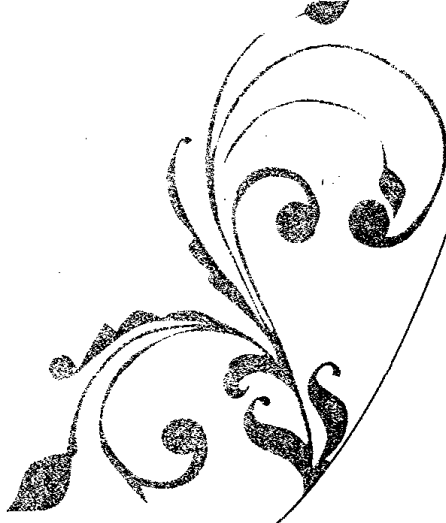
ح) عبد السلام بن عبد الله السليمان، ١٤٢٩هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السليمان، عبد السلام بن عبد الله
الفوائد العلمية من الدروس اليازية. / عبد السلم بن عبد الله
السليمان . - الرياض ، ١٤٢٩هـ
١٠ مج .- (سلسلة الفوائد العلمية)
ردمك ٣-١٥٢٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-١٥٣٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)
١- الاسلام- مبادئ عامة ٢- الثقافة الاسلامية أ. العنوان
ديوي ٢١١ ١٤٢٩/٦٠٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٦٠٩٥
ردمك : ٣-١٥٢٨-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-١٥٣٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار الإبتداء العالمية

الإدارة العامة
Head Office

دمشق - الحجاز
شارع مسلم البارودي
بناء خولي وصلاح

2625

(963)11-2212773
(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية
Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت
BEIRUT-LEBANON
TELEFAX: 815112- 319039- 818615
P.O. BOX:117460

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظا

الحمد لله والصلوة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد
فقد طرقت على مجموعة المسماة: سلسلة الفوائد العلمية
صه الذريفة الجازية جمع الشيخ عبدالسلام بن عبدالرحمن السليمان
فوجدتها مجموعة مفيدة هائلة تدر من دروس الشيخ عبدالعزیز بن باز
وتعليقاته وأرجو أن ينفع بها وليتأجر الله المصنفين
ومن جمعها - وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه
صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء
صلى
١٤٢٩/٧/٢٨ هـ

تقريظ

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
وبعد،

فقد اطلعت على المجموعة المسماة : سلسلة الفوائد العلمية من
الدروس البازية جمع الشيخ : عبد السلام بن عبد الله السليمان
فوجدتها مجموعة مفيدة حافلة بدرر من دروس الشيخ
عبد العزيز بن باز وتعليقاته وأرجو الله أن ينفع بها ويكتب
أجرها لمن تكلم بها ومن جمعها- وصلى الله وسلم على نبينا
محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

١٤٢٩/٠٧/٢٨ هـ

مقدمة اللجنة العلمية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

فيطيب للجنة العلمية بمؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية أن تقدم بين يدي القارئ الكريم هذا الجمع النافع الموسوم بـ (سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية) وقد قام بجمعه وإعداده فضيلة أخينا الشيخ / عبدالسلام بن عبدالله السليمان وفقه الله وسدده .

وقد اشتمل هذا الجمع المبارك على فوائد جلية ودرر بهية من دروس سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - وتعليقاته النافعة .

نسأل الله تعالى أن يثيب من جمعها وأعدّها ، كما نسأله سبحانه أن يضاعف الأجر والمثوبة لسماحة شيخنا / عبد العزيز بن باز - رحمه الله - وأن يجعل هذه الفوائد من العلم النافع الذي يجري عليه أجره في قبره ، وأن يجمعنا به والمعدّ والقارئ الكريم في دار كرامته مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه .

اللجنة العلمية

بمؤسسة الشيخ عبد العزيز بن باز الخيرية



مقدمه معالي الشيخ/ صالح بن فوزان الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين، أما بعد :

سماحة الشيخ العلامة الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله
المفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء بالمملكة
ورئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ورئيس رابطة العالم
الإسلامي فقد تشرفت بمعرفته رحمه الله واستفدت من سماحته مدرساً في
كلية الشريعة بالرياض حيث تلقيت عنه علم الفرائض في هذه الكلية
واستفدت من دروسه ومحاضراته خارج الكلية منذ قدمت إلى الرياض
لطلب العلم سنة ١٣٧٨ للهجرة، فهو العالم الفذ في علمه وفي عمله وفي
أخلاقه وفي حبه للخير وأهله وفي سعيه الجاد في نشر العلم، يعرف ذلك
القاصي والداني عنه ، ولقد تشرفت بالمشاركة في العمل تحت رئاسته
عضواً للجنة الدائمة للإفتاء وفي هيئة كبار العلماء وفي المجمع الفقهي
فاستفدت منه كثيراً، من توجيهاته العلمية وآراءه السديدة لأنه رحمه الله
آية في الإمام بمسائل الفقه وأقوال العلماء ومعرفة الأدلة واستحضارها،
وحفظ الأحاديث ومعرفة متونها وأسانيدها ومخرجيها ودرجاتها، فكان لا
يأخذ من الأقوال إلا ما ترجح لديه بالدليل، ولا من الأدلة إلا ما صح عنده،
كان لا يمل من قراءة الكتب النافعة، والاستزادة من العلم، وكان رجاعاً

إلى الحق لا يمنعه قول قاله بالأمس أن يرجع عنه إلى الصواب إذا تبين له اليوم، عملاً بوصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وكان يحرص على البحث والمشورة حتى مع من هو أقل منه علماً وخبرة بحثاً عن الحق والأخذ به؛ لأن الحق ضالة المؤمن أتى وجده أخذه، كان يحرص رحمه الله على نفع المسلمين بماله وجاهه وشفاعته، يحب المشاركة في المشاريع الخيرية، ويساعد المحتاجين، ويفتي السائلين شفهاً وتلفونياً وتحريراً، لا يقتصر على عمله الرسمي فعمله دائم في البيت مع سعة صدر، وسماحة بال، وتيسر لقاء به، حيث يجلس لإستقبال الناس الساعات الطويلة من كل يوم ويفتح بابيه لمن يريد الدخول واللقاء به دون مانع أو حائل مع قيامه بالدعوة إلى الله من خلال الدروس اليومية التي يلقيها في المسجد ويحضرها المئات من الطلاب والمستفيدين ومن خلال المحاضرات التي يلقيها في المساجد والمنتديات واللقاءات، فكان لا يتوقف، إذا طلب منه إلقاء محاضرة في أي مكان قريب أو بعيد أو طلب منه لقاء فقهي يجيب من خلاله على أسئلة الحضور حتى بواسطة المهاتفة من مكان بعيد وله مشاركات كبيرة في وسائل الإعلام المقروءة و المسموعة في إلقاء الكلمات والنصائح والإجابة على الأسئلة، وله مواقف عظيمة وكثيرة في الرد على أهل الضلال وكشف شبهاتهم وتعرية باطلهم وبيان الحق، يظهر ذلك من ردوده المطبوعة والمسجلة على الأشرطة، ومن كتبه الكثيرة، وفي جانب

الأمر المعروف والنهي عن المنكر كان له دوره الفعال في القيام بهذا الأمر ومساندة ومساعدة القائمين عليه ونصيحة ولاية الأمور ونصيحة الرعية عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال الله وكتابه ورسوله وللأنمة المسلمين وعامتهم) ، ومهما قلت فإنني أراني مقصراً في وصف ما لهذا العالم الجليل من جهود عظيمة وما تحلى به من فضائل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد هيا الله عز وجل لهذا الإمام الجليل من قام بجمع علمه ونشره في الآفاق حتى يكون من العلم الذي ينتفع به بعد وفاته يرحمه الله، وهذه المجموعة المعنونة بـ (سلسلة الفوائد العلمية من الدروس البازية) هي جزء من علم شيخنا الجليل يرحمه الله، التي قام بجمعها وإخراجها أخونا الشيخ عبدالسلام بن عبدالله السليمان جزاه الله خيراً، وقد جوت فوائد جليلة يدركها من طالعها وقرأ فيها.

رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جناته وجزاه عما قدم خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

١٠/١٠/٤٢٩ هـ

مُتَلَمِّمًا

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فإن هذا هو الكتاب الثالث من سلسلة الفوائد العلمية من
الدروس البازية.

وهي فوائد وشروح من دروس سماحة الشيخ عبد العزيز بن
باز - رحمه الله - ألقاها عامي (١٣٩٨-١٣٩٩هـ) في تفسير بعض
الآيات القرآنية.

ولما تميز به هذا الشرح - ولو لم يكتمل - حرصت على
إخراجه ضمن السلسلة، لِمَا اشتمل عليه من الفوائد العلمية،
حيث كانت منهجية الشيخ وطريقته في الشرح في تلك السنوات،
تتميز بالإسهاب في شرح المسائل وكثرة الاستدلال من الكتاب
والسنة وأقوال أهل العلم، وكذلك العناية التامة برواة الأخبار
واستنباط الأحكام من الأدلة.

أسأل الله العلي القدير أن يكتب الأجر والمثوبة لشيخنا
- رحمه الله - وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن يجعل عملنا
خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله
وصحبه وسلّم.

سورة البقرة

[التذكير بنعم الله على بني إسرائيل]^(١)

❁ قال تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ❁ ﴿٤٠﴾ ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ ❁ ﴿٤١﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ ❁ ﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ❁ ﴿٤٣﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ❁ ﴿٤٤﴾

[البقرة: ٤٠-٤٤]. [١]

[شرح ١] يُذَكَّرُ سبحانه في هذه الآيات بما فعله مع بني إسرائيل من النعم العظيمة، والخير الكثير، والنصر على العدو، ويذكر أحفادهم الذين كانوا في المدينة - وهم يهود المدينة - بما أنعم به على أسلافهم، =

(١) هذه العناوين التي بين حاصرتين من وضع المعني بالكتاب.

= لعلمهم ينتبهون، ولعلمهم يشكرون، ولعلمهم يتوبون من جحدهم وكفرهم وضلالهم، ويُقرُّون بنبوَّة محمد ﷺ وينقادون لما جاء به من الهدى، وهم يعلمون ذلك، وهو موجود في كتابهم «التوراة» - العهد القديم - فيعدد عليهم النعم العظيمة.

﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وإسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل معناه: عبد الله، فيذكُرهم بهذا العبد الصالح وبأولاده، وأن الواجب عليهم أن يتبعوا ما كان عليه من الهدى.

ومن الهدى: الإقرار بالحق، والإقرار بالرسول، فكلما بُعث رسول عليهم أن يتبعوه، وأن ينقادوا لما جاء به، وخاتم الرسل هو محمد عليه الصلاة والسلام، كما هي مبينة صفاته عندهم في «العهد القديم»، وأن عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، ولكن القوم استمروا في الجهل والضلال، والعياذ بالله.

والتذكير بالنعم دعوة إلى شكرها، وإلى السير على منهاجها، وعدم الجحد والكفر بها، ولكن القوم أكثرهم في ضلال وعماء، وقسوة في قلوبهم وإعراض عن الحق، وإيثار للدنيا على الآخرة، =

= والعياذ بالله.

ويبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات، النعم الكثيرة التي أسداها إلى أسلافهم؛ لينتبهوا وليذكروا هذا الخير، وليبادروا بالشكر لله سبحانه وتعالى.

والمقصود من ذلك أيضاً تذكيرنا نحن - أمة محمد ﷺ -، وأن علينا أن نحذر ما فعله اليهود، وأن لا نكون مثلهم في إنكار النعم وعدم شكرها، وعدم الخضوع للمنعم سبحانه وتعالى بطاعة أمره وترك نهيهِ. وقد قال بعض السلف في هذا: مضى القوم ولم يُعَنَّ به سواكم؛ يعني: لم يُعَنَّ به إلا أنتم، لتستقيموا ولتشكروا الله على نعمه، ولتحذروا غضبه سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وما ذاك إلا أن اليهود هم الذين في المدينة، وهم الذين يسمعون دعوة محمد مباشرة، وقبل من كان في مصر أو الشام أو اليمن أو غير ذلك، فإذا كفروا به وأنكروا ما جاء به صاروا بهذا أول من كفر به من هذه الحيشية، وإلا فقد كفر به قبلهم أهل مكة، =

= ولكن المقصود هنا بنو إسرائيل.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وفي هذا أيضاً

توبيخ لهم على أعمالهم القبيحة التي جاؤوا بها، والتي منها: أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، فهم موبّخون لنسيانهم أنفسهم لا على أمرهم بالبر، فأمرهم بالبر مطلوب، والعاصي له أن يأمر وينهى، بل عليه أن يأمر وينهى، ولكن عيبه والذي يؤخذ عليه أن يأمر ولا يفعل، وأن ينهى ويفعل.

فالمطلوب من كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كان عنده معاص، فلو لم يأمر إلا من كان كاملاً لتعطل هذا الواجب العظيم، ولكن على الأمر أو الناهي أن يتقي الله، ولا يتشبه باليهود الذين يأمرون بالبر وينسون أنفسهم، قال بعض السلف في هذا: إنهم كانوا يأمرون أصدقاءهم وأولياءهم بمتابعة محمد ﷺ، فيقولون لهم تابعوا: محمداً، ويبينون لهم أوصافه، ويرشدونهم إليه، وينصحونهم، وهم مع ذلك لا يتبعون محمداً عليه الصلاة والسلام. وقال بعضهم: ذلك أنهم يأمرون عامتهم =

= من أهل الكتاب باتباع التوراة والتمسك بها، وهم أنفسهم يخالفونها ويحيدون عنها ويحيدون كثيراً منها بأهوائهم.

وفي كلِّ حال هم ملومون على كفرهم، وعصيانهم ما أمروا به غيرهم، سواء كان أمرهم لهم باتباع محمد أو باتباع التوراة، فهم ملومون على كل حال.

والمقصود من هذا كله أن تتنبَّه هذه الأمة، وألا تكون مثل أولئك اليهود الضالين والمغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق ويعلمونه في قرارة قلوبهم، ولكن يحملهم الحسد والبغي وإيثار العاجلة على ترك الحق، نسأل الله السلامة.

[بعض ما وقع لبني إسرائيل من العقوبات]

❁ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ^{٥٨} وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. [٢]

[شرح ٢] في هذه الآيات - كما التي قبلها - عِظة وذكرى وبيان لما وقع لبني إسرائيل من العقوبات، وما ساق الله لهم من النعم، وأنه سبحانه ابتلاهم بالنعم الكثيرة، وابتلاهم بالمخالفة لكثير من أوامره، وبسبب ما فعلوه من قتلهم الأنبياء، والاعتداء عليهم، فمن أجل ذلك فرض الله عليهم الذلَّة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله - نعوذ بالله - لأن الله ساق لهم نعماً كثيرة وأرزاقاً متنوعة، وأمرهم بأوامر ونهاهم عن نواه، ولكنهم كثيراً ما يرتكبون النواهي ويعصون الأوامر.

= قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حنطة في شعيرة، وغيروا وبدلوا. وقد جعل الله طاعتهم حِطَّةً لذنوبهم، ولكنهم لم يمتثلوا، وإنما غيروا وبدلوا، فصار ذلك من أسباب عذابهم ونكالهم.

والله ﷻ يغفر للمحسنين ويزيدهم من فضله، فإذا امتثل العبد أمره وابتعد عن نهيهِ، غفر الله له سبحانه وتعالى وزاده من فضله ﴿وَسَبِّزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولكن إذا أبى العبد إلا العصيان والتباعد عن أمره وارتكاب نهيهِ، فإنه بهذا متعرِّضٌ لغضب الله وعقابه كما تعرَّضت اليهود، فصاروا إلى ما صاروا إليه من غضب الله ونكاله، وقسوة قلوبهم وعصيانهم للرسول، واستدبارهم عن الحق إلى يومنا هذا.

ولقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ فاستكبروا عن طاعته واستمروا في عصيانه وعدم تصديقه ﷺ، كما فعلوا بموسى وهارون عليهما السلام، وكما فعلوا بعيسى عليه السلام - كذبوه ورموه بالعظائم وقالوا: إنه ولد بغي - فجرائمهم كثيرة وشرُّهم متلوّن، نعوذ بالله من هذا. =

.....

= والسر في ذلك استكبارهم عن الحق وإيثارهم العاجلة وعدم شكرهم للنعم؛ لذا فيجب على كل من له أدنى بصيرة أن يتنبه لهذا الأمر، وأن يحذر من التشبه بأولئك الأعداء، فالله قصص علينا قصصهم لنحذر ولنأخذ العبرة، وأن من ارتكب محارم الله، وتباعد عن أمره سبحانه وتعالى، استحق العقوبة واستحق الغضب - وإن كان من كان - فقد فضّلهم الله على العالمين في زمانهم، وأعطاهم خيراً كثيراً، وأرسل لهم الرسل الكثيرة، ومع ذلك لما عصوا واستكبروا أصابهم ما أصابهم من غضب الله وعقابه، وحلّ بهم ما حلّ من أنواع العقوبات حتى مُسّخ بعضهم قردهً وبعضهم خنازير - نعوذ بالله - بسبب عصيانهم وكفرهم بالله واستكبارهم عن الحق. فلنا - معشر أمة محمد ﷺ - في هذا عظة وذكرى حتى نحذر معاصي الله، ونقف عند حدوده، وحتى نتباعد عن مناهيه، ونسارع إلى أوامر الله سبحانه وتعالى.

ومن تأمل قصة بني إسرائيل في كل مكان رأى فيها العظة، ففي سورة البقرة وفي سورة الأعراف وغيرهما، يرى منهم من =

= العصيان والاستكبار والمخالفة للأنبياء ما يدل على مرض القلوب وقسوتها وكبرها وحسدها وعدم مُبالاتها بأمر الله، يتوبون ثم ينقضون، ويعملون الصالحات ثم يعودون للسيئات، والعياذ بالله.

فالمقصود من هذا كله أن يَنْتَبِهَ العاقل، وألا يكون مثل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا العقاب من الله، وأن يَعْلَمَ أن الله سبحانه وتعالى يبتلي بالنعم والنقم، ويبتلي بالسراء والضراء.

فالواجب أن تُقَابِلَ السَّراءُ بِشكر الله والقيام بحقِّه، وأن تُقَابِلَ الضَّرَّاءُ بالصبر والاحتساب حتى يَفْرَجَ اللهُ، مع تعاطي الأسباب التي شرعها سبحانه لعلاج ما يقع من الضَّرَّاءِ، فعلاج الذنوب بالتوبة النصوح، وعلاج النُّعم التي يَسَّرُها جل وعلا بشكره والقيام بحقِّه والاستعانة بها على طاعته سبحانه وتعالى، وعلاجُ الأمراض وغير ذلك من الأشياء بالأسباب التي شرعها الله مع سؤاله العافية، والشفاء إلى غير ذلك، فما أنزل الله داءً إلا وأنزل له شفاءً، وأعظم الداء الكفر بالله ثم سائر الذنوب، والله تعالى جعل لها دواءً وهو التوبة، فمن تاب تاب الله عليه، فنسأل الله العافية =

= والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

* س: ما حالات التشبه باليهود والنصارى؟

ج: تتنوع، فتارة يكون التشبه بهم في العقيدة وتارة يكون فيما دون ذلك، فقد يُتَّشَبَّهُ بهم في العقيدة - نعوذ بالله - في تكذيب الرسل، كتكذيب عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن فعل ذلك صار مثلهم في الكفر بالله، وقد يُتَّشَبَّهُ بهم فيما دون العقيدة كارتكاب المعاصي، فمن عصى الله وهو يعلم فقد تشبه باليهود؛ لأنهم عصوا الله على علم فاستحقوا الغضب، فكل من عصى الله على علم فله شبه بهم في استحقاقه خصلةً من غضب الله.

واليهود ليس لهم خاصية بهذا، فالمقصود أي تشبه بكل أنواع الكفار، فمَنْ تَشَبَّهَ بما اُخْتَصَّ به النصارى في دينهم، وصار معروفاً من دينهم، أو في أزيائهم الخاصة، فقد أصبح يُقْتَدَى بهم، نسأل الله العافية، وفي ذلك وعيد شديد قال عليه الصلاة والسلام: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، فهو وعيد شديد يجب الحذر منه.

س: ما الحدُّ الفاصل للتشبه بالكفار في اللباس وغير ذلك، وخصوصاً =

(١) أخرجه أبو داود: اللباس (٤٠٣١).

= أن بعض البلاد التي تسمى بالإسلام لها لباس - وبكل أسف - بينه وبين لباس اليهود والنصارى وغيرهم شبه؟

ج: إذا انتشر الشيء بين المسلمين وغيرهم فلا يكون فيه شبه بالكفار، وإنما التشبه في شيء من أصل دينهم أو يغلب عليهم دون غيرهم، أما إذا انتشر بين المسلمين مثل: الكنادر، وركوب السيارات، وركوب الطائرات، فهو مشترك، ليس فيه تشبه.

وهذا بخلاف الشيء الذي يكون في زيهم أو عاداتهم في بلادهم أو فيما بينهم، فينبغي أن يُتحرَّز منه، مثل: النار للنصارى، ومثل عادة النصارى واليهود في مزياعهم وفي أغانيهم التي يمتازون بها أو غلبت عليهم، فلا يتشبه المسلم بها، وأما ما انتشر بين العالم وصار للعالم كله فهو مشترك فلا يكون هذا خاصاً بالكفار، وليس فيه تشبه بأعداء الله.

س: هل لبس البنطال من التشبه بهم؟

ج: كَثُرَ البنطال الآن بين المسلمين والكفار وانتشر، لكن تركه أولى؛ لأن فعله يغلب على الكفرة، فأن يُترك ويُتَحاشى أحوط، وإن كان قد انتشر بين المسلمين ولبسه المسلمون وغيرهم، ورأوا فيه خفة لهم في أعمالهم وفي غير ذلك، ورأوا أنه أسهل عليهم من اللبس المعتاد. فهذا - فيما يظهر - يخف فيه التشبه؛ لأنه الآن صار من زي أهل الإسلام، ورأوا فيه مصلحة، =

= وقد يقال في هذا: إنه لا يكون تشبهه بمحرّم، ولكن ينبغي أن يُتورع عنه. ومن هذا الباب لبس النبي ﷺ الحَبْرَة وهي من برود اليمن، وكان اليمن أكثره كافر، ولبس الجُبّة الشامية في الشام شيء مُشترك، فالذي فشا بين العرب لا يكون فيه تشبه، فالجبة الشامية التي لبسها يوم تبوك، فلما ضاقت عليه أخرج يديه من أسفلها وغسلهما، وبرود اليمن كانت تُباع في المدينة فيشترونها ويلبسونها لأنها شيء معتاد، وكالأزر المخططة أصبحوا ينسجونها في اليمن.

س: إذا لبس الشاب المسلم البنطال لم يكن فارق بينه وبين اليهودي في لباسه، فمثلاً إذا دخل أحدنا محلاً، لا يدري من المسلم، فما الرأي؟

ج: هذا شيء آخر، فينبغي أن يكون للشاب ميّزة في التَّنَقُّل في البلاد بين المسلمين والكفار، وينبغي أن يكون للكفار ميّزة حتى يُعرَفوا وحتى لا يتشبهوا بالمسلمين؛ فإذا كان للمسلمين قوة ينبغي أن يُلزموا الكفار بزيّ خاص، وإذا لم يكن لهم قوة ينبغي أن يتزيّوا هم بزيّ يُميّزهم عن أعدائهم إذا كان هناك اختلاط كثير واشتباه، حتى لا يشتبهوا بالمسلمين في مراكبهم وفي لباسهم، فلا بد عند الاشتباه من العناية بزيّ يُميز هؤلاء عن هؤلاء، سواء كان في المسلمين أو في الكافرين.

ومن أحسن من كتب في هذا الباب شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمة الله عليه، فقد كتب في هذا كتابة عظيمة ومفيدة في كتاب: =

.....

= «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وهو كتاب جيد
ينبغي أن يقرأ وأن يُعتنى به اعتناءً كبيراً.

[تحويل القبلة]

❁ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ
الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ
عَقِبَهُ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى
تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۗ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۗ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۗ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۗ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ۗ وَمَا بَعْضُهُمْ
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۗ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ^ط وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
 لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ^ط فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُكْفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴿البقرة: ١٤٢-١٤٧﴾. [٣]

[شرح ٣] في هذه الآيات من التوجيه والإرشاد والدعوة إلى الخير
 والتنبيه على ضلال اليهود وجحدهم للحق واستكبارهم عن
 اتباعه ما فيه عظة وذكرى لأهل الإيمان، وهكذا شأن كتاب الله
 جل وعلا في كل مكان، كلُّ عِظَةٍ، وكلُّ ذِكْرٍ، وكلُّ توجيه إلى
 الخير، لكن لمن تدبَّر وتَعَقَّل، ولمن آمن بأنه من عند الله جل وعلا،
 وأنه كلامه سبحانه، فجدير بالمؤمن أن يُعنى بهذا الكتاب
 العظيم، وأن يُقبل عليه دائماً بتدبر وتَعَقُّل، وأن يحرص على
 الاستفادة منه، فإنه كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ^ط تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقد قال
 سبحانه فيه: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
 الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي
 هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وفيه يقول: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ =

= مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥]،
 ويقول أيضاً: ﴿٢٤﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾
 [محمد: ٢٤].

فجدير بالمؤمن - ولا سيما طالب العلم - أن يخص هذا
 الكتاب بالعبادة العظيمة في قراءته وتلاوته وتدبره، والحرص على
 الاستفادة منه، ومعرفة مراد الله منه، حتى يعمل بذلك.

فعندما نسخ الله القبلة قبل أن يأتي محمد ﷺ إلى المدينة، حيث
 صلى إلى جهة الشام دهرًا طويلًا؛ نحو ستة عشر شهرًا أو سبعة
 عشر شهرًا، ثم حوَّله الله إلى الكعبة في رجب أو شعبان من السنة
 الثانية للهجرة، فبيّن الله سبحانه وتعالى قول السفهاء من اليهود:
 ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ آلَاتٍ كَانُوا عَلَيْهَا﴾ واستنكروا ذلك وعابوا
 عليهم هذا التحول عن القبلة التي كانوا يصلون إلى جهتها، وهذا
 من ظلم اليهود ومن جهلهم ومن عنادهم، فهم يعلمون أن الله
 جل وعلا ينسخ ما يشاء سبحانه وتعالى، وله التصرف في حكمه =

= وفي شرعه جل وعلا، ولكن للعب على المسلمين وللطعن عليهم وللتشكيك فيما جاء به نبيهم عليه الصلاة والسلام، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فالمرصّف هو الله سبحانه وتعالى يولي من يشاء ما يشاء جل وعلا.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه جعل هذه الأمة وسطاً، يعني: عدلاً خياراً، حتى تشهد على هذه الأمة بأن الله بلّغها، وحتى تشهد على الأمم الماضية بأن الرسل بلّغت؛ فهي أمة عدلٌ لما أعطاهم الله من الإيمان والاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بذلك أن يستفاد منهم لأنهم أمة وسط، والخطاب لأهل الاستقامة الذين جعلهم الله وَسَطًا وَعَدْلًا وخياراً، قال فيهم سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهؤلاء مستشهدون على هذه الأمة وعلى غيرها من الأمم أنها بلّغت، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد بلّغوا، والرسول شهيد على هذه الأمة =

.....

= أنه بلغها، وأنه أُرسِلَ إليها عليه الصلاة والسلام، وفي هذا بيان لحال اليهود وخبثهم وضلالهم، وجنس أهل الكتاب مطلقاً، وأنهم يعرفون الحق ويكتمونه على بصيرة، ولكن ربنا جل وعلا يُملي ولا يأخذ، فأملى لهم كثيراً، وأمهلهم كثيراً، وعاقبهم كثيراً سبحانه وتعالى.

وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحذر مشابهة أهل الكتاب في جحد الحق وهو يعلم؛ أتباعاً لهواه وإيثاراً لدنياه وشيطانه، وأتباعاً لما تمليه عليه نفسه الأمانة بالسوء، أو إيثاراً لحظّ عاجل يريد أن يحصله في جحده الحقّ وعدم إقراره به، كما هو ديدن اليهود، وديدن رؤساء النصارى وقادتهم وأشباههم من دُعاة الباطل، فكثير منهم يعلم الحق وينكره لأسباب كثيرة، منها: الحسد والبغي، وأتباع الهوى، وطاعة الرؤساء والأكابر، وطلب الحظّ العاجل في الدنيا، ومنها الرشوة إلى غير ذلك.

ففي هذا تحذير من أن يعمل الإنسان مثل عمل أعداء الله من اليهود والنصارى أو غيرهم في إيثار الباطل، وفي جحد الحق، وفي =

= إنكار ما جاءت به الرسل من الهدى، من أجل بعض الحظوظ العاجلة، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذا بيان أن اليهود كانت تعرف رسول الله، وتعرف الحق كما تعرف أبناءها، ولكن حملهم البغي والحسد على إنكار الحق وعلى جحده، حتى لا يقول لهم عامتهم: لماذا تعرفون الحق وتقرُّون به، ثم لا تتبعون هذا الحق ما دمتم تعرفون أن محمداً حق، وأنه رسول الله حقاً؟! فهم يجحدون هذا؛ لئلا يُقال لهم هذا الكلام، ولئلا يُحاجُّهم أتباعهم ورِعاعُهم وعاتتهم فيما أقرُّوا به من الحق.

ففي هذا دعوة للمسلمين وحثُّهم على الانطلاق على الطريق السوي، وعلى عدم اتِّباع الهوى، وأن أهل الإيمان إذا اتَّبَعُوا أهواءهم واتَّبَعُوا أهواء أهل الكفر بالله من اليهود وغيرهم هلَكُوا وضلُّوا، فالواجب هو اتِّباع الحق، ولن يرضى عنا مشركٌ قط إلا باتباع ما هو عليه من الباطل، وإذا اتبع المسلمون أهواء أعداء الله هلَكُوا وضلُّوا عن سواء السبيل، واتَّبَعُوا أهواء الكفار تارةً يكون رِدَّةً، وتارةً يكون معصيةً، وتارةً يكون دون ذلك.

.....

= فالحاصل أن الواجب على أهل الإيمان الحذر من أتباع الهوى، سواء كان الهوى لزيد أو عمرو أو اليهود أو النصارى أو غير ذلك، وأن يكون هدفه أتباع الحق، سواء كان الحق مع أصحابه وأوليائه، أو كان مع خصومه وأعدائه، فهو يُؤثر الحق ويقبله ممن جاء به مطلقاً، وهذا هو الدليل على سلامة الفطرة وسلامة القصد، رزق الله الجميع التوفيق والهداية.

[فضل الصابرين والمقاتلين في سبيل الله]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَمُوتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ
 الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِتِ ۗ وَبَشِيرِ
 الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ❁ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَابِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ
 حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن
 تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
 أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
 وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
 ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا ۗ لَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ

الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
الْيَلِّ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٥٣-
[١٦٤]. [٤]

[شرح ٤] في هذه الآيات الكريبات من العِظة والذكرى والدلائل
العظيمة على وجود الله وقدرته واستحقاقه العبادة سبحانه وتعالى،
وعلى فضل الصبر وفضل الصابرين، وعلى أن الله سبحانه قد يتلي
بعض عباده بشيءٍ من النقص، وأن لهم الفضل العظيم والعاقبة
الحميدة إذا صبروا، وفيها الدلالة على الدعوة إلى مكارم الأخلاق
ومحاسن الأعمال، وهكذا كتاب الله جل وعلا كله دعوة إلى الخير
وتحذير من الشر، وبيان لأحكام الله، وحثُّ على التزامها، وتحذيرٌ
مما نهى عنه جل وعلا.

ففي هذه الآيات يأمر سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة عند =

= المُلَمَّات، وأن الشدائد والكُربات والحاجات التي تنزل بالعبد ينبغي له أن يستعين فيها بالصبر والصلاة، بالصبر على ما ينبغي فيها من أدائها بكل نشاطٍ وقوة، واستكمال ما ينبغي فيها، والحرص على أن تكون على الوجه الذي شرعه الله جل وعلا، فإن الصبر عونٌ للعبد على المُهَمَّات، من جلبٍ مطلوب ودفعٍ مكروه. يُروى عن عمر رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر^(١). ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبرَ له^(٢).

فالصبر له شأن عظيم، وقد ذكره الله في مواضع كثيرة من كتابه، قال بعض السلف: إنه ذُكر في أكثر من تسعين موضعاً من كتاب الله، ومن هذا قوله جل وعلا هنا: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فأمَرَ بالاستعانة بالصبر والصلاة، ثم أخبر أنه مع الصابرين سبحانه وتعالى، =

(١) علَّقه البخاري، باب الصبر عن محارم الله، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قبل الحديث (١٤٦٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٣١)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٣٩).

= وهذه معية خاصة تقتضي توفيق الصابرين ونصرهم وإعانتهم
وتسديدهم إلى غير ذلك، كما في قوله ﷺ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ
أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾
[التوبة: ٤٠]، إلى غير ذلك. فالمقصود أن المعية الخاصة لها شأن
غير المعية العامة، فالصابرون هم أهل التقوى والإيمان والثبات
على الحق، وينال غيرهم من أعدائهم من فضل الصبر شيء كثير؛
فالصبر ثبات واستمرار على الحق، وهو الحرص على الأخذ
بأسبابه، فإذا أخذ بها أهل الإيمان نجحوا وأفلحوا، وإذا أخذ بها
غيرهم فقد يُنصرون بها على ضدهم، فينبغي على أهل الإيمان أن
يكونوا أصبر الناس وأثبتهم على حقهم، وعلى الدفاع والذَّب
عنه، وعلى إنكار الباطل ومحاربه، فإذا كان غيرهم قد يصبرون
وهم على باطل، فأهل الإيمان والتقوى أولى بالصبر على حقهم
والثبات عليه.

ثم فيه أيضاً الدلالة على أن العباد قد يُبتَلون بالنقص
في الأموال والأنفس والثمرات، وقد يُبتَلون بشيء من الخوف
والجوع، وهذا قد يقع لأولياء الله وأنبيائه، فأشد الناس بلاءً =

= الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فالنبيُّ قد يُبتلى،
والصالح قد يُبتلى، فينبغي أن يقابل ذلك بالصبر والثبات على الحق
والحذر من الباطل، والأخذِ بالأسباب التي تعين على الصبر وعلى
الحق وعلى ترك الباطل. والصابر: هو الذي يحبس نفسه على الشيء
المطلوب، وعلى ترك الشيء المكروه، ويجاهدها حتى يقطع المسافة
وينتهي وقت الخطر.

ثم بين جل وعلا ما للصابرين من الخير فقال: ﴿وَبَشِّرِ
الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١﴾ فهذه بشرى من الله جل وعلا، لما لهم عنده من
الصلوات والرحمة والهداية، وهذا من جزائهم؛ أن الله جل وعلا
يثني عليهم في الملأ الأعلى ويرحمهم برحمته العظيمة الخاصة،
ويهديهم سبحانه وتعالى، يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: نِعَمَ العِدْلانِ
ونِعَمَتِ العِلاوة^(١). العِدْلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الهداية،
فينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه في هذا الباب وغيره من أبواب
الخير، وأن يتحرى ما شرعه الله له في جميع أموره وشؤونه، وأن =

(١) علقه البخاري في «صحيحه»، باب الصبر عند الصدمة الأولى، قبل الحديث (١٣٠٢).

= يحذر الجزاء وعدم الصبر في جميع الأمور، ومن ذلك ما يُبتلى به من موتٍ قريبٍ وصديقٍ ونحو ذلك، وما يُبتلى به من مرضٍ أو فقرٍ أو ما أشبه ذلك، فليعالج بالصبر وليأخذ بالأسباب، والصبر: حبسٌ على الحق وكفٌ عما سواه مع الأخذ بالأسباب؛ كعلاج المريض وعلاج الفقر وعلاج الأشياء الأخرى التي يُبتلى بها، فيعالجها بما شرع الله جل وعلا، فيعالج ما يبتلى به من معاصي بالتوبة والندم والإقلاع، ويعالج المصائب التي تصيبه كالمريض بالدواء، وكالفقر بالأخذ بأسباب العيش المباحة، ويعالج البدع بإنكارها والحذر منها، والدعوة إلى السنة، ويعالج الكفر بالتحذير منه والدعوة إلى التوبة والإسلام، وهكذا المؤمن في جميع أحواله يعالج المشاكل بما شرع الله له من الدواء والعلاج، ويصبر على الحق ويثبت عليه، ويأخذ بالأسباب التي تعينه للثبات على الحق وعلى محاربة الباطل.

وفي هذه الآيات أيضاً الدلالة على وجوب إظهار الحق وبيانه، وأن إظهار الحق أمرٌ لازم، وأن كتمانته من الكبائر ومن صفات =

= اليهود الخبثاء، فالمؤمن يُجاهد نفسه في إظهار الحق والدعوة إليه والصبر على ذلك، ومع ذلك يحذر الكتمان في أي شيء، وإذا وقع منه شيء من ذلك بادر بالتوبة والإصلاح والبيان.

ويبين الربُّ سبحانه وتعالى أن التوبة من تمامها ومن شرطها: الإصلاح والبيان، فمن تاب مما مضى من سيئاته يجب عليه أن يصلح أموره، ويُتبع التوبة بالإيمان الصادق والعمل الصالح وبيان الحق، قال: ﴿وَبَيِّنُوا﴾ فلا بُدَّ من إظهار الحق والدعوة إليه، ولا بد في التوبة من إتباعها العمل الصالح، ولا بد من إتباعها البيان، فإذا كانت توبة من كتمان فلا بد من بيان حتى يعلم أنه رجع عن باطله، وأنه ثبت على الحق وصار إليه، بخلاف اليهود وأشباه اليهود، فإنهم يرون إظهار الحق والتوبة نقصاً عليهم، فيستمرون في كتمان الحق وإنكاره؛ لأجل تثبيت أهوائهم وأغراضهم الخسيسة، فلا ينبغي للمؤمن أن يتشبه بأعداء الله في كتم الحق وعدم إظهاره لغرضٍ من الأغراض، ولا ينبغي له أن يستحيي من الرجوع إلى الحق، فالرجوع إليه فضيلةٌ وحقٌّ، والبقاء في الباطل رذيلةٌ وذُلٌّ =

= وهو أن وتعرض لسخط الله ﷻ، فلا بد من الرجوع إلى الحق، ولا بد من الحذر من الباطل، حتى تسلم من غضب الله وعقابه، وحتى تفوز بأسباب الكرامة والعاقبة الحميدة.

وفي قوله جل وعلا: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُهُ وَوَجِدْ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ دلالة على استحقاقه للعبادة، وأنه الرب العظيم، وأنه المانع القادر، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه المالك لكل شيء، وأنه المتصرف في شؤون عباده، وأن العبادة حقه سبحانه وتعالى.

ولهذا ذكر بعد ذلك الدلائل على وجوده وربوبيته فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، فذكر أشياء عديدة تدل على قدرته العظيمة من اختلاف الليل والنهار، واختلاف السماء والأرض، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من الأرزاق والحاجات الأخرى، فكلها من فضله وإحسانه جل وعلا، فالذي خلق السماوات والأرض وجعل الليل والنهار مختلفين، وثبت هذه الجوارى في البحار من مواخر وسفن وغير ذلك، وثبت هذه الطائرات في الجو، وأعطى =

= العباد ما أعطاهم من المراكب، كل ذلك يدل على استحقاقه العباد، وأنه الخلاق العليم، وأنه قادر على كل شيء، وهكذا تصريف الرياح، وهكذا السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهكذا ما بث في الأرض من دواب، وهكذا ما فيها من معادن وجبال وأنهار وبحار، كل هذه دلائل على قدرته العظيمة، وأنه رب العالمين، وأنه الخلاق العليم.

فينبغي للمؤمن أن يتفكر وينظر كثيراً في مخلوقات الله وما فيها من الدلائل على عَظَمته سبحانه، كما ينظر كثيراً في شرعه وما أمرَ به من أحكام؛ لما فيها من الدلالة على حكمته العظيمة، وعلى علمه العظيم، وعلى أنه سبحانه شرع لعباده ما فيه صلاحهم ونجاتهم، واستقامة أخلاقهم وحالهم مع ربهم ومع الناس.

ومن تدبر ونظر رأى العِبَر، ورأى الفوائد العظيمة، وكان هذا من أسباب صلاح قلبه وصلاح أعماله، قال بعض السلف: من كانت له فكرة كان له في كل شيء عبرة. فالتفكر والنظر في مخلوقات الله وما أودع في الأرض والسماء، والتفكر في نفسك وما =

.....

= جعل فيك من عجائب وآيات وعبر، والتفكر في غيرك، كل ذلك من الدلائل على عظمة خالقك سبحانه وتعالى، وعلى أنه ربُّ الجميع، وعلى أنه الإله الحق، وأنه مستحق العباد، وأن العباد لغيره كفرٌ وضلال.

[التوجيه إلى مكارم الأخلاق]

❁ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَةٌ فَنَّتَبَّرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۗ أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۗ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ
 لِغَيْرِ اللَّهِ ^ط فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ^ع إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
 الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ^٥ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
 يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ^ع فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
 النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ^ط وَإِنَّ الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا
 وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ
 ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
 الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
 عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ^ط أُولَئِكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا ^ط وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴿البقرة: ١٦٥-١٧٧﴾. [٥]

[شرح ٥] في هذه الآيات التوجيه إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن =

= الأعمال، والتحذير من سفاسف الأخلاق، وسيئ الأعمال، وفيها الدعوة إلى القول بالعلم والأخذ به، والحذر من التقليد الأعمى الذي يشبه صاحبه البهيمية، وينقاد لكل ناعق، ولا يعرف حقاً ولا باطلاً بدليله، وهذه حال أعداء الله من المشركين ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والمعنى: أنه ليس لهم عناية بالفهم ولا بالدليل، ولكنهم كالبهائم التي يُنْعَقُ لها يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ فليس عندهم إلا أتباع الأسلاف والأجداد والأصحاب والأصدقاء وما أشبه ذلك.

فالمؤمن مأمور بأن يتبع ما أنزل الله، ويأخذ بالحق ويلزمه وإن خالف آباءه وأجداده وأسلافه، وإن خالف عادةً بلده وقومه، =

= ويدع الباطل وإن كان عليه أسلافه؛ لأن الله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان الحق والدعوة إليه، وإنكار الباطل والنهي عنه، فليس لأحد أن يُعرض عما جاءت به الرسل، ويقول: هذا كلام أبي وجدي، أو عادة قومي، بل يجب عليه أن يقصد الحق ويطلبه، وأن يعمل به مع من كان ومن كان، ولا يتقيد بأنه قال فلان أو ذهب إليه فلان أو ما أشبه ذلك.

وفي الآيات المذكورات أيضاً الدلائل على أن الأصل في الأشياء الحِلُّ والإباحة ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ والخطوات: هي ما يدعو إليه من الباطل، فالواجب على المؤمن أن يحذر خطواته، وأن يأخذ بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الهدى والعلم.

وبيّن جل وعلا أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، ويدخل في هذا كل ما نهى الله عنه من الشرك وما دونه، ومن خطواته: الدعوة إلى القول على الله بغير علم، والله حرم ذلك كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ =

= وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، فجعلها في المرتبة العليا فوق الشرك؛ لأن المشرك قد قال على الله بغير علم، وهكذا كل كافر وكل مخالف للحق قال على الله بغير علم، فالواجب على المكلفين قبول الحق والأخذ به والحذر من القول على الله بغير علم، وهذا يوجب النظر في الدليل والعناية بما جاءت به الرسل ولا سيما نبينا محمد ﷺ وهو نصيبنا وحظنا. فإن لم يكن عند الإنسان علم فعليه أن يقول: الله أعلم، ويقول: لا أدري، ولا يتكلم بلا علم، فإن القول على الله بغير علم يوقع في شر كثير، في كفر ومعاصي وضلال وتحليل ما حرم الله، إلى غير ذلك، وهذا ما يدعو إليه الشيطان، فهو يدعو الناس إلى أن يقولوا على الله بغير علم حتى يكثر الباطل وتكثر البدع والأهواء، وحتى يقل الحق.

وفي هذه الآيات أمر الله تعالى بالأكل من الطيبات مع الشكر فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فالواجب شكر الله على =

= نِعْمه، وإن كان الأصل في الأكل من الطيبات هو الإباحة إلا أن الإنسان مأمور بأن يأكل مما رزقه الله حتى يحفظ قوّته وصحته، ويستعين بنعم الله على طاعته، فالأكل يكون حلالاً ويكون مباحاً ويكون مستحباً ويكون واجباً، ولهذا أطلق الله الأمر بذلك ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فقد يكون الأكل عليه واجباً إذا كان تركه يُفضي إلى هلاكه، وقد يكون مستحباً إذا احتاج إلى ذلك، وقد يكون مباحاً على حسب حاجة العبد.

فالحاصل أن الله أباح لنا الأكل من الطيبات وأمرنا بالشكر ووجب علينا أن نشكره سبحانه، وشكره يكون بالقيام بحقه قولاً وعملاً وعقيدةً، وهذا مثل قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فلو أن أحداً يُسامح من العمل لكانت الرسل أولى بذلك، لأنهم خير الخلق وأفضلهم، وأعلم الناس بالله، ومع هذا أمروا بالعمل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وهكذا قال للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ والشكر هو =

.....

= العمل ﴿اعْمَلُواْ ۚ اَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، والعمل يكون بالعقيدة الطيبة الموافقة لشرع الله، ويكون بالقول الطيب الموافق لشرع الله، ويكون بالعمل الصالح الموافق لشرع الله، فالقول وحده لا يكفي، فلا بد من قول طيب ولا بد من عقيدة طيبة ولا بد من عمل طيب، بأداء ما أوجبه الله وترك ما حرمه الله، فالشكر يكون باللسان ويكون بالقلب ويكون بالعمل، أما الشكر باللسان: فهو الثناء على الله جل وعلا بما هو أهله سبحانه وتعالى، وعمل ما أمر به والنهي عما نهى عنه، والإكثار من ذكره إلى غير ذلك، والشكر بالقلب: محبة المنعم والإخلاص له وخوفه ورجاؤه، واعتقاد ما أباح وما أحل وما أوجب إلى غير ذلك، والشكر بالعمل: أداء ما أوجب الله واجتناب ما حرم الله.

ثم ذكر بعد ذلك شدة الوعيد في حق من كتم ما أنزل الله، وما وُعدوا من البلاء والعذاب بسبب كتمانهم الحق ليشتروا به ثمناً قليلاً، والشراء هنا ليس معناه الشراء الاصطلاحي عند الفقهاء (البيع والشراء)، وإنما المقصود به: الاعتياض، كما في قوله ﷻ: =

= ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]، يعني:
 يعتاض ولو دون بيع وشراء، فالمقصود أن اليهود وأشباه اليهود
 ممن كتم الحق، ليعتاضوا عنه شيئاً من الباطل، وسمي شراءً لأن
 الشراء معاوضة، فهو اعتاض عن الحق الذي كتمه ديانة أو جحوداً
 أو عروضاً أو غير ذلك مما يُعطأها كاتم الحق من اليهود وغيرهم.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهذه فيها
 أيضاً بيان الإيمان وأنه أقوال وأعمال وعقيدة، فالإيمان عند أهل
 السنة قولٌ وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح،
 ويعبر بعضهم بقوله: قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان وعقيدةٌ
 بالجنان، فقول القلب: إقراره واعترافه، وقول اللسان: نُطقه،
 وعمل القلب: بخوفه ورجائه ومحبه وإخلاصه إلى غير ذلك،
 وعمل الجوارح: بأداء الفرائض وترك المحارم إلى غير ذلك.

أما مفهوم الإيمان عند أهل البدع، فهو عند بعضهم: القول
 فقط، وقال بعضهم: المعرفة فقط، وقال بعضهم: القول والكلام
 فقط، وقال بعضهم: قول وعمل ولكن لا يزيد ولا ينقص، =

= كالجوارح والمعتزلة، بخلاف أهل السنة والجماعة الذين قالوا:
قول وعمل يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وهذه الآية تدل على قول أهل السنة والجماعة، فقد ذكر فيها
الإيمان وذكر فيها العمل، فذكر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبين، هذه عقيدة القلب، ثم قال: ﴿وَأَتَى
أَمْالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَأَلْتَمَعَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ إلى آخره، هذه هي الأعمال التي تدل
على أن الإيمان قول وعمل ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ﴾ وهذا أيضاً من عمل القلب والجوارح جميعاً.

ثم قال بعد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾
فدل على أن الصادقين المؤمنين المتقين هم أهل القول والعمل، فهم
أهل العقيدة الصادقة والعمل الصالح، فالمتقي الصادق المؤمن هو
الذي يجمع بين هذه الأمور؛ يقول بلسانه، ويعتقد بقلبه الحق،
ويعمل بجوارحه حسب طاقته. بخلاف الكذابين والمقصرين، =

= فالمنافق يقول ولا يعمل، ليس بصادق، وليس عنده عقيدة، وإنما يقول فقط لِحَظَّةِ العاجل ﴿يَقُولُونَ بِأَقْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، هذا شأن المنافقين وأشباههم من العصاة، يقول ويعتقد ولكن لا يعمل، بل يطبع هواه، فتجده مقصراً فيما أوجب الله، تاركاً لبعض ما أوجب الله، فاعلاً لبعض ما حرمه الله عليه من الفواحش والمنكرات، فهذا من ضعف إيمانه وقلة بصيرته، وقع فيما وقع فيه من الباطل فصار إيمانه ناقصاً ودينه ضعيفاً، بسبب أنه ليس عنده من الإيمان القوي والتصديق بالله وأمره ونهيه ما يجعله يدع ما حرمه الله عليه، ويؤدي ما أوجبه الله عليه بتمام.

فما حصل عنده من الضعف في التصديق والإيمان والرغبة فيما عند الله، والشوق إليه جل وعلا، والإيمان بما أخبر به سبحانه وتعالى من الوعد لأهل الإيمان، والوعيد لأهل الكفر والنفاق، كما ضَعُفَ هذا في قلبه حصل عنده ما حصل من النقص، وقد جاء حديث أبي هريرة في «الصحيحين» يدل على هذا المعنى حيث قال =

= عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»^(١)، وفي رواية: «بضع وستون شعبة»^(٢)، وفي رواية مسلم: «أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان»^(٣).

هذا الحديث يدلُّ على ما قال أهل السنة والجماعة من كون الإيمان قولاً وعملاً يزيد وينقص؛ فبالأعمال الصالحات يزداد وبالغفلة والإعراض والمعاصي ينقص، فالواجب على المسلم أن يعنى بهذا الأمر، وأن يحذر من نقص إيمانه، وضعف إيمانه في إقدامه على ما حرم الله، أو تساهله بما أوجب الله، أو غفلته عما يجب عليه.

ومن أسباب هذا الخير التواصي بالحق والتناصح فيما بين المسلمين، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الإنسان يغفل أو يجهل، فإذا وجد من إخوانه من ينصحه ويذكره ويشجعه على الحق ويحذره من الباطل ويزجره عنه =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: الإيمان (٩)، ومسلم: الإيمان (٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

= ويبين له سوء مغبّته صار بذلك من أسباب رجوعه إلى الحق،
ومن أسباب نشاطه في الخير، ومن أسباب تركه لما حرّم الله.

وأما الغفلة وقلة الداعي وقلة المُنكِر للمُنكِر وقلة الأمر
بالمعروف، فإن هذا مما يزيد الباطل باطلاً ويزيد الغفلة غفلةً ويزيد
الكسل كسلاً ويزيد المقصر تقصيراً إلى غير ذلك، ولا حول ولا
قوة إلا بالله.

الحكم وأسرار خلق الأهلّة

❁ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۗ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨١﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِيَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۗ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۗ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ۗ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۗ وَأَحْسِنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۗ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ

مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ۖ فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعِمَّةِ إِلَى الْحَجِّ ۖ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١١٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِّن عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۚ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

[البقرة: ١٨٩-١٩٩]. [٦]

[شرح ٦] في هذه الآيات الكريبات فوائد عظيمة وأحكام كثيرة، يعرفها طالب العلم بالتدبر والتعقل لهذه الآيات العظيمة، =

= وتُعرف أيضاً بَدْرَس ذلك من كتب التفسير، ولكن نذكر بعض ما اشتملت عليه من بعض الأحكام:

يقول الله جل وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۗ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ يُبَيِّن سبحانه وتعالى أن الله خلق هذه الأهلَةَ لِحَجِّمْ وَأَسْرَارِ، ذكر منها أنها مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، بها تُعرف الشهور والسُّنُونُ، ويعرف الناس آجَالَ دِيُونِهِمْ، وعدة نِسَائِهِمْ، إلى غير ذلك، فالله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدىً، بل كل ما خلق وكل ما شرع هو لمحض الحكمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال بعضهم: إنهم سألوه عن الأهلَةَ كيف تطلع ضعيفة دقيقة، ثم تنمو حتى تمتلئ ويكون نورها، ثم تضعف بعد ذلك، إلى آخره، وقيل: سألوه عن حكمة ظهورها وغروبها. فالله جل وعلا يُبَيِّن لهم أن الحكمة تتحقق بكونها مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، يعرف الناس بها مَوَاقِيتَ معاملاتهم وديونهم وحقوقهم وعدد نِسَائِهِمْ ووقت الحج ونحو ذلك.

ثم يُبَيِّن جل وعلا أن ليس البرِّ بأن نأتي البيوتَ من ظهورها، =

= وليس البرّ بأن نُوجّه وجوهنا قِبَل المشرق في آية أخرى، ولكن البرّ هو التقوى والإيمان، ففي هذه الآية: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ وفي الآية السابقة: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، فيبين سبحانه أن البرّ ليس بأن يُؤلّي العبد وجهه هاهناك أو هاهنا، ويدخل من هذا الباب أو ذاك، أو من ظهر البيت، ولكن البر هو إيمانه بالله وتقواه لله سبحانه وتعالى، وأن يكون عبداً مأموراً، وأن يكون مطيعاً لله ولرسوله ﷺ، مهما أمرت ائتمرت، ومهما تُهيت انتهيت، وذلك عن إخلاص وعن إيمان، لا عن هوى وأغراضٍ خاصة، ولا عن تقليد أعمى، فهذا هو البرّ، وهذا هو الإيمان، وهذا هو الدين.

ومن فوائد هذه الآيات قوله جل وعلا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ للناس في هذه الآية تفسيران:

أحدهما: أنه يُراد بذلك أننا نقاتل من قاتلنا، ونكفّ عن من كفّ عنا، كما هو الحال في أول الأمر، فقد كان المسلمون يقاتلون =

= من قاتلهم ويكفون عن من كف عنهم، كما قال جل وعلا في سورة النساء: ﴿ فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَاعْتَصِبُوا إِثْمَكُمْ إِلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَمَّا يَلْفُتُونَ كَمَا لُفَّتْ بِالْحَبِّ ﴾ [النساء: ٩٠]، ثم نسخ ذلك في الآيات الأخرى التي بعدها: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمًا لَا يُقْبَلُ لَهُمْ جِزْيَةٌ عَلَيْهِمْ أَلْحَافًا وَلَٰكِن يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣] والآية في سورة التوبة: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

فمتى كف عنهم؟ قال: إن تابوا من الشرك، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فخلوا سبيلهم، فدل ذلك على أنه لا يكف عنهم إلا إذا تابوا من شركهم وأدوا حق الله، أو أدوا الجزية كما ورد في الآية الأخرى في أهل الكتاب: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] من أهل الكتاب ومن يلحق بهم من المجوس، هذا أحد القولين وهو قول جيد. وقال: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ أي: ولا تبدؤوهم بقتال وهم ما بدؤوه.

= والقول الثاني: أن الآية الكريمة ليست في هذا المعنى، وأن المراد: قَاتِلُوا مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْقِتَالِ وَمُسْتَعِدٌّ لِلْقِتَالِ، وهم الرجال الكبار، بخلاف النساء والصبيان والشيوخ العاجزين وأشباههم، فإن هؤلاء ليسوا أهل قتال، قالوا: ويدلُّ على هذا أنه قال بعد ذلك بقليل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فدلَّ هذا على أن المراد بذلك قتال من هم من أهل القتال، وليس المراد قتال من قاتل والكف عن كَفٍّ، فهذا أمر قد مضى وانتهى، ومن هذا قوله في سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وهي الشرك، وتطلق الفتنة أيضاً على الكفر والردة عن الإسلام، فالمعنى: قاتلوهم حتى تزول فتنتهم لكم بإيقاعكم في الشرك، وحتى يزول الشرك نفسه بالتوبة إلى الله ﷻ، وذلك ليكون الدين كله لله ويعبد الناس الله جل وعلا ويدعوا ما هم عليه من الباطل والشرك.

ولا منافاة بين القولين؛ فقد استقرت الشريعة على أن المسلمين يقاتلون من قاتلهم ويبدؤون من لا يقاتلهم إذا كانت لهم =

= القوة؛ لأنهم يدعون إلى الجنة، ويدعون إلى النجاة، ويدعون إلى صلاح المجتمع، ويدعون إلى عمارة هذه الدنيا بطاعة الله ورسوله وتوحيده سبحانه وتعالى، فلهم أن يبدؤوا ولهم أن يقابلوا.

وأما قول من قال من الكتاب: إن الإسلام يُدافع فقط ويقا تل مَنْ قاتل فقط، على هذا الإطلاق، فهو خطأ من قائله، إنما كان هذا في فترة من الزمان وفي وقت من الأوقات كان يدافع فقط، ويكف عن كف، ثم لما قوي المسلمون وفتح الله عليهم مكة، وصارت لهم شوكة عظيمة وقدرة على قتال أعداء الله خرجوا لقتالهم؛ فخرجوا مع النبي ﷺ لقتال الروم في غزوة تبوك، وقاتلوا أهل خيبر عام سبع من الهجرة، وخرج المسلمون بعد وفاته ﷺ إلى الروم وإلى فارس وقاتلوا أعداء الله ولم يقفوا عند حدّ الدفاع فقط، فالإسلام ليس دين دفاع ولكنه دين دفاع وبدء وهجوم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإخراجهم من الباطل إلى الحق، لدعوتهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم، والحكم بينهم بما فيه الخير لهم والصلاح والسعادة العاجلة والآجلة، فكيف يكون دين دفاع =

= فقط؟! هذا خطأ كبير، ثم هذا مخالف لهذه الآيات الكريبات، فكلها تتفق على أن القتال يستمر ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فعلم بذلك أنه يقاتل فداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإنقاذهم من الجور والظلم - ظلم الأديان وظلم الظلمة - إلى عدل الإسلام ونوره وسعته، وإلى الحق والهدى، وأن به نجاتهم وسعادتهم في العاجل والآجل، وهذا هو الصواب، فالجهاد له أطوار:

الطور الأول: الجهاد فقط.

والطور الثاني: قتال من قاتل والكف عن كف وجوباً.

والطور الثالث - وهو أعلى الأطوار -: القتال ابتداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من الباطل، وإخراجهم من حكم الجور والظلمة وضيق الدنيا إلى عدل الإسلام وسعته، وإلى أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الكفرة يقاتلون الناس لمصالحهم العاجلة، ويستعبدونهم ليأخذوا ثروات بلادهم ويظلموهم، فكيف =

= يستنكرون على الإسلام وكيف يعيبون الإسلام بالبدء بالقتال لإخراج الناس من الظلمات إلى النور لنفعهم ولمصلحتهم، لا لمصلحة المسلمين، ولا لأجل الطمع في الدنيا؟! إنما قاتلوا أعداء الله لإخراجهم من الظلمات إلى النور لا لأجل المال، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم»^(١)، يبين للناس أن المقصود ليس هو المال ولا النساء ولا الذرية، إنما المقصود هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا هداية الواحد خير من الدنيا وما عليها. وفي الحديث: إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله^(٢)، كما في حديث بُريدة، ثم يأمره أن يستعين بالله ويقاتل الكفرة، ثم بعد ذلك إذا أبوا إلا الجزية أخذ منهم الجزية وكف عنهم.

وهذا - عند العلماء - في اليهود والنصارى والمجوس، لأن الرسول ﷺ أخذها منهم، وما سواهم يُقاتل حتى يدخل في =

(١) أخرجه البخاري: المناقب (١/٣٧٠)، ومسلم: فضائل الصحابة (٦/٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: الجهاد والسير (١٧٣١).

= الإسلام؛ لأن الرسول ﷺ لم يأخذ من أهل الجزيرة جزية بل قاتلهم حتى دخلوا في دين الله، فقاتل أهل مكة، وقاتل الصحابة بني حنيفة ولم يأخذوا الجزية ولم يرضوا بذلك ولم يدعوهم إليها، بل يدعوهم إلى الدخول في دين الله، فالجزية تؤخذ من اليهود والنصارى بنص القرآن، ومن المجوس بنص السنة، أما ما سواهم فلا تؤخذ منهم الجزية عند أكثر العلماء، وقال آخرون: بل يلحق بقية الكفرة إذا أدوا الجزية لحديث بريدة المتقدم.

والحاصل أن الإسلام ليس دين دفاع فقط، إنما كان دين دفاع عند العجز والضعف، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الآية لم تُنسخ، وآيات الدفاع لم تُنسخ، ولكن المسلمين لهم حالات: حالة تكون عندهم قوة ونشاط وعددٌ وعدة، فلهم حينئذٍ أن يدافعوا وأن يبدؤوا، وحالة أخرى يكون عدوهم مسيطراً عليهم وليس عندهم من القوة ما يقابل، ويُخشى عليهم من أن يستبيح العدو غيرتهم، ففي هذه الحالة يكتفون بالدفاع، والدليل الذي يقطع بالدفاع هو حال المسلمين في أول الإسلام وقبل أن يقولوا كانوا يدافعون فقط.

= وهذا هو أصل المقال، وهو الحق الذي ينبغي أن يُعلم، وقد أوضح هذا المعنى جماعة من أهل العلم منهم أبو العباس ابن تيمية رحمته الله في كتابه «الصارم المسلول للرد على شاتم الرسول» وغير ذلك، ومن تدبر كتاب الله وجد ذلك، وقد كتب الناس في هذا كتابات كثيرة لبيان هذا الحق وإيضاحه، ومن ذلك أني كتبت رسالة مختصرة في هذا السبيل لإيضاح هذا الحق وبيان وجه الصواب فيه، وقد طبعت.

ومن أحكام هذه الآيات العظيمة: بيان حكم الإحصار، وأن المُحصَر إذا أُحصِرَ يحل: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فإذا أُحصِرَ المسلم قاصد الحج والعمرة فإنه يحل وينحر هدياً ويحلق ويرجع إلى بلاده. وقد وقع هذا للنبي صلى الله عليه وسلم، فأحصره أهل مكة في عام ست من الهجرة، ولم يمكَّنوه من دخول مكة، فنحر هديه وحلق رأسه، وهكذا فعل أصحابه، ثم رجعوا إلى المدينة بعد ما تمت القضية بينهم على أن يعتمروا في العام القادم، وسميت هذه
= عمرة القضاء.

= فالمقاضاة: المصالحة، وهذا لا بأس به وهذا من عدل الإسلام، ومن محاسن الإسلام أن يرضخ للحصر والاتفاق على الرجوع إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو عجز على مقاومة العدو، وله مصلحة في ذلك، فلا مانع من أخذه بحكم الحصر، فينحر الهدى ويحلق أو يقصر ويرجع إلى بلده إلى وقت آخر.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾. هذا في الحصر، أما في الحج فلا بأس أن يحلق قبل أن يهدي، وقد ثبت عنه ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يا رسول الله، حلقتُ قبل أن أذبح، قال: «لا حرج»^(١)، فدل ذلك على أن المراد من ظاهر الآية الإحصار خاصة، لأن الرسول ﷺ نحر قبل أن يحلق وأمر أصحابه بذلك، أما في الحج فالأفضل أن يفعل أربعة أمور مرتبة:

أولاً: رمي الجمار للمغيب.

= ثانياً: النحر أو الهدايا لمن كان عنده الهدى.

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٧٢٢)، ومسلم: الحج (١٣٠٧).

= ثالثاً: خلق الرأس أو التقصير، والخلق أفضل.

رابعاً: الطواف والسعي لمن عليه سعي.

هذا هو الترتيب المشروع، لكن النبي ﷺ رخص في تقديم بعضها على بعض، فلما سُئل عن ذلك قال: «لا حرج»، وهذا من فضل الله وإحسانه بعباده.

ومن فوائد هذه الآيات العظيمة: تنبيهه سبحانه على أن الذي ينبغي للحُجَّاج أن يتزودوا ولا يججوا فقراء عالة على الناس يسألونهم، بل إن قوا على الحج وعندهم مال حجُّوا وإلا تركوا، ولا ينبغي أن يكون الحاجُّ كلاً على الناس وسائلاً لهم، فإن سؤال الناس ذل لا ينبغي للمؤمن أن يرضى به إلا عند الضرورة.

ثم نبّه على زاد أعظم وأكبر، والذي خُلق العباد من أجله، وهو التقوى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ نبه على الزادين: زاد الدنيا الذي يحتاجه المسافر، وزاد الآخرة، زاد السفر العظيم من هذه الدنيا إلى الآخرة وهو التقوى: ﴿وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْآلِئِبِ﴾ فأنت يا عبد الله في أشد الحاجة إلى هذا الزاد العظيم، زاد من =

= تقوى الله وطاعته سبحانه وتعالى، وأن تستمر على الزاد وأن يكون معك هذا الزاد دائماً، فزاد الدنيا قد يستغني عنه الإنسان في بعض أحيانه، فقد يقضي المؤمن الليلة ولا يحتاج إلى طعام وشراب، لكن زاد التقوى يجب أن يكون معه دائماً أبداً عند كل نفس، فيكون ملتزماً بتقوى الله وطاعته وتعظيمه وترهيبه، والإخلاص له في قيامه وعوده وفي سفره وإقامته، وفي جميع الأحوال يكون مُلَازماً لتقوى الله ومُلازماً للإيمان بالله ملازماً للوقوف عند حدود الله، أينما كان يرجو الله ويخشاه سبحانه وتعالى.

ومن فوائد هذه الآيات أيضاً: كأن الإنسان بعدما يُمنّ الله عليه بالعمل الصالح ويحسن إليه، ينبغي له أن يستشعر في نفسه أنه في حاجة إلى الاستغفار، وإلى الذكر، ولم يُعمل عملاً يبلغ الكمال، فلا بد من نقص، فلا يُعجَب بعمله أحد، ولا يُمنُّ بعمله أحد، بل يستشعر أن الفضل لله وحده، وأن الله هو الذي منّ عليه بهذا العمل ويسّره له من حج أو صلاة أو صيام أو غير ذلك. فينبغي له أن يستشعر مِنَّةَ الله وفضله عليه وإحسانه سبحانه وتعالى، حتى =

= يستغفر من تقصيره، وحتى يُكثر من ذكر الله ومن الاستغفار،
ويحصل إتمام ما قد نقص، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة.

ولهذا شرع لهم إذا أفاضوا من عرفات أن يستغفروا الله
ويكثرُوا من ذكر الله بعد الحج، وهكذا في الصلاة إذا سلّم الإنسان
يستغفر ربه، ويشعر وكأنه مقصّر، وقوله: «أستغفر الله، أستغفر
الله» بعد السلام استشعار بأنه لم يقم بالواجب كما ينبغي، وأنه محلُّ
النقص في هذه الصلاة، فأنت يا عبدَ الله في حاجة إلى الاستغفار
دائماً، وإلى طلب العفو، وإلى ذكر الله ﷻ، فإن من ذكر الله ذكره الله
﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾
[الزخرف: ٣٦]، فإذا غفلت فأنت معرض لشياطين الإنس والجن،
فينبغي لك في سائر أوقانتك أن تكون مُستشعراً لعظمة الله وكبريائه
ومراقبته لعبادتك واستغفارك، وأنت محلُّ النقص ومحل العيب.
فأينما كنت فلتكثر من الاستغفار والتوبة والندم إلى الله، وإلى دعائه
واستغفاره وذكره سبحانه وتعالى، ولا سيما بعد العبادة، حتى لا
يقع في نفسك شيء من العُجب أو مَنّة على الله سبحانه وتعالى، فالله =

.....

= هو الذي وفقك وأعانك على العبادة قبلها وبعدها سبحانه
وتعالى* .

* س: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؟

ج: أجمع العلماء أن معنى «ال»: أن من دخل الحج ووجب إتمامه، ومن دخل العمرة ووجب إتمامها، بخلاف النوافل الأخرى فلا بأس أن يقطعها مع أن الإتمام أولى، ولكن الحج والعمرة لا بد من إتمامها.

س: هل المعنى كما في قراءة مسروق وعلقمة: (وأقيموا الحج والعمرة

لله)؟

ج: قد يكون المعنى، لكن القراءة المشهورة هي: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ

لِلَّهِ﴾، ولا يعني الإقامة، فالإقامة لا تعني الإكمال والإتمام.

[حكم القتال في الشهر الحرام]

❁ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ^ط وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ^ط وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ^ع وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ^ط وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا^ع وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَمَا لِي بِهِ مِنْ أَمْرٍ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ^ع وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٧-٢١٨]. [٧]

[شرح ٧] في هذه الآيات الكريهات فوائد جمعة، وكتاب الله كله فوائد، فالسعيد من تدبره وتعلقه وعمل بها فيه، والشقي من أعرض عن ذلك واتبع الهوى والشيطان، نعوذ بالله من ذلك.

يقول سبحانه هنا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ =

= فقوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل من: ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فهم يسألون عن حكم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ يعني: كبير الإثم. فالله جل وعلا حرّم القتال في الأشهر الحرم لحكمٍ عظيمة، ومنها أن يتسهل للكفار التداول في حاجاتهم، والأسفار في حاجاتهم، والانتقال من بلد إلى بلد لمهماتهم في هذه الأشهر، وهي ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والرابع: رجب بين جمادى وشعبان، هذه الأربعة الحرم.

وقد اختلف أهل العلم هل تحريمها باقٍ أم نُسخ إلى قولين الجمهور على أنه نُسخ، واحتج بعضهم على ذلك بأن الرسول ﷺ بدأ القتال مع هوازن في آخر شوال وفي بعض ذي القعدة أو أول ذي القعدة، وبعضهم يقول: في ذي القعدة، وليس ذلك بمحفوظ. والأرجح قول من قال بتحريم القتال فيها، وأنه لا يُبدأ الكفار بالقتال، فإن بدؤونا قاتلناهم، كالمسجد الحرام، لا نبدأ فيه بقتال، فإن قاتلونا قاتلناهم؛ لأن الآية مُحكمة، وليس هناك دليل واضح للنسخ، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ =

= شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا
 أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ
 وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة: ٣٦﴾، والمقصود أن ظاهر
 الآيات يقطع بتحريمها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
 الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
 وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢١٧﴾.

كل هذه الأشياء أكبر من القتال في المسجد الحرام؛ لأن
 المشركين عابوا على المسلمين ما قد وقع من بعض السرايا في
 ذلك، فبين لهم سبحانه وتعالى أن هذا عظيم، وأنه إقدام على ما
 حرم الله، ولكن أعظم من ذلك وأكبر ما ذكره بعد ذلك ﴿وَصَدٌّ
 عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: صدكم الناس عن الحق والهدى وكفركم
 به جل وعلا.

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني: كُفْرهم بالمسجد الحرام =

= وحرّماته ﴿وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ .

ثم قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يعني: فتنة الناس بدعوتهم إلى الشرك بالله أكبر وأعظم مما عبثتم على المسلمين.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْبِلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ يبيّن سبحانه أن الكفار ما يزالون في كيدهم للإسلام وأهله، وحرصهم على إخراجهم من دينهم الحق إلى الباطل، فهم لا يزالون هكذا يكيّدون بكلّ أنواع الكيد والمكر، والواجب على المسلمين أن يحدروهم وألا يغتروا بما قد يُبدونه من ولاية أو مساندة، فإنهم قد يفعلون ذلك لمقاصد أخرى حتى يتمكنوا من باطلهم.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يبين سبحانه أن من ارتدّ عن دينه حبط عمله وخسر الدنيا والآخرة، وباء بالخيبة والندامة بدخول النار، هذا حكمه في الآخرة، أما في الدنيا فيجب =

= أن يُقتل، ففي الحديث الصحيح: «من بدل دينه فاقتلوه!»^(١)، وهذا يبين لنا نشاط الكفار وحرصهم على ارتداد المسلمين وكفرهم، وأن من يرتد عن دينه ومات على ذلك فقد حبط عمله.

ويستفاد من هذه الآية العظيمة أن حُبوب الأعمال معلق بالردة والموت جميعاً، فمن ارتد ومات على ذلك حبط عمله، ومن هداه الله ورجع إلى الحق وإلى دين الله لم تحبط أعماله؛ حيث يكون قد أسلم على ما أسلف من خير، وهذا يوافق ما جاء في حديث حكيم بن حزام، لما ذكر للرسول ﷺ أنه فعل في كفره أشياء من عتاقة وصدقة وغير ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير»^(٢). فالإنسان برجوعه للإسلام ودخوله في الإسلام، يُحْرَز ما سبق من العمل الصالح من صلة رحم أو صدقات أو عتق وما أشبه ذلك، فإذا أسلم يبقى له هذا الشيء فضلاً من الله سبحانه وتعالى، وهذا يبين لنا أن المرتد تبطل أعماله من حج وصلوات وغير ذلك إذا مات على رده، ولا تنفعه، =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٣٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٣٦)، ومسلم: الإيمان (١٢٣)، واللفظ لمسلم.

= قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] نسأل الله العافية، لكن لو رجع وتاب إلى الله بعد ردة، واستقام، فإنه يبقى له العمل الصالح السابق؛ لأن الشرط لم يوجد، وهو موته على الكفر. ومما يدل على هذا أيضاً الآية الكريمة الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١] فتقييده ذلك بقوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يوافق هذه الآية. وهذه الآيات مقيّدات للآيات الأخرى التي هي للإطلاق، مثل ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وأشباهاها، فحبوط العمل مقيّد بالموت على الردة، فمن هداه الله ورجع للحق والصواب بقي له عمله الصالح كما تقدم في حديث حكيم بن حزام، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] في هذه الآية دلالة على أن الرجاء الصحيح إنما يكون مع العمل، أما من فرط وأضاع فرجاؤه خداعٌ وظلم لنفسه وتفريط، وهذا من =

= الشيطان ومن النفس الأمارة بالسوء، ومن الخداع للنفس حتى تستمر في باطلها، فالله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ^٥ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الذين فعلوا هذه الأشياء هم الراجون لرحمة الله، وأما المُفَرِّطون والمضيعون فليسوا على الرجاء الحقيقي، بل على خطر، وعلى سوء عمل وتفريط، فهم جديرون بالعقوبة لتفريطهم وإضاعتهم.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى في سورة براءة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ^٤ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٥ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ^٦ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] فعلق الرحمة بهذه الأعمال العظيمة، فهؤلاء الذين هذه أعمالهم وهذا شأنهم وهذه صفاتهم، هم الذين يرجون رحمة الله، فالراجي والخائف هو الذي يعمل، قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ =

= لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاً وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون:

٥٧-٦١] فهؤلاء بإيمانهم وإسفاقهم وخوفهم من الله سارعوا إلى الخيرات، فإذا فرط منه شيء من التقصير في أداء الواجب أو ركوب المحرم بادر بالتوبة وبادر بالإصلاح والخوف من الله والتوبة إليه، هذا هو الدليل على صدق الرجاء، وعلى صدق الخوف، وعلى صدق الرغبة فيما عند الله سبحانه وتعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله* .

* س: ما حكم الخوف من الجن عند بعض الناس؟ فإننا نسمع من بعض العامة أنك إذا أرقت ماء حاراً تُسمي؟

ج: الخوف من الجن مثل الخوف من الإنس، والخوف الطبيعي لا بأس به، فلا بأس أن يتحرى الإنسان أسباب العافية، ويسمي الله عند أكله وعند شربه حتى لا يشاركه الشيطان في أكله وشربه، ويسمي الله إذا دخل البيت حتى لا يشاركه الشيطان في المبيت، أو أراق ماء حاراً فيقول: باسم الله، ويتعوذ بالله على ما قد يصيبه هذا الشيء وما أشبه ذلك، كذلك لا يطبق الأبواب بقوة أو يعمل عملاً زائداً لا حاجة إليه؛ فإن هذا قد يصيب أحداً =

= من الجن أو يضره.

فالمقصود أن الخوف منهم من الأشياء الطبيعية التي يتوقى بها شرهم كما يتوقى شر الإنس، فلا يسبهم ولا يتعدى عليهم ولا يظلمهم، ومن تعدى على الناس تعدوا عليه، ومن سبهم سبوه، فكما تخاف من الإنس وتبتعد عن شرهم ومكائدهم وشر اللصوص والسلطين الظلمة وشر من حولك من المؤذنين بالسلامة وحفظ اللسان وحفظ الجوارح، فكذلك الجن. فالجن جيل عظيم، فيهم الفاسق، وفيهم الظالم، وفيهم الكافر، وفيهم المبتدع، وفيهم الطيب والمسلم، فيجب تَوَقِّي الشر من هؤلاء ومن هؤلاء، وإن من المنكر أن يدعوها من دون الله أو يخافها خوف السر، أو يعتقد أن لها تصرفاً في الكون.

كذلك ورد التعوذ من الشيطان عند القراءة لتأمن كيده وتلبسه

عليك.

[أحكام الحيض]

❁ قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۗ قُلْ هُوَ أَذَىٰ
فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۗ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ۗ فَإِذَا
تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۗ
وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ ۗ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةَ لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا
يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۗ فَإِنْ
فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ❁ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٧]. [٨]

[شرح ٨] في هذه الآيات كلمات وأحكام عدة، وتوجيه من ربنا
سبحانه لعباده إلى خير الأخلاق وخير الأعمال، وتحذير لهم مما لا
ينبغي من الأخلاق.

= ومن جملة ذلك أنه سبحانه وتعالى أجاب السائلين لنبيه ﷺ عن المحيض، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾^١ ومعنى المحيض هنا: الحيض، وهو مصدر ميمي مثل: المقام والمقال وما أشبه ذلك، ﴿فَاعْتَرِلُوا الْنِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾^٢ يعني: في حالة الحيض، والحيض: دم يخرج من قعر رحم المرأة في أوقات معينة، تختلف بالنسبة إلى النساء، قد تكون ثلاثة أيام أو خمسة أو سبعة، وقد تكون أكثر أو أقل، لكن الغالب أنه خمسة أو ستة أو سبعة أيام من كل شهر، كتبه الله على بنات آدم لحكمة عظيمة، وهي غذاء الولد حال وجوده في بطن أمه، كما أوضح ذلك أهل العلم.

فالله سبحانه وتعالى أوجب على الرجال اعتزال النساء كزوجاتهم وسبياتهم طوال مدة الحيض، فلا يجوز للرجل الزوج أو السيد أن يقرب الزوجة أو السبية في هذه المدة حتى تطهر، فإذا طهرت بانقطاع الدم وتطهرت بالماء أو ما يقوم مقامه عند فقدته أو العجز عنه حلت لسيدها أو زوجها.

ولهذا قال: ﴿فَاعْتَرِلُوا الْنِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾^٣ وهو أمرٌ =

= لوجوب الاعتزال، إذ جاءت الأحاديث التي دلّت على تحريم وطء الحائض، بل غلّظ التحريم في ذلك، ومما جاء في ذلك: «من أتى امرأته وهي حائض تصدّق بدينار أو بنصف دينار»^(١)، فعلى المسلم أن يحذر قربانها وهي حائض من جهة الجماع، أما كونه ينام معها ويباشرها فيما دون الفرج فلا بأس، وفي الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «اصنعوا كلّ شيءٍ إلا النكاح»^(٢)، فهو دليل على أنه لا بأس أن يقربها بالقبلة والمباشرة والمضاجعة ونحو ذلك دون الجماع، وكان النبي صلى الله عليه وآله يأمر النساء إذا أراد أن يباشرهنّ وهن حيض، أن يأتزرن^(٣)، فالأفضل والسنة الاتّزار أو السراويل عند المباشرة، لأن ذلك أبعد عن الوقوع فيما حرّم الله جل وعلا.

(١) أخرجه الترمذي: الطهارة (١٣٦)، والنسائي: الطهارة (٢٨٩)، وأبو داود:

الصيام (٢١٦٨)، وابن ماجه: الطهارة (٦٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: الحيض (٣٠٢).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧٠٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٣/٢٤) من حديث ميمونة.

وأخرج مسلم (٢٩٥) معناه من حديث ميمونة أيضاً قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يضطجع معي وأنا حائض، وبينني وبينه ثوب.

= ثم قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ ﴿بَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنْ التَّحْرِيمِ يَمْتَدُّ، حَتَّى إِذَا طَهَّرْنَ مِنَ الدَّمِ وَتَطَهَّرْنَ بِالْمَاءِ﴾ ﴿حَتَّى يَطَهَّرْنَ﴾ أي: حتى ينقطع الدم فيطهرن منه، ومن الحَبْثِ والأذى، ثم بعد هذا التطهر: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ ﴿فَرْتَبِ الْمَجِيءِ عَلَى التَّطَهْرِ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّطَهْرِ بِالْمَاءِ، وَعِنْدَ فَقْدِهِ أَوْ الْعَجْزِ عَنْهُ: التَّيْمُمُ، فَإِذَا تَطَهَّرْتَ بِالْمَاءِ أَوْ التَّيْمُمِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَاءِ حَلَّ لَهُ إِتْيَانُهَا وَغَشْيَانُهَا بِالْجَمَاعِ.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: من الفرج، لا من الدُّبْرِ، فالدبر محرم، وإنما تؤتى المرأة من قُبْلِهَا وهو محل الحَرْثِ، أي: محل الولد، أما الدبر فليس محل الحَرْثِ بل محل الأذى ومحل القدر، ولهذا جاء في الحديث: «ملعونٌ من أتى امرأته في دُبْرِهَا»^(١)، وفي الحديث الآخر: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة في دُبْرِهَا»^(٢)، والمقصود أن الحَرْثِ محله الفرج أي: القُبْلُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من جهته القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من الذنوب، =

(١) أخرجه أبو داود: النكاح (٢١٦٢)، وابن ماجه: النكاح (١٩٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي: الرضاع (١١٦٦).

.....

= ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي: من الذنوب كذلك، ويدخل في ذلك أيضاً التَّطَهَّرَ من الأحداث، فالله سبحانه يُحِبُّ المتطهر من المعاصي بالتوبة ومن الأحداث والنجاسات ومما جعله الله طهارة، فالله سبحانه يحب هؤلاء ويحب هؤلاء.

ولما كان التلطيخ في المحرمات نجاسة ومن ذلك الوقوع في جماع على الحيض نَبَهَ سبحانه وتعالى أنه يجب لعباده التطهر من المعاصي بالتوبة، والتطهر أيضاً من الأخباث والأحداث بالطهارة الشرعية.

ثم يقول بعد هذا: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ النساء حرث للأزواج والسَّادة، ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ فالقُبُل هو محل الحرث ومحل الجماع ومحل الولادة، وليس الدبر ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أي: مقبلات ومدبرات، وتوَهُّم بعض الناس أن المراد به الدبر، وهذا من أقبح الغلط والجهل، بل المراد: أنى شئتم من جهة الإقبال، أو من جهة الإدبار، أو على جَنْبٍ، فلا بأس بذلك، لكن بشرط أن يكون ذلك في القبل، فالفرج هو محل الحرث، أما =

= الدبر فهو نوع من اللواط، ومنكر ومحرم، وهو من الكبائر،
نسأل الله السلامة.

وفي هذه الآيات من الفوائد أنه ما ينبغي للمؤمن أن يجعل الله
عُرْضَةً ليمينه حتى يمتنع من البر والإحسان والتقوى، بل إذا
حلف على يمين ورأى البرَّ والتقوى في غيرها، فالسنة له أن يحنث
فيها وأن يكفر عنها، كما قال النبي ﷺ: «إذا حلفت على يمينٍ
فرايت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك وأتِ الذي هو خير»^(١)،
وقال ﷺ: «والله لا أحلفُ على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا
أتيتُ الذي هو خير وكفرتُ عن يميني»^(٢). وذلك أن الرسول ﷺ
حلف ذات يوم أنه لا يحمل الأشعرين لما جاؤوا يطلبون حُملاناً،
ثم جاءه إبل فدعاهم وحملهم، فقالوا له، فقال: «ما أنا حملتكم، بل
الله حملكم، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها
خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتِ الذي هو خير»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم: الأيمان (١٦٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٣)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٧٢١)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

= وقد يكون هذا الحنث مستحباً، وقد يكون واجباً، فإذا قال: والله لا أصلي في جماعة، وجب عليه الحنث، أو قال: والله لآتين زوجتي على حيضها أو على نفاسها، وجب عليه الحنث، ولا يأتيها بها فلا يفعل المحرّم، فالعاصي إذا كانت يمينه على فعل المحرم وترك الواجب، وجب عليه الحنث والكفارة.

وإذا كانت اليمين على ترك المستحب أو فعل المكروه، سُنَّ الحنث فيها وشُرِعَ، ويكفّر عن يمينه، وإذا كانت على مباح نظر في الأصلح، فيأخذ الأصلح، فيحنث إن رآه الأصلح، مثل: والله لا أكل هذا الطعام، أو والله لا أنام في هذا الفراش، أو ما أشبه ذلك، فينظر الأصلح، ومن هذا قول الشاعر:

قَلِيلُ الْأَلْيَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ فَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الْأَلْيَةُ بَرَّتْ

فإن من يقلل منها يبرُّ بها في الغالب، بخلاف من أكثر الأيمان فإنه قلٌّ أن يبر بها بسبب إكثاره منها، فينبغي أولاً التقليل من الأيمان وألا يحلف إلا لحاجة ومصلحة، ثم إذا بدرت منه يمين ورأى الحنث أصلح، بادَرَ بالكفارة ولم يتساهل.

= وقد بيّن سبحانه وتعالى أنه لا يؤاخذُ باللغو في اليمين واللغة الدارجة في كلامه من غير قصد، وهذه لا كفارة فيها.

وأما التي يقصدها بقلبه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، إذا قصدها وعقدَها بقلبه، فهذه هي التي فيها الكفارة.

ثم يبين سبحانه وتعالى شأن المولين، والمولي: هو الذي يحلف أن لا يظأ زوجته أكثر من أربعة أشهر، والألية: اليمين فقال سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ط فَإِنْ فَآءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] فإذا آلى أنه لا يظأ زوجته خمسة أشهر، أو سنة، وما أشبه ذلك، يُمهّل أربعة أشهر، فإن فاء ورجع فله ذلك وعليه كفارة اليمين، وإن لم يرجع فلها المطالبة بالطلاق، ولها أن تصبر*.

* س: نريد مثلاً عن المسألة الأخيرة (الإيلاء)؟

ج: إذا قال: والله لا أجامعك خمسة أشهر أو سنة أو ما أشبه ذلك، فإنه =

.....

= يُمهّل أربعة أشهر، فإن جامع فعليه كفارة وإلا يطالب بالجماع إذا طالبت هي، يقال: إما أن تفيء وتطأها، وإما أن تطلّتي.

س: الذين يخلفون إذا جاؤوا بالطعام بالطلاق أو يخلفون بالحرام، هل عليهم شيء؟

ج: في هذا الباب اختلاف بين أهل العلم، والصحيح أنها مثل اليمين، كقوله: عليّ الطلاق لأذبحن هذه الشاة، أو عليّ الطلاق لأكرمك، أو لتأكلنّ وليمتك أو كرامتك، أو عليه الحرام، والصواب أنه من جنس اليمين، فيه كفارة اليمين إذا حنث بأحدهما.

[كيف تحيا الأمم]

❁ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. [٩]

[شرح ٩] فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، جل وعلا.

ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة في مواضع خمسة عن إحياء الأموات؛ تنبيهاً على ما وعد به سبحانه من إحياء الناس يوم القيامة، ثم جمعهم بين يديه ومجازاتهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى، فذكر في أول السورة قصة الذين أخذتهم الصاعقة لما طلبوا الرؤية ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكذلك قصة القتل: ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْثُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) فقلنا أضربوه ببعضها^٤ كذلك^٥ يحيى الله الموتى ويربيكم^٦ =

= لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ٧٢-٧٣﴾، فأحيا الله لهم ذلك القتل
حتى تكلم وبين من قتله، وكذلك هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، والرابعة قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ
مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكذا حماره، والخامسة: قصة
إبراهيم مع الطيور، حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي
الموتى، فأمره الله بالطيور فقطعها وجعل على كل جبل منهن
جزءاً، ثم دعاها فجاءت إليه، وردَّ الله إليها رؤوسها وأرواحها
وجمع لها شملها.

هذه خمسة مواضع فيها بيان لإحياء الله الموتى سبحانه وتعالى
في هذه الدنيا، فالذي أحياهم في هذه الدنيا هو القادر على إحيائهم
يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى.

وفي هذه القصة بيان أنه سبحانه وتعالى يتلى عباده لعلهم
يشكرون: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أكثر الخلق لا =

= يشكرون نِعَمَ اللَّهِ ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، فهذا يُنبئ الإنسان على عِظَمِ هذا الخطر، وأن الغالب على بني آدم - مع كرم الله سبحانه وتعالى عليهم وإحسانه إليهم - عدم الشكر، فيأخذ الإنسان من هذا العبرة والعِظة، ويُحاسب نفسه ويجاهدها لله، لعله يكون من الشاكرين القليلين.

والشكر ليس بمجرد الكلام، بل يكون بالقلب أيضاً محبةً وتعظيماً للمُنعم سبحانه وتعالى، وطاعةً وإخلاصاً وتصديقاً له جل وعلا، ويكون باللسان ثناءً عليه سبحانه وتعالى، وطاعةً لأوامره، وتركاً لنواهيه القولية، ويكون بالعمل أيضاً بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوف عند الحدود، فالشاكر يعمل بما شرع الله، قال سبحانه: ﴿اعْمَلُواْ آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

كذلك فيه بيان مضاعفته الأجر سبحانه وتعالى للمنفقين، وأن من أقرض الله قرضاً حسناً فالله جل وعلا يخلف عليه ويعطيه الخير الكثير، ويضاعف له الأجر والثواب، فإن فضله سبحانه وتعالى عظيم، قال بعض أهل العلم: القرض الحسن لا بد أن =

= يشمل ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون من كسبٍ طيبٍ.

الثاني: أن يُصْرَفَ عن إخلاص لله، ورغبةٍ فيها عنده جل وعلا، لا رياءً ولا سمعة.

الثالث: أن يكون في جهةٍ صالحةٍ يحبها الله، كمشروعٍ خيري، لا في فساد، فيأخذها من طريقها ويصرفها في طريقها عن إخلاص لله وإيمان به ومحبة له ورغبة في ثوابه ﷻ.

وفي الآيات فوائد كثيرة من أرادها وجدها.

[الحث على الإنفاق]

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۗ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٤-٢٥٧]. [١٠]

[شرح ١٠] في هذه الآيات فوائد جمة، وأحكام متعددة، ومن أهم =

= ذلك الحثُّ على الإنفاق في وجوه البر والإحسان، ما دام العبد في الحياة؛ فإن هذه الدار هي دار العمل، وهي دار الإحسان، والاجتهاد والسعي، والآخرة دار الجزاء والحساب، والله يأمر عباده بالإنفاق من قبل مجيء الأجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ ولهذا حثّه على الإنفاق في مشاريع الخير، ووجوه البر، وصلة الأرحام، ومواساة الفقير والمسكين واليتيم.

ثم يبين جل وعلا أن الآخرة ليست مثل الدنيا، ففي الدنيا قد ينفعك صاحبك، وقد يشفع لك بحق أو بباطل، أما الآخرة فلا بُدَّ من الحق، فالخُلَّةُ لغير الله لا تنفع، والشفاعةُ ليست بيد الإنسان، إذ لا بد من إذنِ الله فيها، ورضاه سبحانه وتعالى، حيث يقول في هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وقال في غيرها: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أما في الدنيا فقد يشفع الإنسان فيما حرّم الله، وقد يجيب المشفوعَ إليه، وهو لا يرضى؛ خوفاً من الشافع، أو خوفاً من التبعات الأخرى.

= فيبين الله سبحانه وتعالى أن يوم القيامة ليس فيه بيع ولا خُلة ولا شفاعة، حتى تقول: أدركُ مطلوبِي يومَ القيامةِ بشراء حاجتي، فتأتي يومَ القيامةِ أفقرَ ما كنت، إلا من عملك الصالح، يُبعث الناس يومَ القيامةِ حُفاةً عراةً غُرلاً، لا مال، ولا أنساب، ولا غير ذلك، فما هو إلا العمل الصالح؛ الإيمان بالله وتقواه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، ففي هذا حث وتحريض على إعداد العُدَّة كالمحبة في الله، لأنها تنفع، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالشفاعة التي تنفع يومَ القيامة ما كان عن إذن الله ورضاه سبحانه وتعالى، فيُشفَع مَنْ يَشَاءُ - جل وعلا - ممن رَضِيَ عن قوله وعمله، في حق أهل التوحيد، وفي حق أهل الكبائر الذين ماتوا على شيء من معاصي الله، كما في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(١)، لكن هذه الشفاعة قد تكون قبل دخول النار، وقد تكون بعد دخولهم النار، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن هذه =

(١) أخرجه الترمذي: صفة القيامة (٢٤٣٥).

= الشفاعة تكون أربع مرات: في حق مَنْ دخل النار مِنْ أُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِبَائِرِ الذَّنُوبِ، كَالرِّبَا وَالزُّنَى وَالْعُقُوقِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرَاتِ وَقَتْلِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيُشْفَعُ فِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَسْجُدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَيُحَمِّدُ رَبَّهُ بِالْمَحَامِدِ، ثُمَّ يَشْفَعُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قِسْمٍ، وَيُحَدِّثُ لَهُ حَدًّا، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ قِسْمٍ آخَرَ، ثُمَّ قِسْمٍ آخَرَ، ثُمَّ قِسْمٍ آخَرَ، وَيُشْفَعُ لَهُمُ النَّبِيُّونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَالْأَفْرَاطُ، وَالْمَلَائِكَةُ، ثُمَّ يَبْقَى فِي النَّارِ جَمَاعَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ، لَمْ يَدْخُلُوا فِي شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، فَيُرْحَمُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا فِيهَا.

فَالْمَقْصُودُ أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ عَظِيمٍ، وَأَهْوَالِهِ شَدِيدَةٌ، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْوَلٌ إِلَّا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا عَلَى أَنْسَابٍ أَوْ أَمْوَالٍ، وَلَا عَلَى قَرَابَاتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَالْمَعْوَلُ بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَا قَدِمْتَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَنَفَقَةٍ صَالِحَةٍ، أَمَا بِغَيْرِ هَذَا فَلَا تَوْجِدُ شَفَاعَةً وَلَا تَنْفَعُ، قَالَ ﷺ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: =

[٤٨] لأنهم كفرة، أي: ليس هناك شفاعة فيهم، لكن لو قُدِّرَ شفاعة، فما تنفعهم؛ لأنها لا تكون بعد إذن الله ورضاه، ولا يرضى سبحانه الشفاعة إلا في أهل التوحيد ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(٢).

ثم قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يبين سبحانه أن الظلم الأكبر في حق الكفرة، فهم الظالمون، وهذا نوع من الحصر، والمعنى: أنهم الظالمون لا غيرهم، لأن الظلم الأكبر هو الشرك والكفر بالله نعوذ بالله، أما الظالمون الآخرون بالمعاصي كالقتل والربا والتعدي على الناس في مالٍ أو في عرضٍ، فهم دون ذلك، =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: الدعوات (٦٣٠٤)، ومسلم: الإيمان (١٩٩).

= هؤلاء ظلمة، ولكنهم دون ظلم الكفر، فإن الظلم الأعظم هو ظلم الكفرة، نسأل الله السلامة.

ثم ذكر آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، هذه الآية يقال عنها آية الكرسي؛ لأن فيها ذكر الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله؛ كما روي عن ابن مسعود^(١).

فهي آية عظيمة، ينبغي لك أن تحفظها، وأن تُعنى بها، وأن تقولها عند نومك، وفيها الفقه الأكبر، من بيان توحيد الله، وأن المستحق للعبادة هو الله جل وعلا ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فلا معبود حقاً سواه سبحانه وتعالى، أما ما عبده الناس =

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٠)،

والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩١) عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

= من دون الله من أنبياء أو أولياء أو أشجار أو أحجار أو غير ذلك، فهو معبود بالباطل، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فالذي يعبد النبي ﷺ ويسأله، ويتوجه إليه لقضاء حاجته، أو يعبد البدوي أو الحسين أو عبد القادر أو المرسي أو ابن علوان أو فلان أو فلان أو غير ذلك، فقد عبده بالباطل، وغلط في ذلك، وضلَّ عن سواء السبيل.

أما المعبود بحق فهو الله وحده سبحانه وتعالى، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وكان الكفار الأولون يشركون في هذا الرخاء، فيدعون بعض الأموات وبعض الأشجار والأحجار ويعكفون عليها؛ كما فعلت قريش وغيرهم من العرب مع اللات والعزى ومناة، ولكنهم يخلصون لله سبحانه وتعالى العبادة في الشدائد والكروب، ويلجؤون إليه وحده كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي =

= الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ^ط فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ^ع وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧].

أما الكفرة اليوم وقبل اليوم بزمان طويل فشرکهم مع آلهتهم دائماً في الرخاء والشدة، نعوذ بالله، بل في حال الشدة أشد، فإذا اشتدت بهم الأمواج، وخافوا من الغرق في البحار رأيتهم يلهجون إلى آلهتهم من دون الله، فهذا يقول: يا سيدي البدوي، وهذا يقول: يا سيدي الحسين، وهذا يقول: يا سيدي عبد القادر، وهذا يقول: يا سيدي فلان، وهذا يقول: يا رسول الله، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يقول: يا عيدروس، وهذا يقول: يا فلان وفلان، وهذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا فاطمة، كل واحد ذهب بإلهه، نسأل الله العافية والسلامة. وهذا الجهل العظيم والشرك الوخيم، والواجب أن يقول: يا الله، اللهم أنقذنا، اللهم عافنا، اللهم سلّمنا، فالله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، فهو القادر في الشدة والرخاء على نجاتك وعلى هلاكك.

.....

= ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حي دائم، أما الأموات فما نفعوهم بشيء، فما دفعوا عن أنفسهم، فهو الحي القيوم جل وعلا، وهكذا الأحياء فمدتهم محدودة وقدرتهم محدودة، فلا يصلحون لشيء من العبادة، فهو الحيُّ الدائم والقيوم الدائم، الذي أقام كل شيء، فهو المقيم لهذه السماوات وهذه الأرض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿[الروم: ٢٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نُعاس وهو السَّنة، ولا نوم وهو النوم الثقيل الذي فوق السَّنة، بخلاف المخلوق فإنه يموت وينام، فتفوته أشياء، ويجهل أشياء، أما الرب ﷻ فهو حيُّ قيوم، فلو اعتراه النوم أو السَّنة لاختلَّ هذا العالم، ولكنه سبحانه حي قيوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فحياته دائمة، لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه سبحانه وتعالى، حياة كاملة، ليست من جنس حياة المخلوقين الذين يعترهم النوم والنعاس والفتور =

= الموت والغفلة؛ لأن ربنا - سبحانه - مُنَزَّهٌ عن الصفات الناقصة، فلا يعتره نوم ولا نعاس، بل هو حي قيوم دائم الحياة ودائم العلم، ودائم القدرة جل وعلا.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا يدل على أنه مالك السماوات وما فيها، ومالك الأرض وما فيها: كما قال الله ﷻ في آخر سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، مالك السماوات ومالك الأرض، ومالك ما فيهن من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك، فهو مالك الكل سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الاستفهام معناه الإنكار، أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كرسيه مخلوق عظيم فوق السماوات وتحت =

= العرش، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى، والكرسي وسيع السماوات والأرض، وفوقه ما هو أكبر منه، وهو العرش، وهو سقف المخلوقات، والله تعالى استوى عليه؛ قال ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فالله تعالى في جهة العلو، ترفع الأيدي إليه، وتقول في سجودك: سبحان ربي الله الأعلى.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ علو الذات، وعلو القهر والسلطان، وعلو القدر والشرف، له أنواع العلو سبحانه وتعالى، وفي هذا الرُّدُّ على الجهمية وأشباههم ممن أنكروا علو الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه العالي فوق جميع خلقه، وهو منزّه عن اختلاطه بخلقِه جل وعلا.

﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ لا يشق عليه حفظ مخلوقاته ولا يُثقله؛ لأنه سبحانه إنما أمره. إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، فهو الحافظ والمقيم لهذه السماوات والأرض، والمقيم لعباده في هذه الدنيا حتى يأتي أجل القيامة، ولا يشق عليه ذلك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ثم يقول جل وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

= أَلْغَى ﴿﴾ فيبين سبحانه وتعالى أنه ليس هناك إكراه في الدين، فقد ظهر الحق، وتبين الرشد، وهو دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الرشد.

والغَيُّ: هو دين أبي جهل وأشباهه، وهو كفرهم والشرك بالله جل وعلا، فقد ظهر هذا، وقد ظهر هذا، واتضح هذا وهذا لأولي الأبصار، فلا إكراه في الدين بعد ظهوره واتضح أمره.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقال قوم: إنها منسوخة بأدلة وجوب قتال الكفار وجهادهم حتى يدخلوا في دين الله، وقال آخرون: ليست منسوخة، بل يُراد بها أهل الكتاب ونحوهم؛ كالمجوس الذين تُؤخذ منهم الجزية. ولا منافاة، فالإكراه هو مثلما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: اتضح الحق وبان، فهي إما منسوخة بنزول الآيات الدالة على وجوب قتالهم وطلب الكفار ودعوتهم إلى الحق، فإن أجابوا؛ وإلا قُتلوا.

أو مخصوصةٌ بآيات الجزية، فهي في حَقِّ أهل الجزية فقط، فلا يُكرهون إذا دفعوا الجزية كاليهود والنصارى والمجوس. وأما =

= غيرهم فلا مانع من إكراههم في الدين كقتالهم وجهادهم حتى يدخلوا في دين الله، كما قاتل النبي ﷺ العرب، ولم يقبل منهم شيئاً إلا دخولهم في الإسلام، فقاتلهم حتى دخلوا في دين الله؛ كما قال ﷺ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ^٥ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ^٥ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، فلم يجعل لهم نهاية في قتالهم إلا دخولهم في الإسلام، بخلاف اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم إذا قدموا الجزية والتزموا بالصغار قبلت منهم وكُفَّ عنهم. وقال آخرون من أهل العلم: بل هذا عامٌّ، فكل من بلغ الجزية قبل منه، كما في حديث بُريدة في «صحيح مسلم»^(١): «فإن أبوا فسلهم الجزية» إلى آخر الحديث.

وقد زعم بعض الكتاب أن الإسلام جاء مُدافعاً فقط، لا طالباً، ولا مُبادراً، يقاتل من يقاتله، ويكفُّ عمَّن كَفَّ عنه، وهذا =

(١) برقم (١٧٣١).

= كان في الطور الثاني من أطوار الإسلام، وكان الطور الأول واجباً فيه الجهاد، ثم الطور الثاني أن نقاتل من يقاتلنا، ونكفَّ عمن كف عنا؛ كما قال ﷺ في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلْتُمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] ولهذه الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وانتهى الطور الثالث - وهو الأخير - أن نقاتلهم دفاعاً وابتداءً حتى يدخلوا في دين الله، إذا كان عندنا قوة؛ كما قال ﷺ: ﴿فَأَقْبِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكما قال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»^(١)، ولم يقل: إلا أن يكفوا عنا.

فَيُفْقَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ اسْتَقَرَّتْ عَلَى قِتَالِ الْكُفْرَةِ حَتَّى =

(١) أخرجه البخاري: الإبان (٢٥)، ومسلم: الإبان (٢٢).

= يدخلوا في دين الله ابتداءً ودفاعاً، إلا من أباح الله أخذ الجزية منهم، فهؤلاء إذا بذلوها والتزموا الصغار، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم كانوا من المجوس، فنقبلها منهم؛ لقول الله في أهل الكتاب: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وجاء في أهل المجوس أنه - عليه الصلاة والسلام - أخذها منهم؛ كما أخذها من اليهود والنصارى.

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة إما منسوخة بالطور الأخير من أطوار الجهاد، وأن وقتها كان وقت ضعف المسلمين، فيكف عمن كف عنهم، ويقاتل من قاتلهم، ثم شرع الله قتالهم ابتداءً ودفاعاً حتى يدخلوا في دين الله ﷻ، وهذا هو الصواب، أن يقاتل المسلمون عند الضعف من قاتلهم، ويكفوا عمن كف عنهم، وعند القوة والقدرة على القتال وإخراج الناس من الظلمات إلى النور يقومون بذلك؛ لأن فيه إحساناً إلى الناس، وإخراجاً لهم من ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإسلام والهدى، وإنقاذاً لهم من أسباب دخول النار إلى أسباب دخول الجنة، فالمسلمون إذا قاتلوهم قد =

= أحسنوا فيهم، لأن قتلهم إما أن يكون من أسباب دخولهم في الإسلام، فيكون خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وإما أن يعجلوهم إلى النار، فيكون خيراً لهم من مزيد الأعمال السيئة، فإن بقاء الكافر في حياته يزيده شراً إلى شره، وعذاباً إلى عذابه، فإذا قُوتِلَ وعُجِّلَ موته صار عذابه أقل، نسأل الله السلامة.

وإذا كان أعداء الله من الكفرة يقاتلون الدول والشعوب قتالاً شديداً، ولا يألون جهداً في ذلك، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمّة، بل يُبيدونهم لأهوائهم ولمصالحهم، وابتزاز ثروات بلادهم، ولا يرون في هذا بأساً عندهم، فكيف يستنكرون من الإسلام أن يقاتل ابتداءً إذا قوي على ذلك؛ لإنقاذ هذه الأمم من الكفر، ولإدخالها في الإسلام، وإخراجها من الظلمات إلى النور، أليس هذا رحمة؟! أليس هذا إحساناً؟! أليس هذا فعل خير بهم؟! لينقلهم من أسباب عذابهم ونكالهم وغضب الله عليهم إلى أسباب الرضا والسعادة، فهذا هو الإحسان الواضح.

ولهذا قال بعده سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا =

= يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿ هذا شأن الإسلام، يُخْرِجُهُمْ من الظلمات إلى النور، فَجَمَعَ الظلمات؛ لأن الكفر أنواع مُنَوَّعة، ووَحَّدَ النور؛ لأنه دين واحد، وصراط مستقيم.

ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ يخرجونهم من نور الحق والهدى، الذي فَطَرَ اللهُ عليه الناس، إلى الظلمات، وهي أنواع الكفر والضلال والشرك والفساد، وَفَرَّقَ بَيْنَ هذا وهذا لو عَقَلَ الناس، ولكن أهل الهوى والحسد والبغي والظلم لا يعقلون؛ لأنهم يَتَّبِعُونَ أهواءهم، فيرمون الإسلام بأنه دين السيف ودين القتال، ودين هذا وذاك، ولا ينظرون في أعمالهم الخبيثة من قتالهم للشعوب وقاتلهم الناس، وأخذهم أموالهم بغير حق، وظلمهم الناس لأهوائهم ومصالحهم، فيعمون عن أعمالهم الخبيثة، وينظرون إلى الإسلام بالعين العوراء الحاسدة الحاقدة، نسأل الله العافية والسلامة*.

*س: هل هناك مبررات لترك الجهاد في هذه الأيام؟

ج: لا يوجد مبررات إلا العجز وضعف الإيمان، ولو كان هناك اجتماع =

= على الحق وتعاون، فالمسلمون كثيرون، قرابة المليار وربع، لكن أين الاتفاق؟ وأين التعاون؟ وأين معرفة الدين أيضاً؟ فقلّ مَنْ يعرف الإسلام اليوم، وإن ادعاه، والله المستعان.

س: أتقبل الجزية من الكفار غير الكتابيين، كالشُوعيين مثلاً؟

ج: لا تُقبل على الصحيح، وتقبل من أهل الكتاب والمجوس فقط؛ لأن الأصل قتالهم، فلا نأخذها إلا ممن جاء الشرع بأخذها منهم صريحاً.

س: وحديث بُريدة ألا يدل على جواز أخذها منهم؟

ج: احتج به من يراه، لكنّ حملهُ على المقيد أقرب، وإلا فهو حُجَّة لمن قال بجوازها من الآخرين، وقد يقال ذلك عند الحاجة والعجز.

س: الذين يقولون إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، إنما انتشر بأخلاق الصحابة وبكذا وبكذا، فكيف يُفهم هذا؟

ج: انتشاره بالأمرين، فانتشر بأخلاقهم ودعوتهم إلى الله في الأغلب، ولكن السيف مؤيد لهم لمن عاندهم، ففتحوا البلاد بالإيمان والقرآن، وبالسيف لمن عاند، فدخل الناس بعد الفتح، ودخلت الشعوب في الإسلام، بدون قهر لها لما رأت ما فيه من الخير والهدى والصلاح.

س: المجوس ليسوا من أهل الكتاب؟

ج: المشهور أن لهم شبهة كتاب، وتؤخذ منهم الجزية.

=

= س: هل ورد في النصوص الثابتة تسمية آية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: بالكرسي.

ج: ورد في بعض الروايات عن أبي هريرة في «الصحيحين»^(١).

(١) انظر البخاري: فضائل القرآن (٥٠١٠).

[عاقبة المرائي]

❁ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦٢﴾﴾ ❁ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٣٦٣﴾ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤]. [١١]

[شرح ١١] وهذا من شقائه، ومن غضب الله عليه، ومن تهيئته

لأعمال الشر، نسأل الله العافية.

=

= وفي الآيات أيضاً: الدلالة على أن المُرَائِي بأعماله التي يعملها ويتكَلَّفها ويتعب فيها ثم تضيع عليه، بمثابة من له جَنَّة بَرَبُوءَةٍ، فيها أنواع الخير وأنواع الثمار الطيبة، ثم يُبْتَلَى بِأَعْصَارٍ فِيهِ نَارٌ يَحْرِقُهَا - نَعُوذُ بِاللَّهِ - عندما يكون أشدَّ احتياجاً إليها عند كِبَرِ سِنِّهِ وَوَضْعِ ذُرِّيَّتِهِ، وهكذا المُرَاوُونَ وَالمُنَافِقُونَ يعملون أعمالاً كثيرةً شديدةً متعبة، فقد يعملون وَيُجَاهِدُونَ جِهَاداً كَبِيراً، وَيَتَصَدَّقُونَ وَيُعْطُونَ العطاء الجزيل وَيُصَلُّونَ وغير ذلك، ثم تذهب هباءً وتضيع عليهم؛ لأنهم ما أرادوا بها وجه الله سبحانه وتعالى، ولأنها فقدت الإخلاص لله ﷻ.

وقد يقع الإخلاص في بعض الأعمال، ولكنها تفقد الموافقة للشريعة، كما قد يقع لبعض الناس من البدع الكثيرة التي يقومون فيها أثناء الاحتفال بالموالد النبوية أو في التهجد والعمل في ليلة الإسراء والمعراج، أو في غير ذلك أو فيما يتعلق ببناء القبور وتعظيمها والإنفاق الكثير في قبابها وزخرفتها وغير ذلك، وهي تكون وبالاً عليهم وباطلاً وإثمًا وهباءً منشوراً - نعوذ بالله - لأنها =

.....

= ما وافقت الشريعة وصارت بدعة ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنِّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ففي هذه الآيات كلها وما أشبهها الحث على الإخلاص في الأعمال، والصدق فيها، والعناية بها، وأن تكون لله وحده، وأن تكون موافقة للشريعة، وفيها التحذير من إتباع الصدقات والإحسان المَنِّ والأذى، وأن الواجب على المؤمن أن يكون في حاله كلها متقيداً بالشريعة لا يخرج عنها لا هاهنا ولا هاهنا؛ لا في صدقاته ولا في سائر أعماله، لا برياء ولا ببدعة ولا بإيذاء للفقراء والمحاويج، ولا بغير هذا مما يخالف شرع الله، وقد قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّةً، والمُنْفِق سلعته بالحلف الكاذب، والمُسْبِلُ إزاره»، رواه مسلم في «الصحیح»^(١).

* س: الحديث الذي فيه الأمر بإعادة الوضوء لمن أسبل إزاره، ما =

= درجته؟

ج: ظاهره في «سنن أبي داود»^(١) أنه لا بأس بإسناده، فبعدهما تأولوا على التحذير والترهيب من الإسبال ينبغي للمؤمن أن يحذر ذلك غاية الحذر، وأن يكون ذلك بصفة خاصة في الصلاة، لأن فيه الأمر بإعادة الوضوء، ولا يزال كلام أهل العلم فيه لا يفهم الناس منه الشيء الكثير، ولا بد من إعادة النظر فيه.

س: قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؟

ج: أي: عالم بالله سبحانه وتعالى وشرعه وسنته.

س: المتسولون، إذا عرف الإنسان حقيقتهم أنهم غير صادقين وأن سلوكهم غير صحيحة، فإذا أذاهم الإنسان، ما حكم ذلك؟

ج: الظاهر أن هذا منكر، فإن المنكر لا يُرد بمنكر، وهذا داخل في مسألة الأذى بالصدقة، فهؤلاء فعلوا منكراً؛ فمن سأل الناس أموالاً تكثرأ فقد سأل الناس جرة، فإنه لا يستقل ولا يستكثر، فهو مزور كذاب يغش ويدعي أشياء ما لها صحة، فيدعي أنه مدين وليس بمدين، ويدعي أنه فقير وليس بفقير، فهو صاحب منكر، فوجب الإنكار عليه؛ لأن هذا من =

.....

= التزوير والكذب، وصاحب الدعوى الباطلة هو الذي يسأل الناس
تكثرًا وعنده ما يغنيه وليس بحاجة كذلك، قد أتى المنكر، نسأل الله
العافية.

[بعض أحكام الإنفاق]

❦ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۗ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغِصُوا فِيهِ ۗ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٠﴾ إِن تَبَدُّوا لَصَدَقْتِ فَنِعْمَ هِيَ ۗ وَإِن تَخَفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٧١]. [١٢]

[شرح ١٢] في هذه الآيات حثٌ وتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وتوجيهٌ للعباد إلى هذا الخير العظيم، وأنه ما يحبه الله ويدعو إليه، =

= وأن الشيطان يثبُّط عن ذلك ويدعو إلى تركه.

ويبين سبحانه وتعالى أن الإنفاق في سبيله يعود نفعه على المنفق، ويحصل له به أجر عظيم وخير كثير، وأنه بذلك يسلم من الخوف والحزن، فلا خوفٌ على صاحبه ولا حزن عليه، وهذا فضل عظيم للإنفاق في سبيل الله ﷻ. وفيها دلالة على أنه من أسباب الأمن والسعادة يوم القيامة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يأمر سبحانه بالإنفاق من الطيبات لا من الرديء، ويدخل في هذا كتاب الزكاة، ويعلم أن ما أنفقه أهم نفقة في باب الزكوات فهي أهم النفقات وأعظمها، وهي فرض الإسلام، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة.

ويدخل في ذلك الإنفاق في وجوه البرِّ والإحسان في غير الزكاة، وفيه توجيه العباد إلى الإنفاق من الطيبات، فكثير من الناس قد ينفق ولكن لا يتحرى الطيبات بل ينفق من الرديء، ثم إذا دُفع إليه لاستكره ذلك وبنى عليه فوارق ونقصاً، ولا تمتنع من =

= أخذه على سبيل التواضع والتساهل بذلك وصبر النفس
 وحسبها على قبوله، وهذا ليس من شأن المؤمن ولا ينبغي له أن
 يكون هكذا، إن ربه غني حميد سبحانه وتعالى، وهو إنما ينفق لنفسه
 لا لله، فربنا ليس بحاجة إلى نفقاتك ولكن كما قال جل وعلا:
 ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، و﴿مَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولهذا قال بعدها: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾
 فمعنى تَيَمَّمُوا: تقصدوا، والتيمم: القصد، والخبيث: هو الرديء
 من - أي شيء - الحبوب والشمار والنقود المزيفة أو ما أشبه ذلك.

﴿وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أي: لستم بأخذي
 هذا الخبيث إلا على سبيل التواضع، فإذا كان شيء لا ترضون
 بأخذه ولا تحبون أكله، فكيف ترضون بتقديمه لله ﷻ، فالله
 سبحانه إنما أمر لمصلحتكم ولنجاتكم، فجدد بكم أن تنفقوا من
 الطيبات التي تنفعكم وتُرضي الله سبحانه وتعالى.

ولهذا نبه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ =

.....

= حَكِيمٌ ﴿﴾ فالله عز وجل ليس بحاجة إلى نفقاتكم، وهو حميد بمعنى المحمود؛ أي: حميد بالأقوال والأعمال، محمود في قوله وعمله، وبكمال إحسانه وعونه جل وعلا، وليس هو بحاجة إليكم، ولكنها مصلحتكم والإحسان إليكم بهذا الإنفاق.

ثم يبين أن الشيطان يثبُّط عن هذا الخير، ﴿وَيَعِدُّكُمْ أَلْفَقْرًا وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾، هذا الشيطان الخبيث يدعو إلى كل شر، وهو يعدُّ الناس الفقر، ويقول لهم: إن أنفقتم قلت أموالكم، وربما افتقرتم، ويثبُّطهم عن الإنفاق والإحسان بوعدهم الفقر، وأن هذا الإنفاق كلما زاد فقد تعرضتم للفقر، ويأمرهم بالفحشاء والمنكرات التي حرَّمها الله جل وعلا والتي من بينها البخل. والفحشاء تنطبق على جميع السيئات المحرمة، ولكن هنا خصَّ البخل، وهو من الفحشاء، والشيطان يدعو إليه ويأمر به، فهو يأمر بكل شر ويثبُّط عن كل خير أعادنا الله منه.

والله سبحانه ردَّ عليه ووعد المؤمنين بضد ما قال الشيطان، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ =

= يعدكم مغفرة في مقابل الفحشاء، وفضلاً في مقابل الفقر،
ويعدكم الزيادة والجود والكرم، كما يقول جل وعلا: ﴿ وَمَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]
ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧]، والله يعدنا الفضل
والمغفرة على إحساننا وطاعاتنا وإنفاقنا ضد ما وعد الشيطان من
الفقر وأمر به من الفحشاء.

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى واسع الجود واسع
العطاء واسع الفضل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال عباده.

ثم قال جل وعلا: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ الحكمة: كلمة عظيمة تُطلق
على كل ما يردع عن باطل ويحث على خير، وله من هذا ما جاء في
الحديث الصحيح: «إن من الشعر حكمة»^(١)، فالشعر يقع فيه أشياء
رادعة عن الباطل وعن الشر، مشجعة على الخير، فكل كلمة دعتك =

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٦١٤٥).

= إلى خير وردعتك عن باطل فهي حكمة، ومنها سُميت السُّنة حكمة، وعلمُ الكتاب حكمة، فالحكمة في السنة أنها تدعو إلى الخير وتردع عن الباطل.

ومن هذا حُكم القاضي لأنه يردع الظالم فسُمِّي حُكماً، ومنها حَكَمَة الفرس التي في اللجام، سميت حكمة لأنها تردع الفرس وتمنعها من العدو الزائد على رغبة صاحبها. ومن هذا إحكام الآيات وهو إيضاها وبيان معناها حتى لا يقع هناك اشتباه، فإحكام الآيات وإحكام الكلام يمنع من الاشتباه ويمنع من الافتراء عليه أو تحميلة ما لا يحتمل، فكلما كان الكلام أوضح فهو أحكم؛ لأنه يمنع الاشتباه ويمنع التردد في بعض معناه، ويجعل مستمعه على واضح من الأمر.

وأحسن ما جاء في الحكمة التي في الآية: أنها الفقه في الدين، فالفقه في الدين يردع عن كل شر ويدعو إلى كل خير، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١)، فمن =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٧١)، ومسلم: الزكاة (١٠٣٧).

.....

= علامات الخير ومن الحكمة العظيمة أن تُفَقَّه في دين الله، وعلى رأس الفقه في دين الله الخشية لله وتعظيم حرماته والعلم بما شرع سبحانه وتعالى، وَمَنْ رُزِقَ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ فَقَدْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ الَّتِي بِهَا يَدْعُ مَا لَا يَنْبَغِي وَيَأْتِي مَا يَنْبَغِي، فَبِهَا يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ، وَبِهَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ، وَبِهَا يُؤَدِّي فَرَائِضَ اللَّهِ، وَبِهَا يَنْتَهِي عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

[خطورة الربا]

❁ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۗ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۗ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّرْفَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

[البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١]. [١٣]

[شرح ١٣] لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا الْحُثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَذَكَرَ مَا لِلْمُنْفِقِينَ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَالْمُضَاعَفَةِ لِأَجُورِهِمْ بِسَبَبِ إِنْفَاقِهِمُ الْأَمْوَالَ الطَّيِّبَةَ فِي الْجِهَاتِ الْخَيْرِيَّةِ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّفْقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُضَاعَفُ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ وَإِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحُثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، لَا مِنَ الرَّدِيءِ أَوْ مِنَ الْخَبِيثِ.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُّ بِالْفَقْرِ وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، لِيُثَبِّطَ عَنِ الْإِنْفَاقِ، وَيَخَوْفُ النَّاسَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَأَمَّا الرَّبُّ ﷻ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعِدُّ النَّاسَ مَغْفِرَةً لِدُنُوبِهِمْ، وَفَضْلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ بِإِنْفَاقِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَبَارِكُ لَهُمْ فِيمَا أَبْقَوْا وَيُخْلِيفُ عَلَيْهِمْ، وَيُضَاعَفُ أَجُورَهُمْ.

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ^٥ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ^٦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: =

.....

= [٢٧١]، فالصدقات سواء كانت ظاهرة أو خفية، كلها فيها خيرٌ عظيم، سواء أظهرها وأعلنها لمصلحة في ذلك؛ ليقتدى به ويتأسى به في مواساة الفقير والمحتاج عند الحاجة إلى ذلك، أو أخفاها - وهو أفضل - عند عدم الحاجة للإعلان، فالأصل في الصدقات أن السر فيها أفضل، وإذا دعت الحاجة للإعلان فلا بأس بالإعلان للمصلحة الشرعية.

وبعد أن بين سبحانه فضل المنفقين بالليل والنهار وما لهم عنده، ذكر بعد ذلك المرابين وما لهم عند الله من العقوبة؛ فالمرابي أساء إلى الناس وضيق عليهم في شؤونهم وفي أموالهم، وابتغى من وراء معاملته الأخذ من أموالهم والزيادة عليهم، فهو مضيق عليهم ومُسيء إليهم بالربا، وأما المنفق فهو مُتصدِّق محسن إليهم ومراع لأحوالهم وموسِّع عليهم. فستان بين الفريقين؛ فالمنفقون والمتصدقون قد أحسنوا وفرَّجوا ويسَّروا، والمرابون قد ضيقوا وأسأؤوا وابتزوا بأخذ الأموال بغير حق، فلهذا جاء الوعيد في حقهم، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا =

= يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
 الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ
 رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۗ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي
 الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ففي هذا تحذير من الربا،
 وأن أكلته يقومون يوم القيامة من قبورهم مجانين، نعوذ بالله،
 يتخبطون من مسّ الجن لهم، ويروى عن ابن عباس وجماعة: أن
 أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنق، وهذا من باب إظهار سوء
 عمله ومن باب الفضيحة له.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ يعني: اعترضوا
 على الله وقالوا: لماذا حرّم هذا وأباح هذا؟ إنما البيع مثل الربا؛ فإذا
 كان الربا حراماً فليكن البيع حراماً، وإن كان البيع حلالاً فليكن
 الربا حلالاً، أي: ليس هناك فرق، فخفي عليهم الأمر واشتبهت
 عليهم الحكمة، فلماذا قالوا ما قالوا. وهذا الاعتراض على الله من
 باب سوء الظن به سبحانه وتعالى، وأنه يعبث بالأحكام، وأن ليس =

.....

= هناك حكمة في الفرق بين هذا وذاك، ومن اتهم الله في حكمه وأساء به الظنّ، فقد ارتكب منكراً عظيماً وكفراً شنيعاً، نسال الله العافية.

ثم بين جل وعلا أنه حرّم الربا وأحل البيع لحكمة بالغة؛ فقد أحل البيع لما فيه من المصالح، وحرّم الربا لما فيه من المفسد، وما ذلك إلا لأن الإنسان من طبعه يحتاج إلى ما في يد غيره من طعام أو لباس أو مركوب، إلى غير ذلك، فماذا يفعل؟ إذا أخذه منه بالقوة صار النزاع والفتنة، وربما أفضى إلى قتال ومضاربات، فهذا ظلّم وعدوان، وإن انتظره حتى يعطيه إياه هديةً فقد لا يحصل ذلك، فليس كل أحد يُهدي إليك ما تريد، فماذا تفعل عندئذٍ؟ أتبقى على حالك محتاجاً مضطراً ليس لك حيلة؟ فكان من حكمة الله أن أباح البيع حتى يتيسّر لك أن تشتري حاجتك من أخيك برضاه، ويتيسّر له أيضاً أن يشتري منك حاجته بالرضا بالثمن المتفق عليه بينكما، وتُقضى حاجة هذا وتُقضى حاجة ذاك، بدون نزاع ولا خصام ولا عدوان ولا ظلّم، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى.

=

= ثم يبين سبحانه وتعالى أن من جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى عن الربا وعمّا حرم الله عليه، فله ما سلف، فالله يغفر له ويعفو عنه فيما سلف، وهذا من فضله جل وعلا أن التائب يُغفر له ما سلف، ومن عاد للربا وما حرم الله عليه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وهذا وعيد لمن عاد للمعاصي والكبائر بالنار، وهذا يوجب الحذر من العود إلى المعاصي، ويوجب الحثّ على الاستمرار في التوبة والثبات عليها حتى تلقى ربك ﷻ.

ويبين سبحانه أن الربا محروقٌ منزوعُ البركة، صاحبه كشارب ماء البحر لا يزال يطلب المزيد ولا يزال ظمؤه يزيد، فمآله إلى قلة وإلى غضب الله ﷻ، نسأل الله العافية، وأما صاحب الصدقات فيُربي الله له صدقاته، ويزيده من فضله سبحانه وتعالى؛ كما في الحديث الصحيح: «من تصدق بعدلٍ تمرّةٍ من كسب طيبٍ - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُربّيها لصاحبه كما يُربي أحدكم فلّوه أو فصيله، حتى تكون أعظم من الجبل»^(١)، وهذا =

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤١٠)، ومسلم: الزكاة (١٠١٤).

= من فضله سبحانه وتعالى.

وفي هذا أيضاً بيان أن أهل الإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة سالمون من هذا البلاء، ولهم عند الله الفضل العظيم، وليس عليهم خوف ولا حزن، فقد اعترض سبحانه بهذه الآية بين آيات الربا؛ ليبيّن أن من آمن بالله وعمل الصالحات وأقام الصلاة وآتى الزكاة فإن الله جل وعلا يأجره الأجر العظيم، ويُنجيه مما وعد به هؤلاء المرابين.

ويبين سبحانه أن في أداء الزكاة وأداء الصدقات غنية عن الربا وعن المحارم، فالذي يؤمن بالله ويعمل الصالحات ويُقيم الصلاة ويؤتي الزكاة له الأجر العظيم، وهو بعمله ذلك ممن يُزيل أسباب الربا، وممن يعين الفقراء على السلامة من الربا والحاجة إلى الناس.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما للمرابي بقوله: ﴿فَأَذِنُوا يَحْرِبَ مِنَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمن لم يتب من الربا، فليأذن بحرب من الله ورسوله، يعني: فاعلموا بحرب من الله ورسوله.

﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا فَالْكُمُ رُؤُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَحْلُمُونَ وَلَا =

= تَظْلَمُونَ ﴿ فالتائب يُعْطَى رأس ماله، فلا يَظلم ولا يُظلم، فإذا باع مثلاً عشرة بخمسة عشر، أو مئة بمئة وعشرين، أو أقل أو أكثر، ثم تاب الله عليه، فله رأس ماله: العشرة أو المئة، والزيادة تسقط، يقول: ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ لا تظلمون في الزيادة، ولا تُظلمون في رأس المال، فيعطى رأس ماله ويكفيه.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه لا حاجة إلى الربا، ولا حاجة ليظلم الناس من كان معسراً، فالواجب إنظاره ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ فإن أغلب المرابين هم الفقراء، والتجار الذين يُنظرونهم يسيئون إليهم، حتى يضطروهم إلى المعاملة الربوية، فالواجب على التاجر أن يُنظر ولا يُسيء إلى الفقير، فليُنظره ويُمهله حتى يُوسّع الله عليه، فيرد الدين الذي عليه، ولا يُلجئه إلى الربا.

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ فإنظار: مصدر معناه الأمر، يعني: فأنظروه إلى ميسرة، وهذا واجب، فلا يجوز حبسه ولا إيذاؤه ولا ظلمه إذا ثبت عُسره، بل يجب أن يُنظر، وأما =

= المرابون فيقولون: لا نُنْظِرْكَ، بل لا بد أن تزيد في المال حتى نمهلك، فإذا كنت معسراً فاجعل الزيادة في المال حتى نُنْظِرْكَ شهراً أو شهرين أو سنة، وهكذا، ثم إذا حَلَّ الأجل يزيدون في المال وفي الأجل حتى يتضاعف المال ويكثر.

هذا مرادهم، فرد الله عليهم وأبى عليهم ذلك بأن عليهم الإنظار بدون زيادة، فقد كانوا في الجاهلية يقولون للفقير إذا حل الدين عليه: إما أن تُرْبِي وإما أن تقضي؛ يعني: إما أن تزيد في المال حتى نمهلك، وإما أن تقضي لنا حقنا في الحال، وليس عنده قضاء، فيضطر إلى الربا، ثم إذا حل الأجل بعد ذلك قالوا: أعطنا - وليس عنده شيء -، فيزاد المال، وهكذا، وهذا هو نفس عمل البنوك الآن فيما بلغنا عنهم - وإن لم يُظهروا ذلك -، فعملهم كعمل الجاهلية: إما أن تربى وإما أن تقضي.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إذا كان معسراً فالإنظار واجب، ولكن الأفضل من الإنظار الصدقة، وهذه من الوسائل التي تكون النافلة =

= فيها أفضل من الواجب، فالإنظار واجب والصدقة مستحبة، وهي أفضل لصاحب الدين من الإنظار، فالإنظار إمهال له، والصدقة إبراء له من الحق، وذلك أكمل وأفضل.

ثم يُحذِرُ النَّاسَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَقُولُ:
﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۗ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فهذا تحذير من ربنا للعباد أن يعصوه ويخالفوا أمره، فيندموا يوم القيامة غاية الندامة، فيوم القيامة يجازى فيه العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالواجب أن يتقى هذا اليوم وأن يحذر؛ حتى لا تَقْدَمَ عَلَيْهِ وَأَنْتَ مُحْمَلٌ بِالْأَوْزَارِ، بل ينبغي أن تُعِدَّ الْعُدَّةَ حَتَّى تَقْدَمَ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَأَنْتَ صَاحِبُ تَوْبَةٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَوْزَارٍ وَسَيِّئَاتٍ وَرَبِّاً وَأَعْمَالٍ قَبِيحَةٍ، تَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَيْتَ جَزَاءَهَا وَرَأَيْتَهَا فِي كِتَابِ سَيِّئَاتِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ *.

* س: آية ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ هل الصحيح أنها آخر آية نزلت في القرآن؟
ج: رُوي هذا، ولكن ليس بظاهر، والأقرب أن آخر آية نزلت هي: =

= ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، التي نزلت على النبي بعرفات عليه الصلاة والسلام. [انظر: «فتح الباري» (٢٠٥/٨)]

س: كيف نجمع بين قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟

ج: الخلود خلودان: خلود مؤبد، وخلود إلى وقت معين، فخلود الكفار مؤبد أبد الآباد، نعوذ بالله، وخلود العصاة خلود مؤقت، والعرب تطلق على المدة الطويلة خلوداً، فيقولون: قاموا فأخلدوا، يعني: قاموا طويلاً، وهذا هو المراد في حق أهل المعاصي، كما هنا في المرابين إذا كانوا غير كافرين، وكما في قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فإذا كان غير مستحل لذلك فهو خلود مؤقت، كما ذكر في أحاديث: «من قتل نفسه بحديدة فهو في نار جهنم خالداً مخلداً فيها»^(١)، يعني: إلى أجل، هذا عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

(١) أخرجه البخاري: الطب (٥٧٧٨)، ومسلم: الإيمان (١٠٩).

[أحكام المداينة]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ
 أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا
 يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ
 وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا
 رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
 إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا
 وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ ۖ أَلَّا تَرْتَابُوا ۗ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً
 حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ
 وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ
 تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ
 وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۗ ﴿٣٨٢﴾ ❁ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ

تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي
 أُوْتِيَ مِنْ أَمْنَتِهِ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۗ وَمَنْ
 يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

[البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]. [١٤]

[شرح ١٤] هذه آية الدين وهي أطول آية في كتاب الله ﷻ، وقد اشتملت على آداب المداينة والمعاملة، وما ينبغي أن يعامل به الشهود والكتّاب، وهي في الحقيقة منهج عظيم في المداينة والمعاملة، فينبغي للمسلم أن يسير عليها وأن يلزمها لما فيها من حفظ الحقوق والعناية بأمر الشهود والكتّاب الذين بهم تُحفظ الحقوق.

وهي أصلٌ في بيع الأجل وبيع السلم؛ لأنها داخلان في إطلاق الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ فإن الدين يشمل بيع الحاضر إلى أجل، ويشمل بيع المؤجل بثمن مقدّم وهو السلم، وكلاهما عقدان جائزان ومعاملتان شرعيتان بشروطهما.

ونجد أصله أيضاً جواز المداينات والبيوع المؤجلة من شخص إلى غيره، إلا ما حرّمه الشرع من مثل العقود الربوية أو =

= العقود التي تشتمل على غَرَر، فالأصل في الإسلام صحة العقود وصحة المداينات ما لم يوجد ما يُبطلها أو يُفسدها من غرر أو ربأ، وإنما الأصل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن الأصل في المعاملات وفي الوفاء بالعقود: الحِلُّ، كما في سورة المائدة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فالأصل حلِّ العقود، وحلِّ البيع والإجارة والمساقاة وما أشبه ذلك بين المسلمين.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ففي هذا بيان حفظ الديون والحقوق بالكتابة، وأنه ينبغي الإملاء الحقيقي المطابق للحق والعدل، من دون زيادة ولا ظلم ولا نقص ولا بخس.

وكذلك أن يكون الدين إلى أجل مسمًى؛ حتى لا يقع نزاع أو خصام، وحتى يكون كل منهما على بينة وعلى بصيرة، فإذا كان إلى غير أجل مسمًى لم يصح؛ إذ لا بد من تأجيل إلى أجل مسمًى حتى =

= يتمكن طالب الحق من المطالبة بحقه، وهكذا قال الرسول ﷺ: «من أسلفَ فلا يُسلفُ إلا في كيلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ إلى أجلٍ معلومٍ»^(١)، فإن الأجل المعلوم يحسم النزاع، فإن تقدم به فقد أحسن، وإن تأخر حتى يأتي الأجل فلا حرج عليه.

وفيه الكتابة كذلك، وهي من باب حفظ الحقوق، وهو أمرٌ للنَّذْبِ والإرشاد، والكتابة مستحبة ومشروعة، فإن الله سبحانه وتعالى أمرَ بها إلا إذا كانت التجارة من المعاملات الحاضرة، فلا حرج في عدم الكتابة؛ لأنها قد تشقُّ على المتبايعين، فإذا كانت المعاملة ناجزة - يأخذ ويعطي - فلا حاجة للكتابة، بخلاف المدائنة فإنها يتأخر فيها المبيع أو يتأخر فيها الثمن، ويُحتاج إلى الكتابة حذراً من النسيان.

وكذلك الإشهاد في البيع مستحب عند أهل العلم لقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ويدل على عدم الوجوب ما وقع في بعض المعاملات من عدم الإشهاد منه عليه الصلاة والسلام، فالحاصل أن الإشهاد سنةٌ ومستحبٌ لحفظ الحقوق، لما =

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

= في ذلك من إعانة المشتري والبائع على حفظ الحق، ولا سيما إذا كانت مُداينة؛ لأنه قد ينسى، فوجود الكتاب والشهود أكمل في حفظ الحقوق.

وفي هذا دلالة على أن المرأة في الشهادة تُعَدُّ نصف الرجل، فإذا شهد بالحق امرأتان كان هذا بمثابة شهادة رجل واحد، والأربع بشهادة رجلين، ويبين العلة سبحانه بقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ ﴿لَمَّا كَانَ ضَبْطُ الْمَرْأَةِ أَقَلَّ مِنْ ضَبْطِ الرَّجُلِ فِي الْغَالِبِ، اِحْتِيجَ إِلَى أَنْ تُعَزَّزَ بِأَخْتِهَا حَتَّى تَكُونَ مُعِينَةً لَهَا فِي وَقْتِ الْحَمْلِ.

وفي هذا أنه ينبغي للشهود أن لا يأبوا إذا دُعُوا، وأن عليهم أن يساعدوا إخوانهم في حمل الشهادة وفي أدائها، وهكذا الكاتب كذلك، فلا يأبى إذا دعت الحاجة إليه؛ لأن هذا من باب التعاون على حفظ الحقوق، ومن باب النفع للمسلم؛ والنبي ﷺ قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١).

(١) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

= ويقول أيضاً ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»^(١)، وهذا من باب التعاون على أمور تنفعه في الدنيا والآخرة.

وهذا فيه تحذير من المضارّة ﴿وَلَا يُضَارُّوا كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فالواجب على المتعاملين ألا يُضَارُّوا الكاتب وألا يضارُّوا الشاهد، بحبسه والتطويل عليه أو تعطيله عن مصالحه، أو دعوته في الوقت الحرج فيشق عليه، أو ما أشبه ذلك مما فيه صَرَّرُ على الكاتب والشاهد، بل يُتَحَرَّى في حقهما ما لا يضرهما من الميقات المناسب لهما، والدابة التي تريحهما - السيارة - وما أشبه ذلك مما يُعِين على أداء الشهادة والكتابة.

وفيه بيان أن تَعَمَّدَ المضارّة فسوقٌ لمن فعل ذلك ﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ يعني: هي معصية بكم، فالحاصل أن الواجب على المسلم ألا يُضَارَّ أخاه الكاتب ولا الشاهد، بل يتحرى ما ينفعه وما لا يشق عليه ويسهل؛ حتى يحصل التعاون والمساعدة على حفظ الحقوق.

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

= ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا فيه الأمر بالتقوى، وأن المتقي لله تعالى حرٌّ بأن يُعلِّمه الله ويوفقه ويعينه، فالتعليم منةٌ من الله عز وعلًا، وعليك يا عبدَ الله أن تتقيَ ربك وهو يعلمك سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أن تتقيَ الله وتترك التَّعلم، فالتعلم من التقوى، فمن اتقى الله يتعلم، والتعليم له أسبابه فأنت تأخذ بها. وهكذا بقية الأمور التي أنت مأمور بها من طلب الرزق الحلال، ومن الزواج، وصلة الرحم وغير ذلك، فأنت مأمور فيها بالأخذ بالأسباب، وأن تتقي الله في ذلك كله، ومن تقوى الله: بِرُّ الوالدين وصلة الرحم والكسب المباح وطلب العلم وغير ذلك، والله جل وعلًا هو مسبب الأسباب، وهو المعين على كل شيء سبحانه وتعالى، وإنما عليك أن تتعاطى الأسباب وأن تأخذ بها. وأنت أيضاً في أخذك بالأسباب تكون في رحمة الله وإحسانه، فبدون رحمته وإحسانه لما قَدَرْتَ على شيء، ولما أخذت بسبب، ولما قويت على شيء، ولكن انظر؛ هو المُعلِّم والمُعِين سبحانه وتعالى، وهو المُسهل، فعليك أنت أن تسارع إلى ما ينفَعك، وأن تبادر إليه، =

= وأن تستعين بالله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الصحيح: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لم يصبني كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١). فالمؤمن يحرص على ما ينفعه في الدنيا والآخرة ويستعين بالله سبحانه وتعالى، والله معينه، فمن اتقى الله سبحانه يسر له أموره ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] والفرقان: هو العلم، ومن اتقى الله يسر له أموره، وفرج كُرباته، وأعطاه العلم النافع.

ومن أسباب العلم النافع: أن تكون مُتقياً لله، وأن تتعلم وتُسارع إلى حلقات العلم، وأن تُتقّب عما أُشكِل عليك، وأن تسأل عما خفي عليك، فكل هذا من الطرق المُرشدة إلى تعليم الله لك سبحانه وتعالى، وهو حصول الفرقان، وقد يغلط بعض الناس =

(١) أخرجه مسلم: القدر (٢٦٦٤).

= ويظن أن ما وعد الله به من الخير والهدى والصلاح والعلم وتفريج الكرب وأشباه ذلك لا يحتاج إلى أسباب، وإنما يحصل بمجرد الوعد من دون الأخذ بالأسباب من العبد، وهذا غلط، فقد يحصل ذلك عند الشدائد وعندما يعجز العبد عن الأسباب، وعند ضيق الأمور عليه، لكنه مأمور بالأسباب، وعليه أن يتخذ فعل الأسباب التي يستطيعها.

وقد لا تنفع الأسباب، وقد تُعطل وقد يُحال بينه وبينها، فعند هذا يجيء فرج الله وتيسيره ويأتي مددُه سبحانه وتعالى، فكم من مضائق عاجزٍ عن الأسباب يأتيه المدد من الله سبحانه وتعالى، لكن مع القدرة والاستطاعة على الأسباب فالواجب ألا يتأخر عن ذلك، وأن يكون عاملاً بالأسباب آخذاً بها، فالجنة لها أسباب، والنار لها أسباب، والرزق له أسباب، وقضاء الدين له أسباب، وطلب العلم له أسباب، وهكذا، ومع ذلك فعلى المسلم أن لا يعتمد على الأسباب وحدها، بل يأخذ بها ويستعين بالله عليها = سبحانه وتعالى.

= ومن ذلك الرهن، فالرهن لا بأس به؛ لأنه يقوم مقام الإشهاد، ومقام الكتابة عند عجز الإنسان عن الكتابة والإشهاد، فيستفيد من الرهن؛ لأن فيه حفظ الحق، وإذا جمع بين ذلك؛ فكتب وأشهد وأخذ رهناً، فكل هذا نوع من الاحتياط، فلا بأس. والواجب على المرتهن أن يؤدي الأمانة التي أوتمن عليها؛ فإن الرهن أمانة عنده، فليثق الله في ذلك، وأن يعتني بالأمانة ولا يخونها حتى تؤدى، فصاحب الحق قد يؤدي الحق كاملاً فيسترد رهنه، وقد يعجز عن الرهن فيباع هذا الرهن، فالمرتهن أمين فليؤد الأمانة وليحذر أن يخونها أو يضيعها.

وكذلك الشهادة أمانة، فليثق الله في أدائها، فلا يكتمها وأخوه بحاجة إليها، ولا يزد فيها ولا ينقص، بل يحفظها ويصونها ويستعين على ذلك بالكتابة، وليتذكرها دائماً حتى تؤدى كما تحملها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ نسأل الله العافية*.

* س: قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، هل =

= يعني هذا أن الله يعلم المتقين الأحكام التي وردت في الآية فقط؟

ج: هذا قيد ليس له لزوم، فالمعنى: الأحكام وغيرها، لكن الأحكام الموجودة من باب أولى، ولكن من اتقى الله علّمه الله أحكام الدين عامة، والأهم أحكام العقيدة الصحيحة.

س: تقدم تقديم المثلّمن وتأخير الثمن، هذا معروف بين الناس، ولكن

تقديم القيمة وتأخير المثلّمن، كيف يكون؟

ج: هذا يسمى بيع السّلم، كأن أقول: يا زيد أنا أشتري من ذمتك مئة صاع من بُرّ بمئة ريال، وتؤدي لي هذا العيش في رمضان أو في شعبان أو في رجب، فهذا يسمى بيع السّلم، وقد قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في التمر السنة والستين والثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف في تمر فليُسلف في كيلٍ معلوم ووزن معلوم إلى أجلٍ معلوم»^(١). فالسّلم: تعجيل الثمن وتأخير المثلّمن أو المبيع، وعكسه بيع الأجل، وهو تسليم المبيع وتأجيل الثمن.

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

[إحاطة علم الله وتمام ملكه وقدرته]

❁ قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۗ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ ۗ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ۖ وَرُسُلِهِ ۖ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۗ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

[البقرة: ٢٨٤-٢٨٥]. [١٥]

[شرح ١٥] هذه الآيات الكريهات توجهُ العباد إلى الإيمان بأن ربهم سبحانه وتعالى هو المالك لكل شيء، وهو على كل شيء قدير، وأنه يعلم ما في الضمائر، ويعلم ما تنطوي عليه القلوب، فلا تخفى عليه خافيةٌ جل وعلا، وهو مالك السماوات ومالك الأرض، والمالك لما فيهما، كما قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

= ولما نزلت آية البقرة هذه شقَّ ذلك على أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وجاءوا إليه وقالوا: يا رسول الله، حملنا من التكاليف ومن الشرائع ما نستطيع، ونزلت هذه الآية ولا نستطيعها، أو كما قالوا رضي الله عنهم وأرضاهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! قولوا: سمعنا وأطعنا» فقالوها^(١).

فلما قالها القوم نزل على إثرها قوله سبحانه: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما نزلت هذه الآية أنزل الله على إثرها ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية، فرفع الله عنهم ما خافوا وخشوا، وهو أن يحاسبوا بما في القلوب وما يخطر من الأشياء في الصدور؛ لأنه قال: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

.....

= يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﷻ، وقد خافوا من هذا لأن الإنسان يخطر له خواطر ويكون في نفسه أشياء، ولكنه لا يُصِرُّ عليها ولا ينفذها، بل تحظر وتزول، فرفع الله عن المسلمين هذا الشيء بهذه الآيات، ولهذا في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان^(١) أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم»، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى وإحسانه، وفي الحديث الآخر يسأل بعض الصحابة النبي ﷺ: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»^(٢) يعني: أن وساوس الشيطان قد تَرَدُّ على الإنسان حتى يقع في نفسه وفي قلبه أشياء يتعاضم من أن ينطق بها لقبحها، فالشيطان حريص على أن يوقع الناس في الوسوس الخبيثة والأفكار الباطلة، فإذا عاجلها بذكر الله واستغفاره والتبتل إليه والتعوذ بالله من الشيطان زالت وارتفعت.

ولهذا في حديث آخر يقول عليه السلام: «يأتي الشيطان =

(١) البخاري: الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم: الإيمان (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٢).

= أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»^(١). وفي رواية: «فليقل: آمنت بالله»^(٢). فالشيطان لا يزال بابن آدم يُلقي عليه الوسوس والأفكار الرديئة، فإن كان عنده نور وإيمان وهدى دافع هذه الوسوس بالتعوذ بالله، والإيمان بالله ورسوله، والعلم بأنها من الشيطان، فيرتفع ذلك عنه ويزول، وإن كان الإنسان ليس عنده علم ولا بصيرة استرسل مع هذه الأفكار السيئة، حتى تكون عظيمة فتستقر في نفسه، والعياذ بالله.

وفي هذا بيان أن الواجب على العباد عند الشرائع وعند نزول الآيات أن يتقبلوها بالإيمان والتصديق وبصدر رحب، ولا يكفروا بها ولا ينفروا منها، ولا يقولوا: لا نؤمن بها ولا نستطيعها، بل يجب قبولها والإيمان بها، ثم سؤال الله التيسير والتسهيل فيما إذا كان هناك شيء من الشدة، والله المعين سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ =

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم: الإيمان (١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٤).

= يُسْرًا ﴿[الطلاق: ٤].

وفي هاتين الآيتين ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ وما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»^(١)، وهما: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى آخر السورة، أي: كفتاه من كل سوء، وكفاه الله من الشيطان، وقيل: كفتاه عن قيام الليل، ولكن الصواب هو المعنى الأول، أي: أنها تكفيه وتكون له حرزاً من الشيطان، وكفاية له من كل سوء.

وأما قيام الليل فهو على حاله وشرعيته وسُنَّيته، فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل ويتهجّد، وكان يقول هاتين الآيتين عليه الصلاة والسلام.

وفي هاتين الآيتين الدلالة على أن الواجب على العباد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما في حديث جبرائيل لما سأل =

(١) أخرجه البخاري: فضائل القرآن (٥٠٥١)، ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها

= النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»^(١)، وجاء ذكر هذه
الأصول في الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فهذه
الأصول الستة عليها مبنى الإسلام ومبنى الإيمان في القلوب.

وأما الأركان الخمسة الظاهرة فهي العمدة الظاهرة للإسلام،
وهي: الشهادتان، والصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، والحج،
وللإسلام أيضاً عمدة وأصول باطنة تكون بالقلوب، ولا بد منها،
ولا يستغنى عنها بالأعمال الظاهرة، وهي أصول الإيمان الستة.
فمن جمع بينهما فهو مسلم حقاً، ومن أدى الأركان الخمسة الظاهرة
ولكنه لم يف بالأصول الباطنة فهو منافق، فالذي يقول بلسانه
ويعمل ظاهراً ما ليس في قلبه لا يكون مؤمناً مسلماً بها، إلا إذا جمع
بين الأمرين، وأدى الأعمال الظاهرة، وآمن بالأصول الباطنة،
وصار إيمانه يصدق ما أظهره من إسلامه ودينه، ويصدق ما أبطن، =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٨).

= فهو جامع بين الظاهر والباطن، أي: بين الأصول الظاهرة والأصول الباطنة.

فهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عن إيمان صادق، وعن تصديق بأن الله معبود بحق، وأنه رب العالمين، ويشهد بالرسول عن إيمان وعن تصديق أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وهكذا إقامته الصلاة، وإيتاؤه الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، إلى غير ذلك مما يأتي به عن إيمان بأن هذا من شرع الله، وأن الله أمر بهذا، فلا يأتي به رياءً كالمنافقين، بل يأتي به عن إيمان وعن تصديق وعن علم أن هذا من شرع الله وأنه مما أمر الله به.

وفيه أيضاً من الفوائد أن الله جل وعلا لا يكلف العباد إلا ما في وسعهم، وطاقتهم وأن الله جل وعلا قد أجاب هذه الأمة في إعفائها من تكليفها بما فيه آصارٌ وأغلالٌ مما جرى على الماضين، ولهذا جاء في «الصحيح»: أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾. قال: قد فعلت، إلى آخر الآيات، في كل =

= دعوة يقول: قد فعلت^(١)، فأجاب الله هذه الدعوة ورفع عن المسلمين الحرج والآصار التي أصيب بها من قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم في تكليفهم بأمر ثقيلة وعظيمة بسبب أعمال ارتكبوها وسيئات اقترفوها، كما قال ﷺ: ﴿فِي ظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١] فهم ابتلوا بسبب أعمالهم السيئة وإقدامهم على محارم الله جل وعلا، فشدد عليهم، ومن ذلك أنهم أمروا أن يقتلوا أنفسهم في توبتهم، وهذا من الآصار العظيمة.

ومن رحمة الله جل وعلا بهذه الأمة أن اكتفى منها سبحانه بالندم على الماضي، والإقلاع عن الذنوب، والعزم الصادق على ألا يعود إليها، وعدم الإصرار، وردّ المظالم إلى أهلها، وجعلها توبة كافية لمحو السيئات بغير حاجة إلى أن يقتلوا أنفسهم، فهذا من =

(١) أخرجه مسلم: الإبان (١٢٦).

= رحمة الله تعالى ومن تيسيره جل وعلا.

فالمقصود من هذا كله بيان أن الواجب على العباد السمع والطاعة في كل شيء، والإذعانُ لأمر الله ورسوله، وألا يخالفوا أمر الله بالعصيان، وألا يتأسَّوا بالماضين من الأمم المخالفة العاصية التي احتالت على الأنبياء وعصت، بل يجب على الأمة - التي هي خير الأمم ورسولها خير الرسل - أن يقابلوا أوامر الله بالصبر والانشراح وطيب النفس والامتثال، وأن يصدِّقوا أخباره سبحانه وتعالى، وأن ينقادوا لأمره، وأن يقفوا عند حدوده، وأن يعلموا أن في ذلك الخير العظيم والعاقبة الحميدة، هذا الذي وعد الله به مَنْ صَبَرَ واستقام واتقى، فالله ﷻ يقبل توبته، ويسر له أمره، ويعينه على أداء الحق، ويزيل ما في قلبه مما قد يضره من وساوس وأفكار تضره رحمة منه وإحساناً سبحانه وتعالى.

﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ دلالة على أن المصير

والمرجع إلى الله، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، والدار داران: إما الجنة وهي دار المتقين المحسنين الصابرين، وإما النار =

= وهي دار الكافرين العاصين المخالفين المتابعين للهوى، نسأل الله السلامة! فالواجب على العباد استشعار ذلك، فالمصير إلى الله جل وعلا، وسيجازيهم بأعمالهم، فإذا علمت أن المصير إلى الله، وأنت مجازى بعملك، فالواجب عليك أن تُعدَّ العدة، وأن تكون على أهبة صالحة إذا صرت إلى الله، فتلقى الخير العظيم، والإحسان والعاقبة الحميدة*.

* س: ما صحة حديث «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروا عليه»^(١)؟

ج: في صحته نظر، وقد حَكَم عليه بعض الحفاظ بأنه غير ثابت، لكن له شواهد؛ فالخطأ أو النسيان شاهده الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد قال الله: قد فعلت^(٢).

وأما ما استكروا عليه، فمعروف أن الإكراه يرفع الحرج ويرفع الحكم، كما في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ [النحل: ١٠٦].

فالحديث له شواهد من جهة المعنى، أما سنده فهو ضعيف عند أهل =

(١) أخرجه ابن ماجه: الطلاق (٢٠٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

= العلم، قال أبو حاتم: لا يثبت. وقال آخرون: لا بأس به. فالحاصل أنه حديث ضعيف عند أهل العلم، ولكن حديث «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم»^(١).

س: بمناسبة ذكر كلمة التقليد الأعمى، إذا قلنا بمنع التقليد، فهل

نحكم على المقلد الأعمى بالخطأ أم بالضلال أم بالكفر؟

ج: هذا فيه تفاوت وتفصيل، فابن القيم رحمه الله بسط هذا المقام وأوضحه في كتاب «إعلام الموقعين»، وتقدم أن التقليد ثلاثة أقسام: قسم واجب، وقسم محل اجتهاد ونظر، وقسم منكر محرّم لا يجوز أبداً لأنه قد يوقع في الكفر والضلال.

القسم الأول: للعامة، فالواجب على العامة الذين لا يعرفون الأحكام

أن يسألوا أهل العلم، ويقلدوهم في ذلك، ويجتهدون في تحري العلم فالأعلم والأورع فالأورع، حسب طاقتهم، وليس يسعهم إلا هذا، قال تعالى: ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، فليس عليهم إلا أن يسألوا أهل العلم عن الحق والشرع، وعلى أهل العلم أن يبينوا لهم شرع الله، وعليهم أن يصدقوا وأن ينقادوا لهذا البيان؛ إذ ليس في طاقتهم التععيد والعلم بآيات الله وأدلته.

(١) أخرجه البخاري: العتق (٢٥٢٨)، ومسلم: الإيمان (١٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

= القسم الثاني: للمجتهد، والمجتهد يعلم الأحكام، ولكن قد تأتي حادثة يضيق الوقت عن استيفاء الأدلة فيها، فيقلد من يغلب على ظنه أنه أعلم بالأحكام وأقرب إلى الشرع في هذه المسألة التي نزلت به.

القسم الثالث: المجتهد طالب العلم المتبصر، الذي لا ضيق عليه، وفي إمكانه النظر، فالواجب عليه النظر، ولا يجوز له التقليد في ذلك، لا في العقائد ولا في الأحكام.

س: ما الشروط التي تشترط للمجتهد، فهل يجب أن يكون عالماً باللغة... إلخ؟

ج: على حسب طاقته، حتى يكون عالماً بالأدوات التي تمكنه من معرفة الأدلة، أما توسعه فيها فليس بشرط، فالمهم أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الأدلة الشرعية، من جهة اللغة ومن جهة القواعد الشرعية التي قررها العلماء في أصول الفقه وفي مصطلح الحديث.

فليس المراد أن يكون كاملاً أو يغلب عليه ذلك، وإنما المقصود أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الدليل ومعرفة ما يعارضه، حتى يردده أو يسلم له.

س: هل يعني هذا أن من شروط المجتهد أن يكون عالماً باللغة أو بأصول الفقه أو... إلخ؟

=

= ج: لا يشترط أن يكون عالماً بكل شيء، ولكن يكفي أن يكون عنده معلومات تُعينه على الاجتهاد، فعبارات الإطلاق ليست على إطلاقها، فالمراد أن يكون عنده معلومات تكفيه.

س: هل العامي يسأل عن الدليل كما في قول الله تعالى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]؟

ج: يسأل عن الشرع، وإلا فهو لا يعرف الدليل - الآية أو الحديث - فيسأل: يا فلان، أخبرني بما شرع الله في هذا الشيء، أو ما يجب علي في هذا الشيء؟ وعلى المسؤول أن يتقي الله فيه، وأن يتحرى الحق؛ لأن هذا العامي لا يعرف الدليل.

سورة آل عمران

[إثبات التوحيد لله، وإنزال الكتب على رسله]

قال تعالى: ﴿الْم ۝١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۗ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ١-٧]. [١٦]

[شرح ١٦] في هذه الآيات الكريمات توجيه للعباد وإخبار لهم =

= بصحة ما أنزله سبحانه على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام،
وأنه أنزل التوراة والإنجيل، وأنزل القرآن بالحق جل وعلا.

يقول تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾ هذه حروف مقطعة مثل ما تقدم في
سورة البقرة.

قال أهل العلم فيها: الله أعلم بمعناها سبحانه وتعالى، فهي
حروف افتتح بها سبحانه بعض السور لحكمة بالغة، قيل: ليعلم
الناس أن هذا الكلام العظيم الذي أنزله على الرسل هو من هذه
الحروف، ففي ذلك عبرة جمع الله بها خيراً كثيراً، وأنزل بها علماً
عظيماً. وقيل: إن الله جل وعلا بدأ بها لحكمة بالغة لا نعلمها، هو
سبحانه أعلم وأحكم بها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّمُ﴾ وهذه الكلمة العظيمة هي
أصل الدين وأساس الملة، ف«لا إله إلا الله» هي أصل الإسلام
الذي جاءت به الرسل؛ فالرسل بُعثوا كلهم بهذه الكلمة، وهي
أساس دين الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فهو انقيادٌ
لله وتوحيد وإخلاص له، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» أي: =

= لا معبودَ بحق سواه جل وعلا، فهو المعبود بالحق، وما سواه معبود بالباطل، كما قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦٢]، فبهذا يُعلم أن ما عليه عبَاد غير الله كله باطل، سواء كانوا عبدوا بشراً أو جنّاً أو ملائكةً أو غير ذلك.

و«الحيُّ القيوم»: اسمان عظيمان يجمعان صفات الكمال، فالحياة والقيومية بها صفات الكمال، والحيُّ مَنْ له صفات الحياة من سمعٍ وبصرٍ وقيام بنفسه إلى غير ذلك؛ فالله تعالى له الكمال في صفاته وأسمائه جل وعلا؛ فهو حيٌّ لا يعترية نوم ولا نعاس ولا موت ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وفي الآية الأخرى ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهو كامل الحياة سبحانه، لا يعترية في هذه الحياة موت ولا نعاس ولا نوم، ولا غير ذلك من النقص، فله الكمال المطلق في الحياة من كل الوجوه.

وله الكمال المطلق في القيومية، فهو قائم بنفسه غني عن خلقه سبحانه وتعالى، وجميعُ العباد كلهم محتاجون إليه سبحانه وتعالى، بإذنه قامت السماوات والأرض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ =

.....

= وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي ۗ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] فهو المقيم لغيره وقائم بنفسه سبحانه وتعالى.

وبيّن أنه أنزل الكتاب على محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه مصدّق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنه أنزل الفرقان الذي هو الحق وهو الفرق بين الحق والباطل، فهذه كتب أنزلها الله جل وعلا لبيان الحق وهدى الناس إلى الخير والسعادة، فالتوراة مُنزّلة على موسى، وهي كتاب عظيم فيه أحكام ومواعظ وذكرى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهكذا الإنجيل فيه هدى ونور، وفيه مواعظ أحكام؛ فهما كتابان عظيمان، التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام، وهناك الزبور على داود عليه الصلاة والسلام، وهناك كتب أخرى أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيها الشرائع، وفيها الأحكام، =

= وفيها العظات والذكرى؛ لكن أعظمها وأكبرها شأناً القرآن العظيم المنزَّل على محمد عليه الصلاة والسلام، ثم التوراة، ثم الإنجيل، ثم الزبور، فهذه الكتب الأربعة نُوِّه إليها سبحانه وتعالى لِعِظَمِ شأنها، وبين في الآيات الأخرى أنه أنزل على الرسل كتباً أخرى، أي: على الجميع ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالله أنزل معهم الكتب، وأنزل معهم العدل بين الناس، والحكم بينهم بما فيه العدل والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن بعد ذلك أنه يُصَوِّرُ العبادَ في الأرحام؛ ليُبين بذلك أن عيسى عليه السلام عبدٌ من عباد الله، مُصَوِّرٌ في الأرحام، فهذه السورة نزلت في كُفْرِ النصارى والرَّدِّ عليهم في تأليههم عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد كان مخلوقاً مُصَوِّراً في رحم أنثى، فكيف يكون إلهاً؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبين سبحانه وتعالى أن المُنزَّلَ على محمد ﷺ من الكتاب فيه آيات مُحْكَمَات، وفيه أُخْرُ مُتَشَابِهَات، فالمحكّمات فيها =

= الأصول الواضحة البيّنة التي أوضح الله معناها للناس، وجعلها عمدة في بيان الأحكام والرجوع إليها عند النزاع، وهناك آيات قد يشتبه معناها ويخفى، فيجب أن تُردَّ إلى المُحكّم وأن تُفسَّر بما يقتضيه المُحكّم، فبيّن سبحانه وتعالى أن أهل الزَّيغ يتَّبعون ما تشابه منه ولم يتضح، ويتركون المُحكّم الواضح؛ لِمَا في قلوبهم من الزَّيغ، والعياذ بالله. ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَى اللهُ، فاحذروهم»^(١)، فسَمَّاهم أهل الزَّيغ، فاحذروهم لئلا يُضِلُّوكم عن الحق.

فالمُحكّمات أحسن ما قيل في معناها: أنها الآيات الواضحات المعنى التي ليس فيها اشتباهٌ ولا خفاءٌ، ومن ذلك مُعظم القرآن؛ فكلُّهُ مُحكَّمٌ واضحٌ قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَمَتًا إِلَيْكَ، ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، فهي مُتَقَنَةٌ مُوَضَّحَةٌ مُبَيَّنَةٌ ليس فيها خفاءٌ، وفيها آيات الصلوات، وآيات الزَّكَّوات، وآيات الصوم، =

(١) أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٥٤٧)، ومسلم: العلم (٢٦٦٥).

= وآيات المحرمات ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾

[النساء: ٢٣] إلى آخره، فهي بحمد الله من أوضح الأشياء. ومن

هذه المحكمات آيات التوحيد، وآيات الرسالة، وآيات الأسماء

والصفات، بخلاف ما قال: إنها من المشتبهات، بل إنها محكمات؛

لأن الله أوضح معناها، فليس فيها شبهة، وليس فيها ما يدل على

مشابهة المخلوقين؛ لأنه أوضح أسماء وصفاته سبحانه وتعالى؛

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤]

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] فما بقي اشتباه؛

فهي آيات واضحة فيها أسماء وفيها صفات بينها ربنا عز وجل؛

فليس فيها صفات المخلوقين، وليس هناك بعد هذا بيان، فليس

لأحد أن يقول بعد ذلك: إن هذه مشتبهة ومن قال مثل ذلك فقد

غلط وخالف في التفسير.

فآيات الصفات كلها مُحكمات؛ ولكن بالنسبة إلى بعض

الناس قد تشتبه عليه لقلّة معلوماته وقلّة بصيرته، وإلا فهي =

= مُحْكَمَةٌ وَاضِحَةٌ عِنْدَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ فِيهَا خِلَافٌ.

كما أن الآيات التي فيها الأحكام مفصلة مُحْكَمَةٌ؛ أما ما قد يُشْتَبِهَ معناه أو يخفى بالنسبة إلى بعض الناس فهذه يجب أن تُرَدَّ إلى المُحْكَمِ وأن تُفسَّرَ بالمُحْكَمِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] زعم بعض الناس أنها تدلُّ على عبادة الأولياء، وصرف العبادة لهم، واعتقاد ما لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، ومن أقبح التفسير؛ فهي عند من تَعَمَّدَ ونظر في آيات الله يجد أنه ليس فيها اشتباه أو خفاء، وإنما يجد أن معناها واضح؛ وهو الثناء على أولياء الله، وأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم أهل الإيمان والتقوى، فأبي اشتباه في هذا؟! لكن إذا حَمَلَهَا ضعيفُ الإيمان أو زائغُ القلب أو الجاهل ما لا تحتمل، فهذا النقص فيه إنما يُرَدُّ إليه، وكذا التقصير فيه إنما يُرَدُّ إليه، لا إلى الآية؛ فالآية لِمَنْ تَأَمَّلَ وَتَعَقَّلَ وَاضِحَةٌ؛ فهي ثناء على الله، وعلى الأولياء، وإخبارٌ عنهم بأنهم لا =

= خوف عليهم ولا حزن، وأنهم أهل الإيمان والتقوى، فأى شيء في هذا يدعو لأن يُعبدوا من دون الله؟ أو يُعتقد فيهم أنهم يعلمون الغيب، أو يتصرّفون في الكون، أو تُصرف لهم العبادة؟! فهذا تحمیلٌ للآية غير ما تحتمل؛ بل هو غلط واضح وظلم في التفسير وباطل من القول.

كذلك حين يُخبر الله عن نفسه بـ«إنا» و«نحن» و«أنزلنا» ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] إلى غير ذلك، ليس في هذا شبهة للنصارى القائلين بالتثليث؛ فإن الله سبحانه وتعالى هو العظيم الذي لا أعظم منه، ومن عادة العرب أن تأتي بحرف الجماعة للجماعة وللعظيم، فالعظيم يقول: نحن، وفعلنا، وأنزلنا، وأمرنا، والجماعة يقولون ذلك، وهل هناك أحد أعظم من الله سبحانه وتعالى؟ فهو أعظم الأعظمين جل وعلا، وهو مستحق لهذا التعظيم؛ فإذا قال: «نحن» و«أنزلنا» فليس المراد أن معه شركاء سبحانه وتعالى، حاشا وكلا، فكيف يُترك المحكم الواضح ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] =

.....

= ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك، ثم يُقال: إِنَّ قَوْلَهُ: «أنزلنا» و«بيّنا» و«أمرنا» يدلُّ على أن معه عيسى ومريم؟! هذا من أقبح القبيح، ومن أبطل الباطل، وهكذا ممَّا أحدث أهل الزيغ والريب، فهم يأخذون بالمشبهات ويُفسِّرون على حسب ما أرادوا وَيَدْعُونَ الْمُحْكَمَاتِ لِمَرْضٍ فِي قُلُوبِهِمْ وَزَيْغٍ؛ ولهذا ذمَّهم الله ورسوله وعابهم، وأخبر أنهم أهل الزيغ.

فينبغي عليك يا عبد الله أن تكون على بينة، وأن تُعنى بالآيات المُحْكَمَاتِ، وأن تُفسِّر بها ما اشتبه عليك، فإذا خفي عليك آيةٌ في المعنى فرُدَّها إلى الآيات الأخرى الواضحات؛ حتى لا يبقى اشتباه ويتضح الأمر؛ أما أن تأخذها وحدها على خفاءٍ معناها بالنسبة إليك، وتدع تأويلها بالآيات المُحْكَمَاتِ، فهذا من الزيغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والله أعلم.

فإذا أخذنا بعض الآيات من أولها ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا =

= الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩] وما أشبه ذلك فإنه يتبين لنا بأنها ليست متشابهة.

وأما ما جاء في بعض أوائل السور مثل: ﴿الْقَ﴾، ﴿الْمَصَّ﴾، ﴿صَّ﴾، ﴿تَ﴾، ﴿قَ﴾، فهذا عند الجمع من أهل العلم حروف أنزلها الله لحكمة بالغة، إذا اشتبه علينا معناها لا نفسرها بشيء يخالف القرآن*.

* س: هل التحذير من الذين يتبعون المتشابه ثابت بحديث صحيح؟
ج: نعم هذا ثابت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللهُ، فاحذروهم»^(١).

س: هل التوراة والإنجيل معمول بهما في الوقت الحاضر؟
ج: لا، انتهى حكمهما؛ وذلك: أولاً: لأن اليهود والنصارى غيروا وبدلوا فيهما وحرفوا. ثانياً: لأنَّ شريعة محمد ﷺ ناسخة لكل ما قبلها، فأرسل الله محمداً خاتماً للأنبياء، وشريعته خاتمة للشرائع وناسخة لما قبلها
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] =

(١) أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٥٤٧)، ومسلم: العلم (٢٦٦٥).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

س: يُروى أَنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه جاء بورقة من التوراة،

فلما رآها الرسول ﷺ غضب لذلك، فهل هذا صحيح؟

ج: نعم يُروى هذا، والحديث في سنده ضعف، وفيه أنه ﷺ قال: «لو

كان موسى حياً ما وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(١)، وهو حديث مشهور، لكن

ليس سنده بذلك. ثم إن الآيات القرآنية واضحة، وما جاء فيها كافٍ في

نسخ هذه الأشياء، وكذا الأحاديث النبوية، فإنه فيها أنه ﷺ رسول الله إلى

جميع الناس.

س: عبارة التعظيم «نحن» التي جاء بها القرآن على سبيل التعظيم لله

جل وعلا؛ هل يجوز للمخلوق أن يقول نحو: «نحن ذهبنا»، «ونحن كذا»

وهو مخلوق فرد؟

ج: نعم، إذا لم يُرِدِ التَّكَبُّرَ، أو جاءت على اللسان عَرَضاً من غير قصد

التَّعْظِيمِ فليس فيها شيء.

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٨٧)، والدارمي (٤٣٥).

[إن الدين عند الله الإسلام]

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩﴾
فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسَلَمْتُمْ فَقَدْ أَهْتَكَدُوا ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيٍ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۗ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾
فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ [آل عمران: ١٩-٢٥]. [١٧]

[شرح ١٧] يبين الله جل وعلا في هذه الآيات الكرييات أحكاماً عظيمة، وأخباراً مهمةً فيها إرشاد العباد إلى الخير، وتوجيههم إلى أسباب النجاة، وتحذيرهم من أسباب الهلاك، كبقية كتاب الله عز وجل، فإنه فيه الهدى والنور، وفيه الدعوة إلى كل خير، وفيه التحذير من كل شر في الدنيا والآخرة، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ يوضح سبحانه أن الدين عنده جل وعلا هو الإسلام في الأولين والآخرين، ليس هناك دين آخر، فدين الله واحد هو الإسلام، هو دين آدم، ودين نوح ومن بعده من الأنبياء والمرسلين، وهو دين محمد عليه الصلاة والسلام وأمة.

ولهذا قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي آية أخرى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهو سبحانه رضي للعباد الإسلام ديناً، وأخبر أنه لا يقبل من أحد ديناً سواه، وأخبر أن الدين عنده هو الإسلام.

= والدِّين: هو الطاعة والخضوع والذُّلُّ لله تعالى يكون بالطريقة التي بَعَثَ بها رسَلَهُ، وأنزل بها كِتَابَهُ، ولهذا سماه إسلاماً، وسماه أيضاً بَرّاً وتقوى وهدى وإيماناً.

وَسُمِّيَ هذا الدِّين الذي بَعَثَ اللهُ به الرُّسُلَ إسلاماً؛ لِمَا يتضمَّنُه من الانقياد لله، والذُّلُّ له سبحانه وتعالى، والقيام بأوامره وترك نواهيه، هذا يسمى إسلاماً، لأن الإسلام في اللغة العربية معناه: الذُّلُّ للمُسلِّم له والانقياد له، يقال: أسلَمَ فلان لفلان: إذا انقاد له.

والإسلام عند الله: هو الانقياد لأمره والذُّلُّ لعظمته، فيُسلِّم العبد لله بتوحيده، والإخلاص له، والانقياد لأوامره، وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده. هكذا يكون الإسلام ذلاً وانقياداً للرب عز وجل بطاعة الأوامر، وترك النواهي، وإخلاص العمل لله وحده سبحانه وتعالى، فأدم عليه الصلاة والسلام على الإسلام، وهكذا مَنْ بعدَه إلى أن وُجد الشرك في قوم نوح، ثم كما وقع الشرك في قوم نوح بعبادة الصالحين بعث الله إليهم نوحاً عليه =

.....

= الصلاة والسلام بالإسلام؛ بتوحيد الله، والإخلاص له، والانقياد لأوامره، وأتباع نبيه نوح عليه الصلاة والسلام، وهكذا مَنْ بَعْدَهُ.

فالإسلام في حق كل أمة هو: ما جاء به نبيها من الهدى يسمى إسلاماً، فمن لم يَنْقُدْ لذلك فقد خرج عن الإسلام، فالذين لم يُصدقوا نوحاً قد خرجوا عن الإسلام، والذين عصوا هوداً وصالحاً وشعيباً وإبراهيم ولوطاً قد خرجوا عن الإسلام. فالإسلام هو أتباع الأنبياء فيما جاؤوا به من الشرائع في كل أمة بحسبها، ثم انتهى الأمر إلى خاتم النبيين وأفضل عباد الله أجمعين محمد عليه الصلاة والسلام، فصار الإسلام هو ما بعث الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من الشرائع والأحكام والأصول العظيمة.

فقد جاء ﷺ بما جاءت به الرسل من توحيد الله، والإخلاص له، والإيمان بجميع المرسلين والأنبياء، والإيمان بالآخرة بما فيها من الجنة والنار وغير ذلك، وجاء بشرائع وأحكام هي أكمل من الشرائع التي قبلها، صالحة لزمانه عليه الصلاة والسلام، وصالحة =

= لكل زمان يأتي بعده إلى يوم القيامة، وهي أيضاً لجميع الأمم، لا تخص العرب فهي لجميع الأمم؛ العرب والعجم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، فهذا الدين لهم جميعاً وهذه الشريعة لهم جميعاً، فعليهم جميعاً أن ينقادوا لله، وأن يخلصوا له العمل، وأن يعظموه كما أمر، وأن ينقادوا للشرائع التي جاء بها كتابه ورسوله محمد ﷺ.

فالإسلام في حق هذه الأمة هو: الانقياد لما جاء به نبيها محمد عليه الصلاة والسلام، مع الإيمان بالله وحده، وتوجيه القلوب إليه، وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى حتى يلقي ربه وهو على هذه الحال. فإذا جحد شيئاً مما أخبر الله به في كتابه، أو أوصى به الرسول ﷺ مما هو معلوم من الدين بالضرورة من واجب أو محرم أو مباح؛ خرج عن هذا الإسلام. وهكذا إذا استهزأ به أو سخر، أو استهان أو استحقر، فإنه بذلك أيضاً يخرج من الإسلام، فالإسلام له نواقض تُخرج العبد منه، فهو أعمال وأقوال وعقائد جاء بها الكتاب العزيز، وجاءت بها السنة المطهرة، يجب على كل من عرفها أن يؤمن بها، وأن ينقاد لها، وأن يعظمها وألا يسخر منها أو =

= يستهزئ بها أو يحتقرها أو يكذب بشيء منها، فهذا هو الإسلام.

ولما سُئِلَ النبي ﷺ عن الإسلام؟ فسَّره بالأعمال الظاهرة: وهي الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، ويلتحق بها كل ما شرع الله من الأعمال والأقوال، فهي ملتحقة بأركان الإسلام التي ذكرها الرسول عليه الصلاة والسلام. ويلتحق بذلك أيضاً ما يُسَمَّى إيماناً، فإنه جاء في النصوص الأخرى ما يدل على تسميته إسلاماً، فقد سَمَّى النبي ﷺ الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام وأداء الفروض سَمَاءَ إيماناً، وسمى جميع الدين إيماناً، قال: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة»، وفي رواية: «بضعٌ وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(١)، فجعل الدين كله إيماناً، وجعل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي أصل الإسلام جعلها أيضاً إيماناً، فالإسلام والإيمان: هو توجيه القلوب إلى الله، والاستقامة على ما شرع، محبةً وتعظيماً وإخلاصاً، وأداء الفرائض، وترك المحارم، =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٩)، ومسلم: الإيمان (٣٥).

= والوقوفُ عند الحدود.

بيِّن بعد هذا أن الذين اختلفوا من أهل الكتاب إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، فلما جاءهم العلم من الله جل وعلا تنازعوا واختلفوا؛ لما في قلوبهم من الميل إلى الرئاسات والأطماع وغير ذلك، حتى اختلفوا في الحق، وتنازعوا فيه، وهذا هو عمل اليهود والنصارى؛ تنازعوا واختلفوا على فِرَق كثيرة، فاليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة. ثم جاء العلم والهدى لهذه الأمة، فاختلفت أيضاً وتنازعت حتى صارت على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهذه الواحدة هي التي عملت في الإسلام وانقادت له واستقامت عليه، فهي الفرقة الناجية في الدنيا والآخرة، ثم المنحرفون عن هذا الإسلام وهم الثتان وسبعون فرقة هم أقسام؛ منهم الكافر الذي بلغ الغاية في الكفر بالله، ومنهم من دون الكفر، ولكنه عصى فاستحق الوعيد بالنار.

= وفي الآيات من التوجيه إلى الخير، والدعوة إليه، والتحذير =

= من أعمال الكفرة قتلة الأنبياء، وفيها التحذير من أعمالهم السيئة وكفرهم وضلالهم. وفيها بيان أحوال أهل الكتاب وإعراضهم عن الحق، وأنهم دُعُوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم فأبوا وانحرفوا عن الحق، وزعموا افتراءً على الله أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، إلى غير هذا مما قصَّه الله جل وعلا عنهم في هذه الآيات وفي غيرها.

ففي كتاب الله الهدى والنور والبصائر لِمَن تدبَّره وتعقَّله، وفيه الإخراج من الظلمات إلى النور، وفيه التوجيه إلى أسباب النجاة قولاً وعملاً، والتحذير من أسباب الهلاك قولاً وعملاً، وفقَّ الله الجميع لما يحبه ويرضاه* .

* س: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَطَعْتُ اللَّهَ وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾ [آل عمران: ٢٠]،

كيف يقرأ قوله: ﴿اتَّبَعْنِي﴾ عند الوقف وعند الوصل؟

ج: ﴿اتَّبَعْنِي﴾ يوقف على النون بالسكون، مثل: ﴿أَكْرَمَنِي﴾ [الفجر:

١٥] ﴿أَهْنَنِي﴾ [الفجر: ١٦] وأشباهها، وهذه قاعدة عند القراء، في مثل هذا

إذا لم تكن فيه ياء يوقف بالسكون، أما إذا كان فيه ياء يوقف على الياء =

= الساكنه مثل: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ وما أشبهه.

س: الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هل لهم عدد معلوم؟

ج: كلا، لا أحد يعرف ذلك، أخبر النبي ﷺ أن طوائف يدخلون الجنة

بغير عذاب ولا حساب، وأن منهم مع كل واحد سبعون ألفاً، لكن ليس

لهم عدد محصور، لا يعلم عددهم إلا الله جل وعلا.

[التحذير من موالة الكافرين]

❁ قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْضَرًّا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۗ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ ❁ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَهُ وَمَا عَمِلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لِنُورٍ هَدَيْنَاهُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَظَنِيمٌ ۝٣٣﴾ ❁

[آل عمران: ٢٨-٣٣]. [١٨]

[شرح ١٨] قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ =

= الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧٥﴾ في هذه الآيات الكرييات يبين جل وعلا أنه لا يليق ولا ينبغي لأهل الإيمان أن يُوالوا أهل الكفر بالله؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ فهذا النهي، والنهي يُصرف إلى التحريم. أي: لا يتخذونهم أصحاباً وأصدقاءً من دون المؤمنين، أو يتخذوهم أحبةً وأهل مودة ونصح ونحو ذلك؛ بل يتخذون المؤمنين أصحاباً وأصدقاءً دون الكفرة بالله جل وعلا؛ لأن الكافر لا يؤمن على دينك، ولا يؤمن على مصلحتك، فهو حريٌّ بأن يكون بعيداً منك لا قريباً؛ لأنه ليس على دينك، ومن كان ليس على دينك فهو حريٌّ بالعداء وغمار الشر، والإعانة على كل ما يضر.

قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ هذا وعيد شديد لمن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فليس من الله في شيء، فهو وعيد شديد يفيد الحذر من هذا العمل السيئ.

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ يعني: إلا أن يفعل ذلك المؤمن =

= تُقَاةٌ لَهُ مِنْ جَوْرِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَيَخْشَى شَرَّهُمْ؛ فَيُجَامِلُهُمْ وَيُدَارِيهِمْ مِنْ بَابِ الْمُدَارَاةِ وَاتِّقَاءِ الشَّرِّ، لَا مِنْ بَابِ الْمَحَبَّةِ فِي الْبَاطِنِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْقُلُوبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ جَل وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله يعلم ما في القلوب والضمائر ويعلم مَنْ يواليهم عن محبة وقصد، ومن هو ليس بذلك؛ ويجازيهم على نياتهم.

والموالاتة تصنع الحبَّ في القلوب، ثم ينتج عنها موالاتة بالنصرة والتأييد والمساعدة على المسلمين، والمعاداة تصنع البغضاء في القلب، ثم ينتج عنها ما يجب من مقاطعة ومن جهاد ومن غير ذلك؛ فالموالاتة والمعاداة تكون بالأفعال، وأصل الموالاتة الحب، وأصل المعاداة البغضاء.

فالواجب حبُّ المؤمنين وموالاتهم ونصرتهم على أعدائهم، والواجب بغضُّ الكافرين ومعاداتهم وجهادهم في الله عز وجل حسب الطاقة والإمكان؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿يَتَأَيَّبُهَا =

= الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيْطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ
أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ آل عمران: ١١٧ ﴾، وفي
آية أخرى قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣]، وهذا كله
يبين لنا وجوب معاداة أعداء الله وبغضهم في الله عز وجل، ولو
كانوا آباءً أو إخواناً أو غيرهم من الأقارب، ووجوب محبة أولياء
الله وموالاتهم وإن كانوا بعيدين منك نسباً وقرابة؛ فالإسلام جمع
بين أهله وإن تباعدت أقطارهم وأنسابهم، والكفر يباعد بينهم وإن
تقاربت أنسابهم وأوطانهم.

ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الميراث لمن كان على دين
الإنسان وإن كان بعيداً، وجعل قطع ذلك لمن خالف دينه وإن كان
قريباً، فابنك وأبوك على غير دينك لا يرثانك، وابن عمك:
ومولائك البعيد؛ كابن ابن عمك وابن عم جدك، وأشباه ذلك؛ =

= فأولئك في إرثك وإن كانوا بعيدين، وذلك من أجل الإسلام، حتى ولو لم يكن لك أقارب؛ فإن هذا المال يكون لبيت مال المسلمين، ولا يكون لأولئك الأقارب الذين على غير دينك.

والتَّوَلَّى: هو الانضمام إليهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ ﴾ أي: ينضم إليهم ويكون في معسكرهم، أو ينصرهم على المسلمين، وهذه رِدَّةٌ عن الإسلام؛ ولهذا ذكر العلماء في نواقض الإسلام: مظاهره المشركين ومعاونتهم على المسلمين؛ فإن نصرهم وأعانهم على المسلمين، فهذا هو التولي.

والموالاتة أوسع من ذلك؛ فيجب على المؤمن أن يحذر التولي والموالاتة للكفار، وأن يكون حذراً من هذه الأشياء، وبعيداً منها، وأن يوالي المؤمنين، ويحبهم في الله جل وعلا، يرجو بهذا مرضاة الله سبحانه وتعالى.

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ ومسألة الثقة شيء آخر، مثل مسألة الإكراه، قال الله جل وعلا: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، =

= فإذا أظهر لهم بعض الموافقة لتوقي شرهم وخطرهم، لا عن حبّ لهم، ولا عن موافقة دينهم؛ فهذا شيء آخر غير الموالاة، وذلك من باب التّقيّة أو من باب الإكراه.

ومن هذا ما يؤثر عن أبي الدرداء ذكره البخاري رحمه الله في بعض تراجمه تعليقا^(١): «إنا لنكثير في وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنهم» نكشر أي: نتبسم أو نضحك لهم وقلوبنا تلعنهم؛ لبغضهم في الله عز وجل؛ لكن نتقيهم؛ إما لسلطانهم، وإما لغير هذا من الأسباب التي توجب اتقاء شرهم، حتى لا يضرروا المسلمين، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمْ تَقْنَةً﴾ ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: أن البهرج والشيء الذي ليس له حقيقة لا ينفعكم؛ فالله يُحذّركم نفسه أن تُظهروا خلاف ما تُبطنون، وأن تشاركوا أهل النفاق في إظهار الحق وأنتم على غيره، فالله يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا =

(١) علقه البخاري، باب المداراة مع الناس، قبل الحديث (٦١٣١).

= فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ وهذا فيه التحذير من محبة أعداء الله وموالاتهم، والأمر ببغض أعداء الله ومُعاداتهم، وأن هذا هو دين الله الذي بعث به رُسُله وأنزل به كتبه، ولهذا قال في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فدل ذلك على أن هذه العداوة وهذه البغضاء أمدها دخولهم في الإيمان، فإذا دخلوا في الإيمان؛ انتهت هذه العداوة والبغضاء، وصاروا من جملة الأولياء والأحباب في الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٥﴾ هذا يبين لنا أن جميع أعمالنا سوف تُحْضَر يوم القيامة، وسوف تُقدَّم للعبد في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كل شيء قد كُتِبَ وَضُبُّهُ، =

= فهي محصورة ومحفوظة، فتقدّم لأهلها يوم القيامة، فأهل الخير يرون في ذلك ما يسرهم وما يحمّدون الله عليه جل وعلا، وأهل السوء إذا رأوا ما قدّموا لأنفسهم من الشر، فإن كلّ واحد يودّ لو أن بينه وبينهم أمداً بعيداً، حتى يسلم من معرّته ومن عاقبته الوخيمة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾؛ فأنّت اليوم في غاية الإمكان، وفي غاية القدرة من أن تتعد عن هذا الشيء الذي تودّ أن يكون بينك وبينه أمداً بعيداً، وذلك بالجد في طاعة المولى سبحانه وتعالى والاستقامة على أمره، والتوبة عن ممارسة الذنوب والمعاصي، والاستمرار في ذلك، فأنّت اليوم في دار العمل، ويوم القيامة ليس بدار عمل؛ ولكنها دار الجزاء ودار الحساب، فإذا كنت تريد النجاة والعافية: فاعمل اليوم في طرق النجاة، وفي أسباب السلامة قبل أن يأتي يوم ليس فيه حيلة ولا تنفع فيه معذرة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ =

= ومن رحمته ورأفته بالعباد: أنه بين لهم ما يجب عليهم وما يحرم عليهم، وخذّرهم نفسه سبحانه وتعالى، فهذا من رحمته وإحسانه؛ حيث أُنذِر وبيّن وأوصى وأمر ونهى؛ حتى لا يقول قائل: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وما عَلِمْنَا، وما أُمِرْنَا، وما نُهِنْنَا؛ فقد جاء البشير وجاء النذير وجاء البيان؛ فلا يلومن لائم إلا نفسه إذا قَصُرَ وأعرض وغفل.

ثم يقول بعد هذا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الآية عظيمة، وهي تسمى آية المحنة؛ لأن بعض الناس ادعى محبة الله وهو على غير الطريق، فامتحنهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد، أو يا أيها الرسول للناس: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فدل ذلك على أن الدليل والبرهان على صدق المحبة لله هو اتباع النبي محمد ﷺ؛ فمن كان صادقاً في حبه لله اتبع رسوله ﷺ، وانقاد لما جاء به من الهدى في الأقوال والأعمال والعقيدة، وأما الدعاوى الطويلة والكلام الكثير؛ الذي ليس له حُجَّةٌ ولا بُرْهانٌ يدل على الصدق؛ فإنه لا =

= يُجْزَى عَنْ أَهْلِهِ شَيْئاً، فلا بد من بيان، ولا بد من برهان بالعمل وهو أتباع الرسول ﷺ في الأقوال والأعمال، والبعد عما نهى عنه قولاً وعملاً، والاستقامة على ذلك حتى تلقى ربك وأنت على ذلك.

هذا هو الدليل على حبك لله عز وجل، أن تستقيم وتثبت على ما جاء به نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، وأن تستمر على ذلك حتى تلقى ربك، وأن تبعد عما نهى عنه؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴿[الأحقاف: ١٣-١٤]، فإذا قال: رَبِّيَ اللَّهُ، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أو قال: أنا مسلم أو ما أشبه ذلك، فالدليل على صدق ذلك هو الاستقامة على طاعة الله ورسوله، بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوف عند الحدود، وأما إذا كانت دعوى من =

= دون دليل، ومن دون حجة من الفعل؛ فتجده يخالف أمر الله، ويرتكب محارم الله، ويتأخر عن فرائض الله سبحانه وتعالى.

ثم أكد ذلك بقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى أن من أعرض عن الله
وعن طاعة الله ورسوله فهو من الكافرين، والله سبحانه وتعالى لا
يحبُّه، فالدليل على صدق المحبة لله هو اتباع الرسول محمد ﷺ،
وطاعة أوامر الله ورسوله، وترك نواهي الله ورسوله، فمن أعرض
عن ذلك، وتابع الهوى والشيطان؛ فليس بصادق في دعواه حبَّ
الله ودعواه الإسلام.

ثم بيّن الله جل وعلا أنه اصطفى من عباده آدم ونوحاً وآل
إبراهيم وآل عمران، واصطفاهم يعني: اختارهم من بين عباده؛
فالله يصطفى من الملائكة ومن الناس من يشاء سبحانه وتعالى؛ فقد
اختار آدم عليه الصلاة والسلام وجعله أبا البشر، وهداه ووفقه
ومنَّ عليه بالتوبة من زلَّته، ثم اصطفى أيضاً نوحاً من ذريته،
وجعله أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وأنجاه الله من =

= الطوفان، ثم اصطفى ما شاء من الأنبياء، إلى أن اصطفى نبي هذه الأمة عليه الصلاة والسلام، فهذه أشياء خص الله بها مَنْ يشاء سبحانه وتعالى؛ فله الخيار، وله الخيرة جل وعلا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] من بني آدم ومن غيرهم من الملائكة ومن البلاد؛ كما اختار مكة، وجعلها محلَّ عبادته، ومحلَّ قبلة عبادته، واختار المدينة، وجعلها محلَّ مهاجرِ الرسول ﷺ، فالله يصطفي من يشاء سبحانه وتعالى* .

* س: رواية أبي الدرداء (إنا لنكثِر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم)

هل هو مرفوعٌ، أم من كلام أبي الدرداء؟

ج: من كلام أبي الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه.

س: إذا مرَّ أحدنا في الطريق على النصارى - وهم موجودون الآن في

الوقت الحاضر - هل نُضَيِّقُ عليهم كما في حديث النبي ﷺ؟

ج: معنى الحديث: أن تمشي في وسط الطريق؛ حتى يمشوا على أطرافه،

لكن إذا خالفت النظام فلا؛ حتى لا يحدث التصادم؛ أما إذا كان الطريق

واسعاً فتأخذ وسط الطريق، وتجعل لهم الأطراف، وهكذا الماشي إن

=

استطاع ذلك.

= س: ما الحكم إذا سلّم النصراني أو اليهودي؟

ج: يُرَدُّ عليه بـ «وعليكم»، مثل ما قال الرسول ﷺ.

س: فإن قال النصراني أو اليهودي: (السلام عليكم) كاملة؟

ج: لا يزيد على «وعليكم».

س: قوله عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾، هل لهذا حدٌّ؟

ج: هذا على من أكره؛ إما بسوطهم أو بسلطانهم أو قدرتهم، كقُطَاعِ

الطريق وأشباههم.

س: هل يجوز لعن اليهود والنصارى؟

ج: نعم، يجوز لعنُ اليهود والنصارى؛ لكن لعنُ المُعَيَّن، كأن تقول:

فلان بن فلان، هذا محلُّ نظر بين أهل العلم؛ أما لعن اليهود والنصارى -

بشكلٍ عام - فقد فعله النبي ﷺ، فقال عليه السلام: «لعن الله اليهود

والنصارى»^(١)، وقال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]،

ويجوز الدعاء لهم بالهداية؛ كما قال النبي ﷺ: «اللهم اهدِ دَوْسًا وَاثَّتِ

بِهِمْ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: الجناز (١٣٣٠)، ومسلم: المساجد (٥٣١)

(٢) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٢٩٣٧)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٥٢٤).

[عظمة قدرة الله تعالى في قصة

زكريا ويحيى عليهما السلام]

❁ قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۗ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ۗ وَآذُكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٣٨-٤١]. [١٩]

[شرح ١٩] يبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عِظَمَ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّهُ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ، فَيَكُونُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. =

= فزكريا عليه الصلاة والسلام لما رأى ما رأى من الرزق الذي يأتي في غير وقته لسيدتنا مريم فيسألها: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا ط قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ط إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وجاء في تفسير هذه الآية - فيما ذكروا في هذا المقام - أنه كانت توجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فتأتيها أرزاق تُساق إليها في غير أوقاتها المعتادة، وهنالك رأى من قدرة الله عز وجل ما رأى في إحسانه سبحانه إلى مريم، وسياقه لها بعض الأرزاق التي ساقها إليها في أوقات تخالف العادة.

قال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨] أي: انتبه لهذا الأمر، وهو أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وليس يُعجزه أن يرزقه ولداً على كبر سنه، وعلى كبر سن زوجته، فهو قادرٌ على كل شيء سبحانه وتعالى، كما هو قادرٌ على سوق الأرزاق إلى مَنْ يشاء من عباده في الأوقات غير المعتادة.

وهو سبحانه قادر أيضاً على أن يرزق الولد مع كبر السن وعقم الزوجة، ولهذا قال جل وعلا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ =

= قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨] وعند ذلك رزقه الله جل وعلا الولد، وتقبل دعوته ويسر له ابنه يحيى عليه الصلاة والسلام.

لما بشرته الملائكة بذلك استنكر ذلك واستغرب، كيف يكون له ولد مع كبر سنه، ومع كون امرأته عاقراً عقيماً لا تلد، قد بلغت الكبر عتياً، فبين الله سبحانه وتعالى له أنه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء جل وعلا، فطلب آية تكون علامة على أن هذه البشارة سوف تحصل، فبين الله سبحانه الآية - أي: العلامة على أن ما بشره به سوف يحصل - وهذه الآية: ألا يكلم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ أي: لا يكلم الناس الكلام المعتاد، ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ يعني: إلا إشارة، بغير كلام ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَأذْكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران:

٤١] فمن آيات الله عز وجل العظيمة أن جعل لسانه يُعقل عن الكلام المعتاد، فلا يستطيعه، لكنه يُسبِّح ربه ويذكره كثيراً بلسانه =

= المعتاد، فهو معقول عن الكلام المعتاد، ولكنه مطلق في ذكر الله وتسييحه وتهليله سبحانه وتعالى، وهذه من الآيات الدالة على أن المطلوب سوف يحصل، وأن الله جل وعلا هو الذي وعده به، فهو من عنده وليس من عند غيره، وأنه حقٌ ووعدٌ صدق، فالذي قَدَرَ على سَوِّقِ الأرزاق في غير أوقاتها، وأعطى إبراهيم - الشيخ الكبير - ولداً من سارة مع كونها عجوزاً عقيماً كبيرة، فرزقهم الله إسحاق عليه السلام، وهكذا حصل بيحيى بن زكريا، فوُلِدَ مع كبر سن زكريا، وزوجته عاقر، فربك على كل شيء قدير سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وكذلك طهر مريم وصانها وهداها، وقد استنكرت أن يرزقها الله ولداً من غير أن يمسه بشرٌ، ومن غير أن تكون بغياً أو زانية، فقول: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] سبحانه وتعالى. فكل هذه من آياته جل وعلا الدالة على قدرته العظيمة، وأنه سبحانه إذا أراد شيئاً فلا رادَّ له، فإنه هو مَنْ يعلم سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

= وفي هذا حَقُّ العباد في اللجوء إليه، والضرعة إليه، وسؤاله سبحانه ما يهمهم، وما يحتاجون إليه، وما فيه صلاحهم، ونجاتهم، وأن يحسنوا الظنَّ به، وأن يعلموا أنه على كل شيء قدير، وأنه بكلِّ شيء عليم، وأنه الناصر لأوليائه، وإن كثر عددُ خصومهم، وإن عظمت قوة خصومهم، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يقدر أن يهزم الجُندَ الكثير بالجند القليل، ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وذكر لهم من آيات عيسى عليه السلام الدالة على صدق رسالته من إحيائه الطير بإذن الله، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، وإخباره لهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم، ستة أشياء ذكرها لهم للدلالة على صدقه:

أولها: أنه عليه الصلاة والسلام، يخلق كهيئة الطير، أي: يأتي بأشياء ويصنعها كصفة الطير، ثم ينفخ فيها، فتكون طيراً بإذن الله، وقومه يشاهدون ذلك.

وكذلك: إبراء الأكمه والأبرص، وهما مرضان خطيران ليس =

= من شأن الأطباء علاجهما؛ والأكمه قيل في تفسيره: هو الذي وُلد ضريراً ليس له بصر، وقيل: الأكمه هو الذي ذهب بَصْرُ عَيْنِيهِ ذهاباً لا حيلةً للأطباء فيه. والأبرص: هو الذي به بَرَصٌ ويصعُبُ على الأطباء علاجه. وبكل حال فهي من آيات الله سبحانه وتعالى لصدق نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام، فجعل الله من آيات عيسى عليه الصلاة والسلام ودلائل صحة رسالته: إبراء هذا المرض، وإزالته، فالله عز وجل يقول للشيء: كن، فيكون، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا ابْتَلَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أBRَصٌ وَأَقْرَعٌ وَأَعْمَى، وَأَزَالَ اللَّهُ عَنِ الْأَبْرَصِ بَرَصَهُ، وَعَنِ الْأَقْرَعِ قَرَعَهُ وَرَدَّ عَلَى الْأَعْمَى بَصْرَهُ بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»^(١).

كذلك إحياء الموتى، وإخبارهم بما يأكلون في بيوتهم، وما يدخرون، وغير ذلك من الأمور التي ليس عند عيسى خبر منها من جهة المعتاد، ولكنه من خبر الله سبحانه وتعالى، فعيسى لا =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم: الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

= يستطيع أن يعلم شيئاً من أحوالهم الداخلية إلا بمُخبرٍ منهم، أو بإخبار الله عز وجل، فالأشياء التي لا يخبرونه بها ولا يخبره بها أحد، يخبره الله جل وعلا بها كي يخبرهم بذلك، وهذه أيضاً من الدلائل على أنه رسول الله، وليس ولداً لله.

وقد انقسمت اليهود والنصارى اتجاهه، فاليهود نفت وأنكرت نبوته ورسالته عليه الصلاة والسلام، وزعمت فيه الزعم الخبيث، وأنه ولد بغِيٍّ - قاتلهم الله أنى يؤفكون.

والنصارى بضلالهم وجهلهم غَلَّوا فيه، وجعلوه ابن الله، أو أنه الله، أو ثالث ثلاثة، لعنهم الله جميعاً.

ولا يتم إسلام أحد منهم ولا يصلح حتى يتبرأ من قول الطائفتين الملعونتين: اليهود، والنصارى، ويأخذ بقول الوَسَط، وهو أنه عبدُ الله ورسولُه، خلقه الله من أنثى بدون ذكر، قال الله له: كن، فكان، ولهذا قيل له: كلمة الله، كما قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِبِحَيِّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]

أي: بعيسى . وعيسى ويحيى ابنا خالة، أمهما أختان، فأم يحيى =

= وعيسى أختان، ولذلك فإنه يقال لهما: ابنا الخالة، وزكريا زوج خالة عيسى عليه السلام.

ففي هذا كله دلالة على عظيم قدرة الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء.

وفي هذا حث العباد على اللجوء إليه، وسؤاله، وعدم استعظام الأمور بالنسبة إليه، وأنه يقول للشيء: كن، فيكون. فينبغي للعاقل أن يسأل ربه كل شيء، وأن يضرع إليه في صلاح قلبه وهدايته واستقامته على الخير والهدى، وأن يضرع إليه في سلامته من كل سوء، وعافيته من مضلات الفتن، كما يسأله الغنى من الفقر، والنصر على الأعداء، والحماية من كيد الأعداء، إلى غير ذلك مما يهّم العبد.

وفيه أيضاً تشجيع العباد على الجهاد في سبيل الله، وألا يَضْجَرُوا من قلة عددهم، وكثرة خصومهم، بل عليهم أن يستعينوا بالله، وأن يستنصروه سبحانه وتعالى، وأن يَصْدُقُوا في ذلك، وسوف ينصرهم الله ويعينهم؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القادر على =

= كل شيء، فلو قال للعدو: موتوا ماتوا، لكنه ابتلى هؤلاء بهؤلاء،
﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]؛
ليتبين صدق الصادقين، وكذب الكاذبين، وجهاد المجاهدين،
وتأخر المتأخرين، ويتبين من يرغب في أسباب النجاة، ومن يريد
الدرجات العالية، ومن يتصبر على ما يرضي الله، ويقرب لديه من
الكسالى والكذابين والمنافقين وأشباههم.

ولو أن كل داع إلى الله، أو كل رسول، أو كل مؤمن أعطي ما
يريد، وكل كافر مُنْع مما يريد، لكان الناس كلهم أمة واحدة،
ولكانوا على دين الله جميعاً، ولكن بالابتلاء والامتحان انقسم
الناس، والله المستعان*.

س: هل رزق الله سبحانه وتعالى لمريم وهي تحتسب، معناه أنها توكلت
على الله حق التوكل، مصداق قول الرسول ﷺ في الحديث: «لو أنكم
تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خِصاصاً وتروح
بطاناً»^(١)؟

(١) أخرجه الترمذي: المزارعة (٢٣٤٤)، وابن ماجه: الزهد (٤١٦٤).

= ج: على كل حال فلها أسباب ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، فهي من جهة صدق إيمانها وقوة يقينها وقيامها بأمر الله، صدَّقها الله بأمر ليست في قدرتها، ساقها الله إليها، فالتوكل الصادق من التقوى.

س: هل من توكلها أن تُرزق بغير حساب؟

ج: إن التوكل من جهة التقوى، فالمتوكلون هم من المتقين، والله يقول جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فالمتقي الله يُرزق ويُصلح أمره، وليس معنى ذلك أنه يعطل الأسباب، فليس تعطيل الأسباب من التقوى، ومريم ليست ممن يعطل الأسباب، ولكن الله يسوق لها أشياء بغير أسبابها؛ ليبين فضلها وكرامتها، وليعلم الناس أن الأمور بيده جل وعلا، وأنه سبحانه وتعالى متى أراد شيئاً كان، ولهذا في حديث عمر رضي الله عنه، مرفوعاً: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً، وتروح بطاناً». فقله ﷺ: «تغدو خصاصاً» أي: آخذةً بالأسباب في طلب الرزق، و«خصاصاً»: جِيعاً، تذهب تطير هاهنا وهاهنا على الجبال والأودية والشعاب، تطلب الرزق، ثم ترجع «بطاناً» =

= أي: شباعاً في آخر النهار، قد رزقها الله عز وجل، وأعطاهما حاجتها. ومن الأخذ بالأسباب عند الطير: هو أن تطير تطلب الرزق، فلا تبقى في أوكارها.

وأنت كذلك من جملة الأخذ بالأسباب لك أن تخرج من بيتك، وأن تطلب الرزق حسب الطاقة، من البيع والشراء والعمل بالصناعات وفي الملاحة، أو في التجارة، أو بأي شيء مما أباح الله جل وعلا، فلا بد من هذا مع القدرة. وإذا عجز الإنسان عن ذلك، ساق الله رزقه إليه بقدرته سبحانه وتعالى، فإنه يرزقه من حيث لا يحتسب، إما بوجود مَنْ يهدي إليه، وإما بوجود أسباب أخرى يترتب عليها رزقٌ له وهو في البيت، فهو جل وعلا على كل شيء قدير.

[قصة عيسى عليه السلام]

❁ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ ﷻ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٥]. [٢٠]

[شرح ٢٠] فقد ذكر ﷺ شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، وشأن الذين كفروا به، وشأن الذين اتبعوه، وبين ﷺ أن الأنصار - وهم الحواريون - أجابوه وتابَعوه، وأنه بعد ما ظهر من بني إسرائيل الكفرُ به والمعاداة له وإنكار نبوته رفعه إليه جل وعلا وكفاه شرهم، ووقاه بلاءهم.

= يقول جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ يعني: لما علم عيسى عليه السلام من بني إسرائيل الكفر وعدم الإيمان به - فإن اليهود عادوه، وكفروا به، وزعموا أنه ولد بغيّ، ولم يصدقوا بما جاء به من الهدى عليه الصلاة والسلام، وكفروا بذلك مكابرة منهم؛ فعليهم لعائن الله المتابعة.

فلما رأى ذلك منهم ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني: من ينصر دين الله ويتابعني في نصر دين الله، فقال الخواريون - وهم الأنصار والأتباع الصادقون - : نحن أنصار الله، والخواري هو الناصر، ومنه الحديث الصحيح في قصة الزبير، «لكل نبي حورائي وحواريّ الزبير»^(١) يعني: الناصر الخاص المتفاني في النصر، ومنه الأنصار - الأوس والخزرج - الذين أوا المسلمين، ونصروهم، وجاهدوا في سبيل الله، وصدقوا فيما عاهدوا الله عليه رضي الله =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٤١٥).

.....

= عنهم وأرضاهم.

وكل من ناصر الدين في أي مكان، وفي أي زمان؛ فهو من الأنصار في المعنى؛ وليس خاصًا بالأوس والخزرج، ولا بالحواريين في عهد عيسى، ولكن كل من نصر الحق وجاهد في سبيله؛ فإنه في الحقيقة من الأنصار، وله الفضل العظيم في ذلك، وكلما اشتدت الغربة، وقَلَّ من يساعد على الحق؛ صار فضل الأنصار أكثر وأكمل، فمن عادى الأنصار وأبغضهم، فذلك علامة نفاقه، ومن أحب الأنصار، ونصرهم، وأيدهم، وسار في ركابهم فذلك علامة الإيمان، ومن ذلك الحديث الصحيح، «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»^(١).

وإن كان هذا في الأنصار المعروفين وهم الأوس والخزرج ولكنه في المعنى يعمهم، ويعم غيرهم في كل زمان وفي كل مكان، فمن الإيمان حب من نصر دين الله، وموالاته، وإعانتته، ومن علامات النفاق بغض من نصر دين الله، وعاداه. في كل زمان وفي =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (١٧)، ومسلم: الإيمان (٧٤).

= كل مكان.

وفي هذا حث وتحريض على نُصْرَةِ دين الله، والتأسي بالأخيار، والحذر من صفات الأشرار الذين من شأنهم إنكار الحق والكفر به، ومتابعة الهوى والشيطان، كاليهود وأشباههم ممن عرف الحق وأنكره، وابتغى العيوب لأهل الإيـمان، وأثر حب العاجلة.

فَمَنْ جحد الحق لهوَى في نفسه؛ فإنه مشابه لليهود في هذه الحادثة، والله أعلم، ومن نصر الحق وأيده وجاهد في سبيله، وآوى أهله، فقد شابه الأنصار من الأوس والخزرج، ومن قبلهم من أنصار دين الله؛ فله من الفضل، ومن الأجر بحسب ما قام به من نصر دين الله جل وعلا.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا مَنَّ عَلَىكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ﴾ دلالة على أن الله قبض عيسى إليه ورفعته إليه، وقد جاءت الأحاديث صريحة في ذلك متواترة مستفيضة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، بأنه رفع عيسى لما تعدى عليه بنو إسرائيل، واستشاروا عليه ملكَ زمانهم، وأرادوا قتله حتى خلصه الله من =

= شرهم، وأنجاه من بين أظهرهم برفعه إليه ﷺ.

وقوله: ﴿مُتَوَفِّيك﴾ يعني: قابضك، والتَّوَفِّيُّ هنا ليس هو الموت ولكنه القبض، ويقال: توفى نصيبه من كذا، واستوفى نصيبه من كذا، يعني: قبضه، ومنه: توفى المكيال، أي: قبض المكيال، فالتوفي والاستيفاء بمعنى القبض.

وقد فسّرت هذه الكلمة بثلاثة معان: بالنوم، وبالموت، وبالقبض الذي هو الرفع، وأصح الذي قيل فيها وفي أمثالها أنه القبض، يعني: قبضه إليه ونقله إليه ﷺ؛ فالله قبضه إليه ونقله إليه، ثم يليه القول بأنه وفاة النوم، فأخذته سنةً من النوم عند رفعه، ثم أفاق منها بعد الرفع عليه الصلاة والسلام.

أما القول بأنه الموت، فهو قول ساقط لا وجه له، وهو مما يتشبث به القاديانيون وأشباههم ممن زعم أن عيسى مات، وأن القادياني هو خليفته وهو الذي جاء بعده يكمل النبوة، فهذا من الكلام الساقط الذي لا وجه له.

فالمقصود أنه عليه الصلاة والسلام رفعه الله إليه كما قال: =

.....

= ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [سورة النساء: ١٥٨] فهو مرفوع إليه،
 وسُمِّيَ الرفع تَوْفِيًّا؛ لأنه من القبض، وهو قبض الشيء وإحرازه،
 فالله جل وعلا قبضه إليه، ورفعته إليه، وليس المراد الموت؛ ولهذا
 أخبر في الآية الأخرى:

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ
 لَهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٥٧] وقد ذيلها الله ﷻ بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا
 حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٨].

فالمقصود أنه رُفِعَ إلى الله جل وعلا، وصار في السماء، وقد
 جاءت الأحاديث الصحيحة واضحة في أنه مرفوع، وأن الرسول
 عليه الصلاة والسلام لقيه في السماء الدنيا مع يحيى بن زكريا،
 وأخبر في الحديث الصحيح، أنه رُفِعَ إلى السماء، وأنه ينزل في آخر
 الزمان، وأن وجوده في آخر الزمان علامة من علامات الساعة،
 قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُك بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا
 صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف آية: ٦١].

فالمقصود أنه ينزل في آخر الزمان، وقد رُفِعَ لما تُعَدِّي عليه =

= وأراد اليهود قتله، فرفعه الله وخلصه منهم، وسوف ينزل في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة، وسوف يقتل الدجال، ثم يموت بعد ذلك، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [سورة النساء آية: ١٥٩].

فالموت لا بد منه وسوف يقع ويحصل؛ لكنه بعد نزوله، وبعد حكمه بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام فترة من الزمن، وقد جاء في بعض الروايات أنها سبع سنين، وجاء في روايات أخرى أنها أربعون سنة.

فهو سينزل - عليه السلام -، وسوف يحكم بشريعة محمد ﷺ، ويقود الناس للجهاد، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام أو السيف؛ كما جاءت بذلك الأخبار عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهذا هو الحق في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام.

والحق فيه أنه مثلها قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أن آدم خلق من تراب، وأوحى الله =

= إليه، وجعل له شريعة يسير عليها، فعيسى عليه الصلاة والسلام كذلك، خلق من أنثى بلا ذكر، فكما أن آدم لا يُستنكر ولا يمكن التكذيب بأنه خلق من تراب من دون أب ولا أم؛ بل من تراب، فعيسى لا يُستنكر أيضاً أن يكون من أنثى بلا ذكر؛ لأن هذا أسهل وأيسر من وجود آدم من تراب - بلا أب ولا أم -.

والله جعل الناس أقساماً أربعة، وبوجود عيسى تَمَّت القسمة:

القسم الأول: وُجد من تراب بلا أب ولا أم.

القسم الثاني: خُلق من ذكر بلا أنثى، وهي حواء خلقها الله من آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

القسم الثالث: خُلق من أنثى بلا ذكر على عكس حواء؛ فحواء من ذكر بلا أنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكر، بقدرته تعالى خلقها بقوله: كن، فكان.

القسم الرابع: بقية الناس من ذكر وأنثى كما قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. =

= هذه حال الناس في هذه الأقسام الأربع، وبوجود عيسى
تَمَّت القسمة الرباعية، وربُّك على كل شيء قدير ﷻ، وهذه من
آياته الدالة على قدرته العظيمة، وأنه يقول للشيء: كن، فيكون.

وأَيُّ شيء يُستنكر من هذا؟! فليس وجود الذكر لحمل الأنثى
أمراً مُتحتماً؛ بل قدرة الله ﷻ شاملة له، وفي قدرته سبحانه أن
يُوجد أنثى بلا ذكر، وذكراً من أنثى، ويوجد أنثى من ذكر، وذكراً
بلا أنثى، كل هذا وقع منه ﷻ، كما وقع في قدرته جل وعلا إيجاد
إنسان بلا ذكر ولا أنثى؛ بل من التراب وهو آدم أبو البشر عليه
الصلاة والسلام، ثم البقية من ذكر وأنثى؛ فالله على كل شيء قدير،
وهو بكل شيء عليم.

وفي هذا دلالة أيضاً على أن أتباع عيسى هم المنصورون إلى
يوم القيامة، وأتباعه - كما قال أهل العلم - هم أتباع محمد عليه
الصلاة والسلام، وهم الذين صدقوه وآمنوا بأنه رسول الله عليه
الصلاة والسلام، وأنه عبد الله ورسوله وأنه خُلق من أنثى بلا ذكر،
وأنه لا أب له؛ فهم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، والطائفة =

= القليلة التي تابعته عليه الصلاة والسلام، ثم أوذيت، هؤلاء هم أتباعه عليه الصلاة والسلام، فاتّباع عيسى هم الذين تابعوا محمداً عليه الصلاة والسلام، وجعلوا وجوده آية من آيات الحق، ودلالة من دلالات الحق الذي بعث الله به نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام، وفي الآيات فوائد معلومة لمن أرادها* .

* س: هل هناك مكان معين لدفن عيسى عليه السلام؟

ج: يُروى في بعض الأحاديث ولكن في صحته نظر أنه يدفن في الروضة النبوية عليه الصلاة والسلام؛ لكن لا أعلم في ذلك شيئاً ثابتاً؛ إنما يقال هذا؛ فقال ابن كثير وغيره؛ لكن ما أعلم سنداً متصلًا أنه سوف يدفن في الروضة النبوية، وهذا لا يُعتمد عليه، والله أعلم.

س: وهل هناك مكان معين لدفن المهدي؟

ج: فيه أحاديث كثيرة منها الضعيف، ومنها الموضوع؛ ويوجد أيضًا عدّة أحاديث صحيحة جيدة، وسوف يخرج المهدي كما جاء في الأحاديث، ويملا الأرض قسطًا وعدلاً، بعدما ملئت جورًا.

والأشهر والأكثر من أهل العلم على أنه يكون قبل عيسى عليه الصلاة والسلام - هذا هو المشهور عند أهل العلم من قول الجمهور - أنه يخرج =

= ويوجد قبل عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يُطَلَّب ويُسعى له حتى يُبَایع، وقد جمع في هذا جمع من أهل العلم أحاديث، ومنهم أبو داود رحمه الله، جعل له كتاباً مستقلاً في كتاب «السنن»: (كتاب المهدي)، وجمع غيره في ذلك أحاديث المهدي عليه الصلاة والسلام، فُجِّع فيه أحاديث؛ لكن مجموعها فيها الضعيف، وفيها الصحيح، وفيها الحسن، وفيها الموضوع. من ذلك حديث ابن مسعود وحديث علي، وحديث أم سلمة، أحاديث جيدة في هذا الباب، في قصة المهدي.

س: وما معنى الحديث الذي فيه: «يصلحه الله ﷻ في ليلة»؟

ج: يعني: يتم الله أمره، ويقضي أمره، ويُبَایع له في ليلة، وهذا أحسن ما قيل فيه.

س: يوجد بعض من أنكر هذا الحديث وضعفه؟

ج: كل بحسب علمه، وصار أنه خفي عليه الأمر، مثل من قد ينكر بعض الأحاديث الأخرى الصحيحة، وصار أنه يُرَدُّ عليه، ويقال له: قد غلط وأخطأ.

س: إن الذي أنكره وضعفه من العلماء المعاصرين.

ج: من أنكر هذا من أهل العلم، يقال له: إنه غلط، أو تأوله على أنه من قول الرافضة، أو من أقوال الشيعة، وهذا غلط أكبر وأقبح. =

= يقال: المهدي شخص من بيت محمد ﷺ، يقال له محمد بن عبد الله يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه؛ فهو من أهل البيت وهذا ثابتٌ عن النبي ﷺ.

أما زمان خروجه، فالأشهر أنه قبل عيسى، وجاء في بعض الأحاديث أنه أمير الناس عند خروج عيسى عليه الصلاة والسلام، ولكن ليست الأحاديث في تحديد أنه قبل عيسى بوضحة، وفيها حديث لا بأس به رواه الحسن عن أبي أسامة، وهو غير شاهد له ولكن ليس في القوة والجودة مما يُعتمد عليه.

فالحاصل والأقرب، أنه قبل عيسى، وأنه أمير الناس عند نزول عيسى وأن الحال في زمانه - مثل ما قال النبي ﷺ - تستقيم ويملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً. ولكن كون ذلك أمراً قطعياً قبل عيسى، فيه نظر، فقد يكون بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، لكن الأغلب والأكثر من أهل العلم على أنه قبل عيسى، بعد تغير الأحوال مثل وقتنا الآن تتقارب الآن لأن الأرض ملئت الآن جوراً وشرّاً وكفراً وضلّالاً في غالبها، ولم يبق إلا قليل، فالزمان مقارب أن يكون وجوده قريباً على ما قاله الجمهور، ثم بعده يخرج الدجال، فينزل عيسى عليه السلام إلى قتاله.

س: وما الأرجح من مكوث عيسى أربعين سنة أو سبع سنوات؟ =

= ج: الأقرب سبع سنوات، والحديث في صحيح مسلم^(١).

س: وكم يبقى حكم المهدي؟

ج: الله أعلم، لا أعرف، وأذكر هنا أخونا الشيخ عبد المحسن العباد رئيس الجامعة الآن؛ فقد جمع مقالاً جيداً وافياً طُبع في مجلة الجامعة، جَمَعَ غالب ما في الباب من الأحاديث، وكذلك أخونا التويجري في إتحاف الجماعة، فقد جمع أشياء كثيرة في هذا الباب يمكن أن يستفاد منها فائدة كبيرة، وما ورد في ذلك يمكن لطالب العلم أن يتتبعها ممن خَرَجَها؛ فيستفيد من هذا فائدة كبيرة بالتدبر.

س: ما حكم رفع العَلَم الذي يرمز إلى صلب المسيح موازياً للعلَم

الذي كُتِب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله؟

ج: هذا ممنوع ولا يجوز؛ فالظاهر أنه يستفاد منه أنه نوع من التصديق؛

فلا ينبغي مثل هذا ولا يجوز، لا يجوز رفع هذا العلم، اللهم إلا إذا كان

رفعه الأقرب في دفع شر أو ضرر، فيمكن؛ لكن ينبغي في هذا عدم

المجاملة، وينبغي عدم رفع شيء فيه الصلب؛ لأن الصلب باطل ﴿وَمَا

قَالُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ﴾ [سورة النساء: ١٥٧].

[من مواقف أهل الكتاب]

❁ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِءَ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَاتَانِمْ هَتُولَاءِ حَجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِءَ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِءَ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِثَآئِتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا
 إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا
 أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضِلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ [آل عمران: ٦٤ - ٧٤]. [٢١]

[شرح ٢١] يبيّن الله سبحانه وتعالى كثيراً من حال أهل الكتاب ودعواهم ما ليس لهم به علم، وتلوّنهم في المضارّة لأهل الإيمان والتلبس عليهم، وكنتم الحق الذي عندهم؛ ليضلوا الناس عن الهدى، ويلبسوا عليهم حقهم بباطلهم، وهذا شيء معروف من أعمال أهل الكتاب ولاسيما اليهود؛ لأنهم أكثر الناس في هذا فساداً وضلالاً وتليساً.

ففي هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»؛ فإن الواجب على جميع أهل الأرض أن يكونوا فيها سواء، وأن يعبدوا =

= الله وحده، وأن يَتَبَرَّؤُوا من عبادة ما سواه جل وعلا.

ولهذا كتب بهذه الآية النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل عظيم الروم يدعوه إلى معناها، وهو الإجابة إلى توحيد الله والإخلاص له، وترك ما عليه أهل الكتاب من الشرك بالله: من عبادة غير الله، من عبادة العُزير أو المسيح أو الأَحبار والرُّهبان وغير ذلك، ودعاهم لأن يوحّدوا الله وحده ويَتَبَرَّؤُوا من الشُّرك به جل وعلا، وأن يُسلموا وُجوههم وأعمالهم له سبحانه وتعالى، ولكن القوم أبوا وعاندوا واستكبروا وتابَعوا الهوى.

وكان النبي ﷺ يقرأ في سُنَّة الفجر في الركعة الأولى قوله سبحانه: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الركعة الثانية بهذه الآية: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، وما ذاك إلا لأن هاتين الآيتين فيهما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الإلهية؛ ففي الآية الأولى: توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به وبرسله وبكتبه وبجميع ما أنزل على الأنبياء، وعدم التفريق بينهم، والانقياد لما جاؤوا به. وفي الثانية: =

= التصريح بالبراءة من عبادة غير الله ومن الشرك بالله عز وجل، وأن نكون نحن وغيرنا سواء في ذلك، نعبد ربنا وحده وننتبرأ من عبادة ما سواه سبحانه وتعالى، ولا نتخذ من دونه أرباباً نعبدهم معه ونطيعهم في غير طاعته سبحانه وتعالى.

ثم يبيّن بعد ذلك مُحاجّة اليهود والنصارى في الحق، وزَعَم كل طائفة أن إبراهيم منها، وأنها أولى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويبين جل وعلا أن أولى الناس بإبراهيم أتباعه من أيّ جنس كانوا، فأولى الناس بإبراهيم وبالأنبياء هم أتباعه على الحقيقة، فأتباع إبراهيم وأتباع النبي محمد ﷺ هم أولى الناس به، سواء كانوا من أقاربه أو من قبيلته وعشيرته، أم كانوا من أناس أو طوائف آخرين. فالمقصود هو أتباع الحق وإيثاره على ما سواه، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأولى الناس بالأنبياء هم أتباعهم والمقرّون بما جاؤوا به من الشرائع، والمجتمعون على الحق الذي دعوا إليه، وأولى الناس بمحمد عليه الصلاة والسلام، هم =

= أتباعه وأنصاره سواء كانوا من العرب أو من العجم، فمن كان تابعاً لشريعته معظماً لها وسار عليها فهو أولى الناس به ﷺ.

وفيه بيان أن اليهود - بقية أهل الكتاب - يحرصون على إضلال الناس، وعلى إغوائهم، وعلى إدخال الشرك عليهم؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فَدَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ يَكْفُرُوا آخِرَ النَّهَارِ وَيَقُولُونَ: مَا وَجَدْنَا مَا عِنْدَهُمْ مَّنَاسِبًا لِلْحَقِّ أَوْ مُوَافِقًا لَهُ، حَتَّى يَقُولُوا: جَرَّبْنَا وَنَظَرْنَا فَمَا وَجَدْنَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي ادَّعَاهُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي الْإِضْلَالِ وَالتَّشْكِكِ وَهَذَا مِنْ ضَلَالِهِمْ وَكَيْدِهِمْ، أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِهِ، ثُمَّ فِي آخِرِ النَّهَارِ يَكْفُرُونَ وَيَقُولُونَ: مَا وَجَدْنَا الْمَطْلُوبَ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ.

والمقصود من هذا: التحذير من طرائقهم ومن أخلاقهم ومن صفاتهم الذميمة، وأنه ينبغي للمؤمن أن يحذر صفاتهم الذميمة وأخلاقهم المنحرفة، وأن يكون مع الحق أينما كان، ويثبت عليه، =

.....

= وأن يَحذَرُ الباطل وأهلَه في أَيِّ وَقْتٍ كان وفي أَيِّ مكانٍ كان.
والله المُستعان.

[الميثاق المأخوذ على الأنبياء]

❁ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۗ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۗ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۗ قَالَ فَاشْهَدُوا ۗ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢) أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ ۗ وَلَهُ ۗ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۗ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ [آل عمران: ٨١-٨٦]. [٢٢]

[شرح ٢٢] في هذه الآيات بيان أخذ الله الميثاق على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أن كل رسول يدرك رسولاً يأتي بعده أنه ينصره ويؤمن به ويؤيده، هكذا من أولهم إلى آخرهم، وأنهم قد اعترفوا بذلك وأقرّوا والتزموا به - عليهم الصلاة والسلام - وهذا يبيّن أنه جل وعلا أوصاهم بهذا وألزمهم به، وأخذ عليهم الميثاق بذلك، وفي هذا التعاون على البر والتقوى، والتعاون على إظهار الحق والتواصي به، حتى يكون الناس على بينة وبصيرة، مما تأتي به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن ذلك أخذ الميثاق على الرسل: إن بُعث مُحَمَّدٌ ﷺ وهم أحياء أن يصدّقوه ويؤمنوا به، قال علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم: إن الله أخذ على كل نبي لئن بُعث مُحَمَّدٌ وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنَّه.

وهذا في جميع الأنبياء، ولكن محمداً ﷺ - وهو خاتمهم وإمامهم وخطيبهم إذا اجتمعوا - أولاهم بأن يؤخذ الميثاق على غيره بتصديقه والإيمان به؛ لأنه الرسول الخاتم لجميع الأنبياء =

= والرسل، ولأنه مبعوث إلى عامة الناس ولجميع الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وهذه من خصائصه - عليه الصلاة والسلام - أن الله بعثه إلى الناس كافة، إلى الأحمر والأسود، إلى الجن والإنس، إلى العرب والعجم، فَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الْكَرَامَةُ وَالسَّعَادَةُ وَالْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ، وَمَنْ حَادَّ عَنْ سَبِيلِهِ فَهُوَ النَّارُ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ! وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَا أَبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(١).

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى أن الإسلام هو دين الله، وأنه لا ينبغي لأحد أن يجحد عنه فيقول: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُوتُ﴾، فهو استفهام إنكار، وأن الواجب على جميع الثقلين الالتزام بدين الله وما جاء به الرسل، فهو سبحانه المالك القاهر الذي أسلم له كل شيء، يعني: انقاد له كل شيء، وذُلَّ له كل شيء، يقال: أسلم له، يعني: انقاد له وذل له، وسُمِّيَ دين الإسلام إسلاماً لأنه ذُلَّ لله، =

(١) أخرجه البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٠).

= وانقياداً له، وطاعة لأوامره، وترك لنواهيه سبحانه وتعالى، فهذا الملك العظيم القاهر القادر على كل شيء المالك لكل شيء، هو المستحق أن يُعبد ويُعظَّم، ويطاع أمره سبحانه وتعالى.

ثم يأمر نبيه ﷺ بأن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ إلى آخره، وفي آية البقرة: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، فهذا واجب على النبي ﷺ وعلى الأمة أن يؤمنوا بما أنزل الله على الأنبياء الماضين وعلى نبينا محمد ﷺ، وأن ينقادوا لذلك ولا يكذبوا بذلك، ويسلموا لذلك ولا يفرقوا بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، لهذا قال جل وعلا: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وفي آية البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وفي آل عمران إسقاطها، والمعنى واحد، من باب المعطوف على ما قبله، =

= وفي آية البقرة «إلى» وفي آية آل عمران «على» وكل ذلك معناه صحيح، أنزل القرآن إلى كذا، وأنزل على كذا، ووجه التعديدية بـ«على» أنه أنزل على هذا النبي العظيم وعلى الأنبياء قبله، ووجه «إلى» أن هذا التنزيل انتهى إلى هؤلاء الرسل كما انتهى إلى نبينا محمد ﷺ.

فالمعنى: أن الله جل وعلا يأمر الأنبياء ومنهم نبينا محمد ﷺ، ويأمر أمته أن ينقادوا لهذا الوحي المنزل، وأن لا يفرقوا بين الرسل، وأن يكونوا خاضعين لذلك، وبهذا يقال لهم: إنهم مسلمون، يعني: منقادين لهذا الأمر بالتسليم والإيمان بأنه حق من عند الله عز وجل والإذعان له، كذلك نقاد لما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ ونذل له ونعتمد عليه، ونسير عليه ونتمسك به حتى نلقى ربنا عز وجل.

وهذا هو واجب الأمة كلها، أن تسلم لأمر الله، وأن تنقاد له، وأن تعظم أمر الله ونهيه، وأن تصدق الرسل جميعاً، وأن تؤمن بما جاؤوا به من عند الله، وأنهم جاؤوا للدعوة إلى توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به وبالآخرة وبالجزاء والحساب والجنة =

= والنار، كل ذلك جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.
 ثم جاء خاتمهم وأفضلهم نبينا محمد ﷺ بالذي جاء به الأنبياء
 من قبله من توحيد الله والإخلاص له، وجاء بشريعة أكمل في كل
 شيء، صالحة لجميع العالم في زمن حضارتهم وبدائوتهم، وضعفهم
 وقوتهم، ومرضهم وصحتهم، واجتماعهم وافتراقهم، وغير ذلك
 في جميع أحوالهم، فهي صالحة لكل زمان ومكان حتى تنتهي هذه
 الدنيا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين
 سبحانه وتعالى.

والمقصود أن الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ بأن يؤمن بما أنزل على
 الأنبياء وبما آتاهم، وأن ينقاد لذلك وأمته، وهكذا يجب على الأمة
 ما وجب على نبيها، فهي أمرت أيضاً بأن تؤمن بما جاءت به
 الرسل، ومن كذب واحداً من الرسل كنوح، أو هود أو صالح...،
 فقد كذب الجميع، وهكذا من كذب محمداً عليه السلام، من اليهود
 والنصارى فقد كذب الجميع. ولهذا لما بعث الله نبيه محمداً ﷺ ولم
 يؤمن به اليهود والنصارى، صاروا بهذا كفاراً بكفر آخر، كفرة =

= جديداً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، وإن كانت اليهود قد كفرت أيضاً بعبسى عليه الصلاة والسلام، وأحدثوا من الإحداث ما أحدثوا، والنصارى كذلك، فكفروا بتثليثهم، وهكذا كان عدم الإيمان بمحمد ﷺ كفرٌ آخر - كفر مستقل - نعوذ بالله من ذلك.

وفيه بيان أن الإسلام هو دين الله، ومن ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالإسلام هو دين الله للجميع من آدم إلى يومنا هذا.

فالإسلام في حق نوح وأمه وما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام من الهدى والدين، والإسلام في حق هود وقومه كذلك، وما جاء به هود عليه الصلاة والسلام من الهدى والتشريع، هو توحيد الله والإخلاص له والإيمان بما جاء به، وهكذا صالح، وإبراهيم، ولوط عليه السلام، وهكذا مَنْ بَعَدَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فالإسلام في حقهم هو الإخلاص لله وتوحيده والانقياد لما جاء به =

= النبي المبعوث إليهم والتسليم له.

ثم ختم الله الرسل بمحمد ﷺ، فكان الإسلام في حق أمته وتصديقه وتصديق من قبله من الرسل والانقياد للشريعة التي جاء بها والتسليم لها والتمسك بها - هو الإسلام الذي بعث به الله نبيه محمداً ﷺ كما بعث به الأنبياء قبله، فدينهم واحد كما جاء في الحديث: «الأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١)، فدينُ الرسل والمرسلين كلُّهم واحدٌ، وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبما جاءت به رسلُهُ عليهم الصلاة والسلام، وإن تنوعت الشرائعُ، قال جلَّ وعلا: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالشرائع تتنوع بالأحكام والفروع، لكن الأساس واحد وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبما جاءت به رُسُلُهُ عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بالآخرة والجنة والنار، والإيمان بكل ما أخبر به الرُّسُلُ عليهم الصلاة والسلام، مما كان وفيما يكون وفيما =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم: الفضائل (٢٣٦٥).

= بقي من الزمان، وبعد قيام الساعة، فكل ذلك حق لا بد منه، فمن ابتغى والتمس غيره، وآمن بغير هذا الدين، فإنه لا يُقبل منه ذلك، وهو مع هذا خاسر هالك في الدنيا والآخرة نسأل الله العافية.

وبهذا يُعلم أن دين الله واحد من عهد آدم إلى يومنا هذا، وهو دين الإسلام، دين الانقياد لله، دين التعظيم لله، دين الذل لله، ويسمى إيماناً لأنه إيمان بالله ورسله، وتصديق لله وما جاءت به رسله، فهو إيمان قولي وعملي.

وكذلك يُسمى بَرّاً لما فيه من الخير والأعمال الصالحة، والتوجيه إلى الخير، والأمر بما فيه الرشاد والهدى، والنهي عما يضر. ويُسمى تقوى، لأنه يقي أهله عذاب الله وغضبه، فهو تقوى؛ لما فيه من اتقاء المحارم وأداء الفرائض، واتقاء أهلها عذاب الله وغضبه.

وكذلك سُمي هُدى وصلاً لما فيه من التوجيه إلى الخير، والاهتداء إلى الحق، وإصلاح الأخلاق والعقائد، فهو دين الله، وهو الإسلام، وهو الإيمان، وهو الهدى، وهو التقوى، وهو البر. =

= ثم يَسْتَبْعِدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِدَايَةَ مَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ الْبَيَانِ وَبَعْدَ الْوُضُوحِ وَبَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَبَعْدَ مَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ وَعَرَفَهُ - يَسْتَبْعِدُ هِدَايَةَ هَذَا، ثُمَّ يَمُنُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِأَنَّهُ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَتَابَ، فَسَيَقْبَلُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَدَخَلَ فِيهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ فَهُوَ حَرِيٌّ بِعَدَمِ التَّوْفِيقِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَاهْتَدَى وَتَابَ إِلَيْهِ، فَاللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا. وَهَكَذَا مِنْ كَفَرٍ وَزَادَ كُفْرَهُ ثُمَّ تَابَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَقَبْلَ أَنْ يُغْرَغَرَ، فَاللَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ؛ فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَمَا دَامَتْ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَمَا دَامَ يَعْقِلُ، فَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ، وَإِذَا خَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ وَغُرَّغَرَ بِالرُّوحِ، وَغَابَ عَنِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَصَارَ فِي لِحْظَاتِ الْمَوْتِ وَخُرُوجِ الرُّوحِ، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا تُقْبَلُ مِنْهُ التَّوْبَةُ، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ* .

* س: كيف يسلم الإنسان كرهاً؟

ج: يسلم كرهاً بكونه ذالاً لله قهراً عليه، فالكافر الذي لا يؤمن بالله ذالاً لعظمة الله بالموت وما يصيبه من المكارهِ والمضار وغير ذلك، رغم أنفه، =

.....

= ولا حيلة له في الخروج من ذلك، فهو بلسان حاله وبلسان مقاله إذا عقل ولم يعاند - وإذا عاند فالأمر معلوم! - ولسان حاله ينادي بأنه خاضع لله وبأنه يتصرف فيه، وأنه لا يخرج عن الله وعن تدبيره وقضائه سبحانه وتعالى.

س: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، هل يعني أن التوبة غير مقبولة إلا إذا توفّر هذان الشرطان؟

ج: إن جحد الحق فلا بُدَّ أن يُبيّن توبته، فمن غير بيان الحق لا تكفي التوبة، ولا تُقبل منه حتى يبيّن ما جحد وما أنكر، نسأل الله السلامة.

[نداء لأهل الإيمان]

❁ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ
هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ
تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً
فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ
مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۗ فَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَصَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٧]. [٢٣]

[شرح ٢٣] هذا نداء لأهل الإيمان؛ ليستقيموا على تقوى الله، ويعتصموا بحبله سبحانه وتعالى، وسبق أن ذكرنا أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره كله توجيه إلى الخير، وكله دلالة على أسباب النجاة، وكله تنبيه على ما فيه صالح العبد ونجاته وعاقبته الحميدة، وتحذير له مما يضره في العاجل والآجل.

ولهذا أمر الله سبحانه بالتعقل والتدبر، وأوصى بذلك؛ لأن هذا الكتاب العظيم لم يُنزل لمجرد الحفظ أو التلاوة، ولكنه أنزل للعمل والاستفادة، فمن أعرض عنه هلك، ومن أقبل عليه واستفاد منه، فيتدبره ويتعقله ليعمل به وليستفيد منه في العاجل والآجل، وليوجه الناس إليه، فيحصل بذلك الخير العظيم والعاقبة الحميدة.

وإنما هلك من هلك بالإعراض عن هذا الكتاب العظيم، وعدم تحكيمه، وعدم التدبر له، وعدم الاستفادة مما فيه من الخير العظيم، وإنما نجا من نجا، وسعد من سعد، وفاز من فاز بالإقبال =

= على هذا الكتاب العظيم علماً وعملاً، وكان حظُّ الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من هذا الكتاب هو الحظ الأوفر، فكانت علومهم منبثقةً من هذا الكتاب العظيم مع ما حفظوا من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فجدير بطالب العلم أن يُعنى بهذا الكتاب وأن يعصَّ عليه بالنواجذ، وأن يكون جليسه وسَميره، وأن يُعنى بالتعقل والتدبر في كل وقت حسب الطاقة والإمكان، يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فسر أهل العلم «حَقَّ تَقَاتِهِ»: بالتقوى حسب الطاقة، أي: اتقوا الله حسب ما تُطيقون وما تستطيعون، فإنه سبحانه لا يكلف نفساً إلا وُسْعَهَا﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فالمؤمن يؤدي واجباته من خلال فهمه لهذا القرآن كما أمره الله، بعناية وإقبال وإخلاص وصدق، حتى يُطبِّقه كما شرعه الله جل وعلا حسب طاقته وإمكانه، فالصحيح على حسب حاله، والمريض على حسب حاله، والغني على حسب حاله، والفقير على حسب حاله، وهكذا في السفر والإقامة والشدة والرخاء، وغير ذلك.

= ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] المعنى:

استمروا على التقوى، واثبتوا عليها حتى يأتي الموت وأنتم على ذلك، وهذا من باب الأخذ بالأسباب، فالتوفيق بيد الله جل وعلا فهو الموفق الهادي، وهو المثبت، ولكن مَنْ أخذ بالأسباب هو حَرِيٌّ بالتوفيق، فالمعنى: استقيموا واستمروا على الخير واثبتوا عليه، واسألوا الله الثبات عليه، وخذوا بالأسباب التي هي من أسباب الثبات عليه حتى تلقوا الله عز وجل.

والتقوى: هي تعظيم الله، وتعظيم حُرُماته، ومراقبته، والإقبال عليه، والإخلاص له بأداء الفرائض وترك المحارم، والوقوف عند الحدود عن رغبة وإيمان وعن خوف وعناية وإخلاص. فالمتقي لله هو الذي يعظّم حرّمات الله، والذي يخاف الله ويرجوه، والذي يؤدي فرائضه ويحذر محارمه عن خوف وعن إيمان وعن تقوى وعن إخلاص لا عن مجرد عادة، بل هو يندفع إلى هذه الأمور عن دافع قلبي وعن إخلاص ورغبة فيما عند الله.

= ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. =

= «حَبْلُ اللَّهِ»: فُسِّرَ بدينه، وُفْسِرَ بالإسلام، وُفْسِرَ بالقرآن، وكلها في المعنى متوافقة، فمن تَمَسَّكَ بالقرآن فقد تَمَسَّكَ بالدين، ومن تَمَسَّكَ بالدين فقد تَمَسَّكَ بالقرآن، ومن تَمَسَّكَ بالإسلام فقد تَمَسَّكَ بالقرآن، فالإسلام هو الدين. والمقصود: الحثُّ والتحريض على التمسُّكِ بما جاء به المصطفى ﷺ من الهدى وعدم الحيد عنه يميناً أو شمالاً، بل يلزم دين الله ويستقيم عليه ولا يجيد عنه.

ثم من أعظم المهتمات: الاجتماع وعدم التفرق، فإن التفرق هو سُلْمٌ لأعداء الله، وهو جندٌ لهم على المسلمين، فمن أعظم الأسلحة للعدو: تفرُّق المسلمين وتنازهم واختلافهم، حتى يطمع فيهم العدو وحتى يضرب بعضهم ببعض، كما يُقال عنهم: «فَرَّقْ تَسُدْ». أما الاجتماع والتعاون والصدق في ذلك والتكاتف فهو جندٌ للمسلمين على عدوهم، وهو من أسباب نصرتهم على عدوهم ومن أسباب نجاحهم، بل إن من أعظم الأسباب للنجاة والسعادة والفوز بالكرامة والنصر والعاقبة الحميدة: الاتحاد على الحق، والتعاون في نصره، والتكاتف في ذلك، والحذر من أسباب الفشل =

= التي قد يصاب بها بعض الناس حتى يضيع الحق بينهم.

ثم يُذَكَّرُ عباده بنعمة الله عليهم، فكان الناس على فرقة واختلاف في الجاهلية، وتناحرٍ وحروبٍ دائمة عند أتفه الأسباب وأقلها، ولا سبياً بين سُكَّان المدينة: الأوس والخزرج الذين كانت بينهم الحروب المتكررة، حتى ذهبت فيها الأرواح الكثيرة، فالله جل وعلا جمعهم بهذا الخير ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فصاروا إخواناً مُتَحَابِّينَ في الله، متعاونين على البر والتقوى، أنصاراً للحق، دعاةً للهدى ببركة هذا الخير، وهذا الإسلام الذي دعا إليه رسول الله ﷺ.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يبين سبحانه الآيات والحجج والبراهين ليهتدي من قدر الله له الهداية، وليستفيد من طلبه الحق.

ثم حذّر من الاختلاف وبين حالة المختلفين، وما يحصل لهم =

= من الكفر والضلال واسوداد الوجوه، وحالة المتبعين للحق والقائمين به والثابتين عليه، وما يحصل لهم من السعادة وبياض الوجوه والفوز بالجنة والرحمة، هكذا تكون العواقب، مَنْ استقام على أمر الله وثبت على الحق فله العاقبة الحميدة، وهو مَن يَبَيِّنُ وَجْهَهُ يوم القيامة، ويفوز بالرحمة والسعادة، ومن كفر بالله وأعرض عن دينه، وكذب فعاقبته النار وسوادُ الوجوه، نعوذ بالله من ذلك.

ثم يبيِّن - جل وعلا - الأمر والنهي والداعي إلى الله، والمفلح على الحقيقة، فيقول جل وعلا: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فدعاة الخير إن أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر هم أهل الفلاح على الكمال، فدل ذلك على نقص مَنْ تساهل بهذا الأمر ولم يستقم عليه، وأنهم ليسوا من أهل الفلاح الكامل، وأن أهل الفلاح الكامل هم الدعاة إلى الخير عن إخلاص، وعن إيمان، وعن صدق، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. =

= والله يَصِفُ أوليائه بصفات متعددة في مواضع كثيرة، فتارةً يصفهم بأنهم أهل الإيمان والعمل الصالح، وتارةً يصفهم بأنهم أهل التقوى، وتارةً يصفهم بأنهم أهل الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتارةً يصفهم بأنهم أهل الفلاح الذين فعلوا كذا وفعلوا كذا من الأعمال الصالحة ودعوا إلى الخير وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فأنت إذا تأملت كتاب الله وَجَدْتَهُ يُنَوِّع صفات المؤمنين ويُعَدِّدها؛ حتى يُلاحظها المؤمن، وحتى يجتهد في أن يطبِّق أعماله وأقواله على مقتضى هذه الصفات، فإذا رأى في موضع الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جاهد نفسه في ذلك حتى يكون من أهل هذه الصفات الثلاث، وإذا رأى في موضع آخر الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر جاهد نفسه في ذلك حتى يكون من أهل الإيمان ومن أهل العمل الصالح ومن أهل التواصي بالحق والصبر عليه، وإذا رأى في موضع آخر أن أولياء الله هم أهل التقوى وهم أهل القول السديد: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، لاحظ ذلك وحفظ لسانه وجاهدته حتى لا يقول =

.....

= إلا خيراً، وإذا رأى في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، جاهد نفسه في
 الصدق في أقواله وأعماله، وهكذا، وفق الله الجميع.

[فضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم]

❁ قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَكْفُرُوا يَوْمَهُمُ الْآذَانُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا يَجْعَلِ مِنَ اللَّهِ وَحْبَلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴿١١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿١١٣﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٤﴾ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٥﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل

عمران: ١١٠-١١٤]. [٢٤]

[شرح ٢٤] يُبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَالُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَفَضْلَهَا عَلَى =

= غيرها من الأمم، بسبب إيمانها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فيقول جل وعلا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، والمعنى: أنكم أحسنتُم إلى الناس وأخرجتموهم من الظلمات إلى النور، وصبرتم على أسباب نجاتهم، فلهذا كنتم خير الأمة، والخيرية مبنية على هذه الأسس التي بيّنها سبحانه، وهي الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن كان بهذه الصفة فله من هذه الخيرية، وهو من هؤلاء الممدوحين، ومن تخلف عنها فاته من المدح، وفاته من الخير بقدر تخلفه، وبقدر نقص إيمانه، وبقدر نقص أمره بالمعروف، ونقص نهيه عن المنكر.

فكلما كان حظ المؤمن من هذه الصفات أكمل، صار حظه من الخيرية أكمل، وكلما كان حظه من هذه الصفات أنقص، كان حظه من الخيرية أنقص. وفي هذا تشجيع لأولي الألباب وحثُّ لهم على هذه الصفات، وهي الاستقامة في الإيمان؛ لأن الإيمان إذا أُطلق شمل الإيمان القولي والعملي، وشمل عمل القلب وعمل اللسان =

= وعمل الجوارح، والإيمانُ يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي عند أهل الحق.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان، ولكن نصَّ الله عليه لعظم شأنه، وإلا فهو من الإيمان، بل من أعظم شعب الإيمان، ولكن لما كان أمره عظيماً والمصالح المترتبة عليه عظيمة خصَّه الله بالذكر، وهذا من سنة الله في كلامه جل وعلا، يخص بعض الأعمال الصالحات من بين الإيمان للتنبيه على عظم شأنها. وهذا كثير في كتاب الله جل وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، فالعمل الصالح داخل في الإيمان، وقد نبه عليه ليُعلم عظم شأنه وأنه لا بد منه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من ذلك الإيمان والعمل الصالح، ولكن نصَّ عليهما لعظم شأنهما، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فالقول السديد من التقوى ومن الإيمان، ولكن نصَّ عليه لعظم شأنه؛ لأن =

= حفظ اللسان من أهم مُهَمَّات الإيمان والتقوى، وكذلك قوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر من باب تعظيم شأن هذين الأمرين، وأنها من أهم المهام، وإن كانا داخليين في الإيمان، وداخليين في العمل الصالح، لكن لهما شأن ينبغي أن يراعى وأن يُعتنى به.

ثم قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان؛ تنبيهاً على عظم شأنها وما يترتب عليها من المصالح العامة للمجتمع، وفي سورة «براءة» وسورة «المؤمنون» قدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: ٧١]، فقدمها لعظم شأنها، وهذا بلا شكّ يُوجب على المؤمن العناية بهذا الأمر، وأن يجعل هذا الخلق من أعظم أخلاقه ومن أهم أخلاقه، وهو خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخفى ما يترتب على =

= ذلك من الخير العظيم والمصالح الكثيرة في المجتمعات الإسلامية في كل مكان، ولا يخفى أنه من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولا يخفى أنه من الدعوة إلى الله عز وجل.

ثم قال بعده: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني: لو آمنوا والتزموا الحق، وأتبعوا النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، لكان خيراً لهم، ولكن غلب عليهم الشر والهوى، وإيثار الباطل، والتعصب لما هم عليه من الباطل، ولهذا بقوا على كفرهم وضلالهم، ولا سيما اليهود، فهم أشد الناس، شر الطائفتين، والنصارى أليّنُ منهم، وأقرب إلى الحق، وإن كان كل منهم ضالاً ومغضوباً عليه، ولكن اليهود أشدّ شراً وأعظم خطراً، وغضبُ الله عليهم أظهر؛ لعلومهم الحق وعدم انصياعهم له وعملهم به.

ثم بين صفاتهم - صفات اليهود - وأنه ضربت عليهم الذلة الظاهرة والمسكنة، فهم أذلة وفقراء وإن ملكوا الدنيا، وقلوبهم مليئة بالفقر، وطلب المال والحرص عليه والجشع، والفقر ليس فقر =

= المال، كما في الحديث الصحيح: «ليس الغنى غنى العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١)، فمن لم يَغْتَنِ قلبه ولم تغتن نفسه فهو فقير، وإن ملك الدنيا، وهكذا شأن اليهود، فهم أشد الناس حرصاً على الدنيا، وأفقر الناس من جهة القلوب، ولو ملكوا ما ملكوا من الدنيا.

ثم يبين أسباب ضلالتهم وما حصل لهم من الذلة والمسكنة والغضب من الله جل وعلا؛ بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء وعصيائهم واعتدائهم، فهم أصحاب نسب رفيع، من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولكن لا يغني نسبهم شيئاً إذا تخلفت الأعمال، فالأنساب لا تنفع أهلها إذا تخلفت أعمالهم، كما في الحديث الصحيح: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢)، وكما في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَنكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقد سقط بهم خلقهم الخبيث وانحرفهم عن الهدى، وأما نسبهم فعظيم، ولكن لم يلتزموه، بل حادوا عن النسب الرفيع، لأن مقتضى النسب الرفيع التخلُّق =

(١) أخرجه البخاري: الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم: الزكاة (١٠٥١).

(٢) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

= أخلاق من نُسبوا إليهم والسير على منهاجهم، فإذا انحرفوا عن ذلك وحادوا عنه فلن ينفعهم ذلك النسب.

ثم بين أنهم ليسوا سواء، ففيهم الطيب وفيهم الخبيث، ولكن الغالب عليهم الخبيث، قد اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهكذا النصارى اختلفت على اثنين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهكذا هذه الأمة اختلفت على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، فأهل الكتاب كذلك فيهم الطيب والخبيث، والخبيث أكثر.

وقد قال تعالى في هذه الطائفة السليمة الطيبة: ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ يعني: على الحق، ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يعني: التهجد والعبادة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فهذا يبين أن فيهم أحياناً، وأن فيهم أهل استقامة وأهل إيمان، ثم انحرفوا بعد ذلك، ولا سيما بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنهم أنكروه إلا =

= من شاء الله، وكذبوه وزعموا أنه ولد بغى، فكفروا بذلك واستحقوا غضب الله وعقابه، لأنكارهم الحق وهم يعلمون.

ثم جاءت بَعْتُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فأنكروا ذلك أيضاً وكذبوه، فغضب الله عليهم، فباؤوا بغضب على غضب، وصاروا من أكفر الناس وأضلهم، وإن كانوا في الجملة هم أكثر الناس بعد هذه الأمة أتباعاً لموسى عليه الصلاة والسلام، مع ما جرى منهم من انحرافات كثيرة، ولكن اتبع موسى عليه السلام خلق كثير، وانحرف منهم كثيرون، ثم انحرف بقيتهم إلا ما شاء الله بعد بعث عيسى عليه السلام، ثم انحرف أكثرهم، بل كلهم إلا قليلاً بعد بعث محمد ﷺ، فإنه ما آمن من اليهود إلا العدد اليسير جداً، وأكثرهم عاند الحق وكفر بمحمد ﷺ وما جاء به من الهدى، وهذا يدل على خبث طَوَيْتِهِمْ، وأن العنصر الذي بقي فيهم عنصر الخبث وعنصر جحد الحق وعنصر الحسد، هذا هو الذي غلب عليهم - نعوذ بالله - إلى يومنا هذا، نسأل الله العافية، والله أعلم.

وهنا شيء ينبغي التنبيه عليه، وهو أن مَنْ انْحَرَفَ عَنِ الْحَقِّ، =

.....

= وحسد أهل الحق، وترك الحق، مع العلم، فقد شابه اليهود تشابهاً ظاهراً - نعوذ بالله - وما أكثر أشباههم من المنتسبين إلى العلم في جحد الحق وإنكاره، وفي الحسد ومخالفة الحق وهو يعلم، فهذه أخلاق موجودة قلَّ مَنْ يَسْلَمُ منها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[التحذير الشديد من اتخاذ

الكفرة بطانة للمؤمنين]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۗ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتِئِنَّ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۗ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠]. [٢٥]

[شرح ٢٥] في هذه الآيات الكريمة تحذير شديد من اتخاذ الكفرة بطانة للمؤمنين، وبيان سوء عاقبة ذلك، وأن الكفرة لا يألون المؤمنين خبالاً، أي: فساداً وضرراً وحرصاً على كل ما يكون فيه =

= شُرُّ عَلَيْهِمْ وَبِلَاءٍ.

ولهذا يقول سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ
مِن دُونِكُمْ﴾ أي: الكفرة، فالذين دون المؤمنين هم الكفرة، ولهذا
قال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يُبَيِّنُ الأسباب التي من أجلها جاء
النهي، وأن أعداء الله لا يألون المسلمين خبالاً، أي: نقصاً وضرراً
وإيذاءً وإدخالاً للسوء عليهم، وما ذاك إلا لأن الدين غير الدين،
فالدين يُخَالِفُ الدينَ، والعداوات التي تتعلَّق بالدين هي أشدُّ
العداوات، كما يقول الشاعر:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى مَوَدَّتِهَا

إِلَّا عَدَاوَةٌ مِّنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

فهم يعتقدون أنك على باطل، وأنت ضدهم، ولهذا لا يألون
خبالاً لأهل الإيمان بإدخال السوء عليهم وتربُّص الدوائر بهم، وربما
مالؤوا الأعداء عليهم وخامروا الأعداء عليهم عند أدنى سبب.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، ما: مصدرية، أي:
وَدُّوا عَنَتَكُمْ؛ أي: وَدُّوا كُلَّ مَا يَشُقُّ عَلَيْكُمْ. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ =

= مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴿٤٨﴾ أي: ما يظهر من فلتات اللسان، والكلمات التي قد يقولونها إذا آمنوا، أو يقولونها فيما بينهم؛ فكل ذلك يدل على شدة العداوة وقصد السوء بالمسلمين.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ﴿٤٩﴾ أي: ما تخفي صدورهم من العداوة والبغضاء وقصد السوء بالمسلمين أكبر مما يظهر ويبين من الألسنة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ ﴿٥٠﴾ أي: الدلائل والحجج ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أي: إن كان هناك عقل يميز الضار والنافع، والخير والشر، والهدى والضلال، والمصلحة والمفسدة.

ثم بين - جل وعلا - بعد ذلك بقوله: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ ﴿٥٢﴾ أي: أنتم المسلمين قد تحبون أولئك المنافقين المشركين؛ لما قد يظهر منهم من نصيح، ويزيفون من عطف وعناية، وهم كاذبون، ولا سيماً أهل النفاق، فإن أهل النفاق شرهم أعظم من الكفار المعلنين، فهم يظهرون من المحبة، ويظهرون من أصل الخير والمواساة والإحسان ما يضر المؤمنين، وما يغرنا بهم أنهم أولياء، وأنهم أحباب، وأنهم ليسوا أهل نفاق، ولكن الحقائق غير ذلك. =

.....

= ﴿هَاتَيْتُمْ أَزْوَاجًا لِتُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ فهذا هو شأن الكفرة،
 مهما أحبهم المؤمنون وأظهروا لهم المودة، سواء كان ذلك عن نفاق
 من الكفرة أو كان عن نقص من المؤمنين وعن ضعف؛ لأن العدو
 به شيء يخشونه، أو لغير ذلك من أسباب الجهل.

ثم قال: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: الكتاب الذي نزل
 على محمد ﷺ، هنا الكتاب أي: جنس الكتاب، أي: جنس ما نزل
 على الأنبياء، فبعض أهل الكتاب يؤمن بجميع الكتب التي نزلت
 على جميع الأنبياء، ومن جملتها التوراة والإنجيل المنزّلان على
 موسى وعيسى، أما هؤلاء فلا يصدّقون بما جاء به محمد ﷺ ولا
 يؤمنون به، واليهود لا تؤمن بالإنجيل أيضاً، فهم وأنتم على
 شقاق واختلاف.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ هذه من صفات أهل النفاق، يبين
 - جل وعلا - في هذا الكلام من يتظاهر بالنفاق، فالمسلمون
 يُحِبُّونهم لظاهر ما ادّعوا من الإسلام والأخوة الإسلامية الإيمانية،
 = ولكن الواقع خلاف ذلك.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا لِلَّهِ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فأهل الكفر والنفاق هذا شأنهم، فلا يليق بالمؤمنين أن يأمنوهم ولا يولّوهم الأمور التي يُحشى منها الشرّ على المسلمين، بل مهما أمكن فصلهم ويعدّهم عن المؤمنين وعدم أمنهم، فهو المتحتّم، وهو الواجب؛ بُعداً عن الشرّ وحذراً من مكائدهم الخبيثة، وقد عرف المسلمون قديماً وحديثاً شرّ المنافقين وممالأتهم وولاءهم لأعداء الله، فيجب الحذر منهم غاية الحذر.

ويُروى أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه استكتب كاتباً نصرانياً حين إمارته على الكوفة، فقدم في بعض خدماته، وطلبه عمر - وكان بالمسجد - أن يأتي بحاسبه لكي ينظر في بعض الحساب، فقال: إنه لا يدخل المسجد، فقال: وما له؟ فعلم أنه نصراني، فغضب عليه عمر وأنكر عليه ذلك، وقال: قاتلك الله، لم تُفضّله؟ قال: إنه حاسب وإنه كذا وإنه كذا، فلي عمّله وحسابه، وله دينه، قال: لا تأتمنهم وقد خوّنهم الله، ولا تُقرّبهم وقد أبعدهم الله.

= فالمقصود من هذا أن الكافر ولو كان عنده شيء من الحساب، ولو كان عنده شيء من الحِذْق في الأشياء، فمهما أمكن أن يُستغنى عنه بالمسلم فهو الواجب، وعملاً بما ينبغي من إبعادهم وفصلهم عن المسلمين حتى لا يضرُّوهم من غير أن يشعروا بذلك.

﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ أي: خَلَوْا عنكم وغابوا عنكم، أو خلوا بشياطينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ بأطراف الأصابع من غيظهم، ومن بُغْضهم لكم ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿يعلم ما تخفي الصدور، وما تنطوي عليه القلوب من خير وشر، لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

فيجب على المؤمن أن يتقي الله عز وجل، وأن يُظهر الخير، وأن يكون ناصحاً لله والعباد أينما كان، وأن يحذر غش عباد الله والخيانة لعباد الله مهما كان، فإن الله لا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

ثم يُبيِّن - جل وعلا - حالة الكفار، وأنه يسرُّهم ما يضرُّ المسلمين، ويجزئهم ما يفرح المسلمون وما ينفع المسلمين، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ =

= سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴿ هذا شأنهم، إن مَسَّ المسلمين حسنة من نصر وتأييد وعزٍّ وجمع كلمة وحصول خير عظيم ساءهم ذلك.

﴿ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي: وإن تُصِبَ المسلمين سيئة من هزيمة، أو جراحات، أو قتل، أو فقر، أو اختلاف فيما بينهم، أو ما أشبه ذلك يفرح الأعداء بذلك، لأنهم جُنْدٌ لهم على المسلمين، فيفرحون بما يؤذي المسلمين، وما يُفَرِّقُ كلمتهم، وما يسبب العداوة والبغضاء فيما بينهم.

فيجب على المسلمين أن يكون عندهم من الحذر والبصيرة ما يعينهم على محاربة ما يضرهم ويُفَرِّقُ كلمتهم، ويُعينهم على الحرص على جمع كلمتهم وتعاونهم، وأن يكونوا صفاً واحداً ضدّ عدوهم.

﴿ وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ هذه آية عظيمة يبين فيها - جل وعلا - أن المسلمين إذا صبروا على دينهم واتقوا الله فيما بينهم، فإنه لا يضرهم عدو مهما كثر عددهم، ومهما قلَّتْ عِدَّةُ المسلمين، فإن الله ناصرهم ومؤيدهم بهذين الشرطين: الصبر والتقوى.

= فالصبر: الصدق في اللقاء، والصبر على ما قد يقع من جراحات، ومن فقر، ومن حاجة، وغير ذلك.

والتقوى: كل خير، فالتقوى إعداد العُدَّة، والتدرب على السلاح، والثبات على الحق، وترك المحارم، إلى غير ذلك.

فالكلمتان جامعتان لكل خير، جامعتان للصبر على ما قد يضر المسلمين من جراحات ومن فقر ومن حاجة وما إلى ذلك، فالتقوى تكون بالعمل بكل ما يُعينهم على قتال عدوهم وجهاده من إعداد الأبدان وإعداد السلاح وإعداد النفقة وأخذ الحيطة، والبعد عن مكائدهم وعن أسباب شرهم من جميع الوجوه.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه يحيط بهم، وأنه عالم بأحوالهم، وليس يخفى عليه خافية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا تخفى عليه خافية، مهما أعدوا، ومهما حاولوا النيل من المسلمين، فإنه - جل وعلا - لهم بالمرصاد، وسوف يُبطل مكائدهم ويعين أوليائه عليهم إذا صدق أولياؤه، وإذا أدوا ما عليهم، فإذا صدقوا في إعداد القوة في التقوى والصبر في أخذ الحذر، وفي أخذ الحيطة، =

= واستقاموا فالله ناصرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ثم فسّر المنصورين وبيّن أعمالهم وقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: ٤١]، فإقامة الصلاة عنوان الاستقامة على دين الله، فمن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ﴿وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوُوا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١] هذا فيه دلالة على أنهم مستقيمون في فعل المعروف والأمر به والنهي عن المنكر والتحذير منه، وبهذا استحقوا النصر من الله عز وجل، واستحقوا العاقبة الحميدة، والله عاقبة الأمور سبحانه وتعالى.

وبهذا يُعلم أن ما أصاب المسلمين من تأخر وضعف وتفرّق كلمة وتسليط عدوّ، إنما هو بأسباب إضاعتهم لهذه الصفات، وعدم قيامهم بها أو ببعضها، ولهذا حصل ما حصل من الضعف والتأخر وتسليط الأعداء، فإذا رجعوا إلى ما أمرهم الله به وما وعدّهم عليه النصر، واستقاموا عليه، جاءهم ما وعدّهم به من النصر والتأييد ورفع من مكانتهم وعزّهم ونصرهم على عدوهم، ونسأل الله حسن العاقبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[غزوتنا بدر واحد]

❁ قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۗ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آءِ الْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۗ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آءِ الْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٥]. [٢٦]

[شرح ٢٦] سبق في كلامه جلّ وعلا التحذير من اتخاذ بطانة من دون المؤمنين، وبين سبحانه مفساد ذلك ومضارّه، وحكمة المنع من ذلك، ثم بين هنا جلّ وعلا ما جرى يوم أحد ويوم بدر، وهما غزوتان عظيمتان حصّلتا بين النبي ﷺ وبين المشركين، والتقى فيها حزبُ الله وحزبُ الشيطان، وكانت الدائرة في يوم بدر - وهي =

= الغزوة الأولى التي جمع الله فيها بين نبيه وبين عدوه على غير ميعاد - كانت الدائرة فيها على أعداء الله، وجرى فيها ما جرى مما هو معروف من هزيمة أعداء الله، وقتل سبعين منهم، وأسرى سبعين، وانهمزام الباقين، وكان هذا نصراً مّبيناً عظيماً، وفتحاً كبيراً أذّل رؤوس المنافقين، وعظّم فيه أمر النبي ﷺ وأمر المسلمين، وانتشر صيت هذه الغزوة بين العرب وغيرهم. ثم دارت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد، فإن المشركين عظم عليهم الأمر، فعندما قُتل رؤسائهم وعظماؤهم وصناديدهم يوم بدر شق عليهم الأمر جداً، وتوجهوا إلى أبي سفيان بعدما قدم بالعرس سالماً وفيها التجارة العظيمة، فقالوا فيما بينهم: هذه التجارة تبقى لقتال محمد ﷺ وأصحابه، والاستعانة بها في إعداد غزوة يقوم بها الكفار في المدينة، فتراسلوا في هذا وتزاوروا فيه، وجرى بينهم ما جرى، واستسَمَحوا من لهم الأموال، وتمّ أمرهم على إعداد العدة لغزوة أحد.

وكانت غزوة أحد في شوال من العام الثالث للهجرة، وغزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة، فعلى رأس السنة =

= جاء جيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل، ونزلوا بالمدينة، واستشار النبي ﷺ الناس للخروج إليهم أو تركهم بمكانهم إن دخلوا قتلوا، وإن يسوا تركوا حتى ينقبلوا، فأشار قوم بالجلوس كعبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فقال: نجلس في بلادنا، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأسواق، وقاتلهم النساء والصبيان من السطوح بالحجارة وغيرها، وساروا بشرّ حالة، وإن انشَمروا انشَمروا خائبين. وقال آخرون من الشجعان والأبطال ومن لم يحضر يوم بدر: يا رسول الله نخرج إليهم، فلا يليق بنا أن نُقيم بالمدينة وهم حولنا، بل نخرج إليهم ونقاتلهم وجهاً لوجه، فهوي النبي ﷺ قول هؤلاء الآخرين، ودخل بيته ثم لبس لأُمَّتَهُ؛ لأُمَّة الحرب، وخرج إليهم عليه الصلاة والسلام، فكان بعضهم قال: نخشى أن نكون أكرهنا الرسول ﷺ على ذلك، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نبقي، قال: «ما كان لنبي أن يلبس لأُمَّتَهُ ثم يضعها، حتى يقاتل»^(١).

= فخرج الناس في ألف مقاتل إلى جهة أحد، فبدأ لعبد الله ابن

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٦٠٠).

= أبا وهو في الطريق أن يرجع، وقال: أطاع رأيهم ولم يُطع رأيي، وانخذل بنحو الثلث من الناس؛ أي بنحو ثلاث مئة من الجيش، وقالوا: ليس هناك قتال، ولا نعلم قتالاً، وكانت وَصْمَةً كبيرة على هذا الرَّجُل ونفاقاً ظاهراً، فلأمه الناس على ذلك وأرادوا منه الرجوع فأبى:

واستمر النبي ﷺ بوجهه في نحو سبع مئة مقاتل، وجعلوا ظهرهم إلى أحد، واستعدوا لقتال عدوهم، وأمر الرُّماة وهم خمسون مقاتلاً، أن يمسكوا سفح الجبل، وينضحوا خيل المشركين بالنَّبَل، وأن يمنعوا أن يُؤتوا من خلفهم، وحرَّض الرُّماة على ذلك فقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»^(١).

وكان في أمر الله ما كان سبحانه وتعالى، وقد سبق في علم الله ما فيه دلالة على صدق الرسول ﷺ، وأن الحرب بينه وبين عدوه ستكون سجالاتاً، يُدال عليهم ويُدالون عليه، فكان هذا من =

(١) أخرجه البخاري: المغازي (٤٠٤٣).

= علامات النبوة، كما قال هرقل لما أخبره أبو سفيان بالحال التي بينه وبين محمد ﷺ وسأله عن الحرب قال: كانت سجالاً، ندال عليه ويُدال علينا، قال في جوابه بعد ذلك: هكذا الأنبياء تُبتلى، ثم تكون لها العاقبة.

فحصل بين النبي ﷺ والمشركين يوم أحد قتال عظيم، انهزم فيه المشركون في أول الأمر، وقُتل منهم أكثر من العشرين، ثم لما رأى الرُّماة أن المشركين انهزموا وسقطت رايثهم، ظنوا أنها الفاصلة، وأن الحرب قد انتهت، وأن المسلمين قد انتصروا، وأنه ليس هناك حاجة إلى البقاء على سفح الجبل، فذكَّروهم أميرهم عبد الله بن جُبَيْر بما قاله النبي ﷺ من لزوم المكان وإن انتصرنا، فأبى عليه القوم متأولين أن مراد النبي ﷺ الحِيطة؛ لئلا يرجع الكفار، وقد انهزموا وليس هناك حاجة إلى البقاء.

وكان أمراً مُقَدَّرًا من الله عز وجل، وأمراً مفعولاً، ولم يُعَدِّروا بهذا، فصارت معصية؛ لأنهم أمروا بالبقاء، فوقع بهذا النزاع والفضل الإخلال في الموقف، فدخلت خيل الكفار على المسلمين =

= مِنْ ورائهم، وصار القتال من الخلف ومن الأمام، واضطرب المسلمون في هذه الحال، وصار ما صار من الهزيمة والقتل العظيم، حتى قُتل من المسلمين نحو السبعين، وحصل فيهم جراحات كثيرة، وَأَصْعَدُوا فِي الْجَبَلِ، وانفرد النبي ﷺ في عشرة من المسلمين، منهم: الصديق وعمر، ومنهم: سبعة من الأنصار، ولم يزال الأنصار يُدافعون عن النبي ﷺ حتى قُتلوا جميعاً، ولم يبق إلا النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وجرت مصيبة عظيمة؛ لِيَتَبَيَّنَ جَلُّ وَعِلَا - وهو الحكيم العليم - الصادق من الكاذب، والصابر من غيره، والمؤمن من المنافق، وعند هذا نَجَمَ النِّفَاقُ، وأظهر المنافقون كلامهم، وقالوا ما قالوا، ولكن الله فضحهم سبحانه وتعالى، وجعل هذه الواقعة تَمْحِصاً لِلْمُؤْمِنِينَ وتكفيراً لسيئاتهم وامتحاناً، واتخاذهم شهداء، فظهر نفاق المنافقين، وظهرت آية الله في عباده، وأنه يبلي الرُّسُلَ ويبلي الأنبياء، ثم يجعل لهم العاقبة، والحمد لله سبحانه وتعالى.

وفي غزوة أحد دلالة ظاهرة على أن الرُّسُلَ عباد الله جَلُّ وَعِلَا =

= وليسوا أرباباً، ولهذا يجري عليهم ما يجري على الناس من القتال والجراح، وقد قُتل من الرُّسل مَنْ قُتل عليهم الصلاة والسلام، وجرى على نبي الله ﷺ ما جرى يوم أحد من الجراحات وكُسِر الرِّباعية، وكُسِرِ البِيضَة على رأسه ﷺ، وجرى ما جرى على جماعة من الصَّحابة وهم خَيْرَةُ الله من عباده بعد الأنبياء، فلو أنَّ أحداً يُنصر بمجرّد أنه صالح، وبمجرّد أنه نبي وبمجرّد أنه وليٌّ من أولياء الله، لُنصر المسلمون يوم أحد، ولم يحدث لهم شيء؛ لأنه نصّر لعباد الله؛ ولأنهم خير خلق الله، ولكن الله له سُنَّة جارية في عباده، وأن من أخلَّ بالسُّنن الكونيَّة والسُّنن الحربيَّة ولم يُبالِ بها، فسوف يجري عليه ما جرى على أمثاله من النقص ومن الهزيمة ومن الجراح إلى غير ذلك.

فلا بُدَّ من الأخذ بالسُّنن الجارية، والأسباب، والحِيطة، وإعداد العُدَّة، فقد لَبَسَ النبيُّ يوم أحدِ درعَيْنِ - ظاهرَ بينِ درعَيْنِ - وهذا كله يدلُّ على الحِيطة والأخذ بالأسباب، وبه يُعلَم أن الرسل والأنبياء والأولياء لا يُعبَدونَ من دون الله، وليسوا آلهة كما يظنهم الجهال الذين اتخذوا قبورهم واتخذوا أنفسهم آلهة من دون الله، =

= فَيَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ، وَيَسْأَلُونَهُمْ قَضَاءَ الْحَاجَاتِ، وَتَفْرِيجَ
 الْكُرُوبِ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ قَرِيبٍ وَمِنْ بَعِيدٍ. هَذَا هُوَ الْجَهْلُ الْعَظِيمُ،
 فَهَمُ وَإِنْ كَانُوا كُرْمَاءَ وَأَشْرَافًا عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ
 كَانُوا أَصْلَحَ عِبَادِ اللَّهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَالْعِبَادَةُ حَقُّ
 اللَّهِ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وذكر سبحانه أنه أخرج نبيّه لِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ،
 لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَوَاضِعَ الْقِتَالِ وَمَحَلَّهُ كَيْفَ يِقَاتِلُونَ عَدُوَّهُمْ، وَيَبَيِّنُ
 سُبْحَانَهُ أَنْ طَائِفَتَيْنِ هَمَّتَا أَنْ تَفْشَلَا ثُمَّ ثَبَّتَهُمَا اللَّهُ، وَهَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ
 ثَبَّتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،
 أَنَّهُمَا قَبِيلَتَا بَنِي سَلَمَةَ وَبَنِي حَارِثَةَ، ثُمَّ ثَبَّتَهُمَا اللَّهُ فَلَمْ يَفْشَلَا، وَثَبَّتَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا جَرَى بِبَدْرٍ، وَأَنَّهُ نَصَرَهُمْ بِبَدْرٍ وَهُمْ
 أَذَلَّةٌ قَلِيلُونَ مُسْتَضْعَفُونَ نَحْوَ الثَّلَاثِ مِنْ عَدُوَّهُمْ، فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ
 وَأَيَّدَهُمْ وَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُمْ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، فَمَنْ اسْتَقَامَ عَلَىٰ أَمْرِهِ
 وَحَافِظَ عَلَىٰ شَرْعِهِ وَأَخَذَ بِالْأَسْبَابِ - نُصِرَ وَأَيَّدَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفِئَةِ
 الْقَلِيلَةِ ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ =

= وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾. ومن أَخْلَّ بالأسباب وحصل منه العصيان والنزاع والفشل يُنصر عليه عدوُّه، وإن كان عدوُّه أَبْغَضَ إلى الله منه، وإن كان عدوُّه العدوَّ اللدود، ولكن من أَخْلَّ بسُنَّةِ الله في الحروب، وأَخْلَّ بما يجب من الطاعة، وبأشْرَ المعصية فهو حَرِيٌّ بأن يُنصر عليه عدوُّه وإن كان في غاية من الفضل والطاعة، ونحو ذلك في الجملة. ولكن إذا أَخْلَّ بالأمور اللازمة في الحرب، ولم يأخذ بالحِيطة، ولم يُعِدَّ العُدَّةَ اللازمة، فلا بُدَّ أن يُصَابَ بما يُصَابُ به أمثاله، من جراح وهزيمة وغير ذلك، حتى لا يَحْتَجَّ أحد، فالله قد أمر بإعداد العُدَّة والأخذ بالأسباب والحِيطة، فإذا فَرَّطَ الناس وتساهلوا وتكاسلوا فالمصيبة عليهم.

ومنْ أعظم المصائب: العصيان والاختلاف والنزاع، فهذه من أعظم الأسباب لتسليط الأعداء، مهما كان أولئك الأخيار، ومهما كانوا في الدرجة من الفضل، فإذا أَخْلَوْا وتساهلوا بما يجب، فهم على خطر من العقوبات من أعدائهم وأعداء الله، ولنا فيما وقع =

= يوم أحد أعظم حجة، وأعظم فائدة، وأعظم موعظة، فليس في الدنيا في ذلك اليوم ولا بعده ولا قبله، أفضل من الرسول ﷺ، وليس في الدنيا أفضل من الصحابة بعد الأنبياء، ومع ذلك لما أخلُّوا بالموقف وحصل العصيان والتنازع والفشل جرى ما جرى مما هو معلوم؛ ولنا في هذا عظة وذكرى، ولكل مسلم عظة وذكرى، ولكل دولة صالحة عاقلة عظة وذكرى، والله المستعان.

وأما ذِكرُ الآلاف الثلاثة في الآية وذِكرُ الخمسة كذلك، فقد اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: إن هذا في يوم أحد وليس في يوم بدر، وقال آخرون: في يوم بدر وهو تفسير ابن جرير، وهو ظاهر السِّيَاق أنه في يوم بدر، وأنَّ الله جل وعلا أنزل من الملائكة ألفاً مُردِّفِينَ، وأن هذا الإرداف يحتمل أنه ثلاثة آلاف ويحتمل أنه أكثر وهم خمسة، فيحتمل هذا وهذا.

والإرداف ليس معناه أنهم راكبون معهم، فقد يُردِّفون بهم وإن كانوا بَعْدَهُمْ، يعني: نزلوا بَعْدَهُمْ إلى القتال، وليس من اللازم أن يكونوا معهم في الخيل التي ركبوا عليها، فالإرداف يكون على =

= الفرس، ويكون تابعا له على فرس أخرى، وفي طريق أخرى
 عوناً له، والله قال في آية أخرى في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
 رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ
 مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. وهنا قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ
 يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ ثم
 قال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ
 رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

والتسويم: التعليم، يعني: جعلوا علامات على رؤوسهم أو
 على خيلهم. والمقصود أن الله جلَّ وعلا أمدهم بألف من الملائكة
 مُرْدِفِينَ كما في سورة الأنفال، وهنا قال: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ فيحتمل
 أن هذا المَدَدَ حصل، ويحتمل أنه لم يحصل على قول من قال: إن هذا
 يوم بدر، وأما في يوم أحد فلم يحصل؛ لأنهم أخلُّوا بالموقف
 وأخلُّوا بما وجب عليهم، فخذلوا بسبب العصيان والفسل، وقد
 سبق لك أن المختار عند ابن جرير والجماعة أن هذا المَدَدَ - بالثلاثة
 والخمسة - كان يوم بدر، وأنه إرداف للسابق، والله جلَّ وعلا
 = أعلم سبحانه وتعالى.

= والخلاصة أنهم في يوم بدر نُصروا مع قَلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ لما صدقوا واستقاموا واتَّحَدَتْ كَلِمَتُهُمْ، ولم يَخْتَلَفُوا ولم يَتَنَازَعُوا ولم يعصوا، وفي يوم أُحُدٍ لما اختلفوا وتنازعوا - الرُّمَاءُ - ونزلوا وتركوا الموقف وعصوا، سلَّطَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوَّ بِأَسْبَابِ الْعَصِيانِ الظَّاهِرِ والاختلاف، وكان ذلك قَدْرًا مَقْدُورًا، والله فيه العظة البالغة والحجة الداحضة، وله سبحانه وتعالى الآية العظمى والدلالة على صدق الرسول ﷺ وأنه رسول الله، وأنه يُبْتَلَى وأنهم يُبْتَلُونَ، ثم تكون لهم العاقبة.

وقد جاءت غزوة الخندق بعد ذلك بستين، في السَّنة الخامسة للهجرة، واجتمع رأي المشركين على حرب النبي ﷺ، واجتمعوا في نحو عشرة آلاف مقاتل، ونزلوا بالمدينة وحاصروها، واتَّخَذَ النَّبِيُّ الخَنْدِقَ العَظِيمَ المَعْرُوفَ، وصَابَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مدة طويلة، ولم يَجْرِ قِتَالٌ إِلَّا مُنَاوَشَةٌ.

وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، وَأَصِيبُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فِي أَكْحُلِهِ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَجَرَى شِدَّةٌ =

= بين المسلمين وبين عدوهم في ذلك الموقف العظيم، ثم أنزل الله بأسه وجنده على أعدائه، وأصابهم بالريح العظيمة والجنود الكثيرة، حتى انقلبوا خاسئين إلى بلادهم، لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين قتالهم وشراًهم، وصارت العاقبة حميدة. وقال رسول ﷺ بعد ذلك: «الآن نغزوهم ولا يَغزُوننا، نحن نسير إليهم»^(١) فصارت هي الآخرة، فلم يَغزُوا النبي ﷺ في المدينة، بل غزاهم النبي ﷺ بعد ذلك يوم الحُدَيْبِيَّة، وجرى ما جرى من الصُّلْح، ثم غزاهم في عام ثمانٍ يوم الفتح، ففتح الله عليه وانتهى أمرهم، والله الحمد والمنة سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه البخاري: المغازي (٤١١٠).

[النهي عن أكل الربا،

والحث على الإنفاق]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ❁ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَن يَكُنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ظَالِمًا ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣٦]. [٢٧]

[شرح ٢٧] ينهى سبحانه وتعالى عباده عن أكل الربا، ويخاطب أهل =

= الإيـان بذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ فتارة يخاطب ربنا عز وجل في كتابه العظيم الناس جميعاً، لأنهم خُلِقُوا ليعبدوا الله، ولأن الرسل بُعِثَتْ إليهم جميعاً؛ للتعليم والتوجيه والإرشاد.

وتارة يخاطب أهل الإيـان؛ لأنهم أهل الامتثال على الكمال، ولأنهم أهل البصيرة والتقدير لأوامر الله ورسوله، ولأنهم قد علموا من الله ومن رسوله عليه الصلاة والسلام ما لم يعلمه غيرهم، فكان في خطابهم مزيد من التأكيد في كونهم فهموا ما لم يفهم غيرهم، وعلموا ما لم يعلم غيرهم.

وتارة يخاطب نبيه ﷺ فيقول: «يا أيها النبي»، «يا أيها الرسول»، والمرادُ أمره وأمرُ غيره، فإنَّ أمرَ الرسولِ ﷺ بشيء أو نبيه عن شيء أمرٌ للأمة ونَهْيٌ للأمة، ما لم يأت ما يدل على التخصيص.

ففي أوامر الله ورسوله، سواء كانت مُوجَّهَةً للناس، أو لأهل الإيـان أو للنبي بالخصوص عليه الصلاة والسلام. أوامر للجميع، =

= والواجب على الجميع امتثالها، وإن كانت نواهي فالواجب على الجميع الانتهاء عنها. يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ فكان من عادة أهل الجاهلية أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وكان الغالب عليهم ربا النسيئة، ولهذا جاء في الحديث: «إنما الربا في النسيئة»^(١)، لأنها كانت هي الغالبة بينهم.

فالمعاملة الربوية غالباً في النسيئة، وقد يقع الربا في الفضل وفي البيوع المعجلة، ولكن ذلك هو الأقل، وإنما الغالب والكثير في المعاملات الربوية التي فيها آجال وفيها نسيئة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة: «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق إلا وزناً بوزن، مثلاً بمثل، سواء بسواء»، وفي رواية أخرى عن أبي سعيد: «فمن زاد أو استزاد فقد أربى»^(٢). وهكذا في حديث عبادة، فهذا في ربا الفضل.

= وجاء النهي منه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن النسيئة:

(١) أخرجه مسلم: المساقاة (١٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: البيوع (٢١٧٦)، ومسلم: المساقاة (١٥٨٤) و(٧٧) و(٨٢).

= «الورق بالذهب رباً إلا هاء وهاء...» إلى آخره^(١). ونهى عن بيع الورق بالذهب ديناً^(٢). وما ذاك إلا لأن بيعها ديناً يفضي إلى مضار كثيرة، ويفضي أيضاً إلى ظلم الفقير والزيادة عليه وتراكم الأموال في ذمته بسبب حاجته إلى الغني، فيكون الربا عليه أضعافاً مضاعفة كلما حل ولم يتيسر له الوفاء. وذلك مما يجره إلى النسيئة فيكون ربا النسيئة هو الغاية وهو المقصود، ولأن الناس في الغالب طبقات: منهم الغني، ومنهم المتوسط، ومنهم المحتاج، فإذا سُمِحَ بربا النسيئة ظلم بعضهم بعضاً، وأضر بعضهم ببعض، فكان من رحمة الله أن منعهم من ذلك حتى يكون بينهم التعاون بالقرض الذي ليس فيه ربا، أو البيوع التي ليس فيها ربا، أو البيوع التي ليس فيها إلا الأرباح المعقولة من باب بيع المؤجل، أو من باب بيع السلم أيضاً، كل ذلك واقع.

الحاصل أن قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾

ليس المراد منه إباحة الربا الذي ليس فيه أضعاف مضاعفة، ولكن =

(١) أخرجه مسلم: المساقاة (١٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: البيوع (٢١٨١)، ومسلم: المساقاة (١٥٨٩).

.....

= المقصود نهيم عما هو واقع بينهم، وتحذيرهم مما هو سائد بينهم، من الربا المضاعف الذي يجر بعضه إلى بعض، ويسوق بعضه إلى بعض بسبب بقاء عسر المعسر وجشع الغني، فيتركب من جشع هذا وعسر هذا وضعفه، هذه المضاعفة في الربا.

وكان من عادتهم إذا حل الدين أن يقول الغني للفقير: إما أن تُرِّي، وإما أن تُقضي، أي: إما أن تؤدي الحق الذي عليك وتقضي ما عليك من الديون، وإما أن تُرِّي بأن تزيد في المال، وأنا أزيدك في الأجل، فإذا كان المال مئة، وقد حلت، ولم يتيسر له القضاء، قال له صاحب الحق: إما أن تبادر بالقضاء وتسعى في القضاء، وإلا تزيد في المال، وأنا أزيدك في الأجل، فيكون المأل مئة وعشراً أو مئة وعشرين بدل مئة، ثم يجدد أجلاً آخر إلى كذا وإلى كذا.

هذا معنى ﴿أَضَعَفَا مُضْعَفَةً﴾ أي: ضعفاً بعد ضعف، أو زيادة بعد زيادة، فكلما حل أجل زيد في المال، وزيد في الأجل، لأن الغالب أن الفقير لا تزيده هذه الزيادة إلا فقراً، ولا تزيده إلا عسراً، فكلما حل الدين فإن عسره باقٍ، وفقره حاضر، فيحتاج إلى =

= المزيد من المال، وإلى المزيد في الأجل، فتبقى الديون متراكمة متضاعفة إلى ما لا يحصى من الزيادات، فحرم الله ذلك، وأوجب الإنظار.

فإذا حل الدين ولم يتيسر للمدين الوفاء وجب على صاحب المال الإنظار والإمهال وعدم الزيادة، وأنزل في هذا جل وعلا:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فوجب الإنظار على الغني صاحب المال للمعسر الذي هو المدين، ونهى الله عن ذلك الربا الذي ساد في الجاهلية، وقال جلّ وعلا لهم:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، أي: فاعلموا بحرب من الله ورسوله. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَبَتُّمُ فَلكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فأباح لهم سبحانه أخذ رؤوس الأموال، وحذّرهم من الربا، وأخبرهم أن استمرارهم فيه إيدانٌ بحرب الله ورسوله، نسأل الله السلامة والعافية.

قوله سبحانه: ﴿وَآتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿بَيْنَ جَلٍّ وَعَلَا =

= أَنَّ الْفَلَاحَ فِي تَقْوَى اللَّهِ، وَالْفَلَاحُ: هُوَ الظَّفَرُ وَالْفَوْزُ وَالْحَصُولُ عَلَى النِّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ، فَذَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْفَلَاحَ فِي تَرْكِ مَعَاصِي اللَّهِ، وَأَنَّهُ فِي فَعْلِهَا الْهَلَاكُ وَالدمَارُ.

﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أَوْصِدَتْ وَهَيَّئَتْ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ، فَهِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ، يَقِيمُونَ فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ، وَإِنْ كَانَ الْعَاصِي قَدْ يَشَارِكُ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ يَدْخُلُهَا، لَكِنَّا لَمْ نُعَدِّ لَهُ، وَإِنَّمَا أُعِدَّتْ لِغَيْرِهِ، وَالْعَاصِي يَدْخُلُهَا مِنْ بَابِ التَّأْيِيدِ وَالتَّطْهِيرِ، ثُمَّ يُخْرَجُ، فَدَخُولُهُ لِلتَّطْهِيرِ لَا لِلْإِقَامَةِ فِيهَا، بِخِلَافِ الْكَافِرِ، فَإِنَّهَا مُعَدَّةٌ لَهُ، وَهُوَ مُقِيمٌ فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُقِيمٌ فِي الْجَنَّةِ أَبَدَ الْآبَادِ، فَالْجَنَّةُ لِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْيِيدِ، وَالنَّارُ لِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْيِيدِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهَا وَحَالِ أَهْلِهَا.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بَيْنَ جَلِّ وَعَلَا أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ فِي عَصْيَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ضِدُّ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ النِّقْمَةُ وَالْعَذَابُ، فَمَنْ أَرَادَ الرَّحْمَةَ وَالْخَيْرَ وَالْفَلَاحَ وَالظَّفَرَ فِي كُلِّ مَا يَسُرُّهُ، فَعَلِيهِ بِتَقْوَى اللَّهِ =

= وطاعة الله ورسوله، ومن أراد الهلاك والدمار والنقمة والعذاب فعليه بمعاصي الله وركوب محارمه، نعوذ بالله من ذلك.

ثم أمر عباده المتقين المؤمنين بالمسارعة إلى أسباب المغفرة والجنة، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآيات، فالله سبحانه يندب عباده ويأمرهم بهذه الأسباب التي تفضي بهم إلى دار الكرامة ودار النعيم، فالمعنى: سارعوا إلى أسباب المغفرة، فللمغفرة أسباب، وللجنة أسباب، فالله سبحانه يأمرهم بالمسارعة إلى أسباب المغفرة، وهي طاعة الله ورسوله، وترك محارم الله، وتلك هي أسباب المغفرة وأسباب الجنة.

ثم يبين سبحانه وتعالى من صفات المتقين الذين أعدَّ الله لهم الجنة والكرامة، فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: أُرصدت وهِيئت، فهي دارهم دار البقاء ودار النعيم ودار السرور، كما أن النار أُعدت للكافرين، وهي دار عذابهم ونكالهم وشقائهم، فالجنة أُعدت =

= لأهل التقوى، وهي دار الرحمة، ودار الإحسان، ودار الرأفة، ودار النعيم، ودار الخير الدائم الذي لا ينقطع.

ومن صفات أهل التقوى، الذين أعدت لهم الجنة: أنهم ينفقون في السراء والضراء، أي: أنهم أهل إنفاق وإحسان في جميع الأحوال، في حال الشدائد، وهي حال الضراء، وفي حال الرِّخاء والعافية، وهي حال السراء، فنفقاتهم مستمرة، في حال الشدة وفي حال الرخاء، في حال الضرر وفي حال المسرة، فهم مُنْفِقُونَ مُحْسِنُونَ في جميع الأحيان وجميع الأحوال، لعلمهم بأن هذه النفقة ترضي الله جل وعلا، وتنفع عباده.

ثم من صفاتهم: كَظُمُ الْغَيْظِ ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ لأنهم قد يُؤْذُونَ، وقد يمتحنون بما يضرهم، ولكنهم يكظمون الغيظ، أي: يتحملون الأذى، ولا يُؤْفِدُونَ غيظهم بالانتقام؛ لأن من صفاتهم الغالبة كظم الغيظ، أي: كظم الغضب وعدم الانتقام، فيتحمَّلون الأسباب التي تُكدِّرهم وتغيظهم وتُسبِّب غضبهم، ويتصبرون رجاء ما عند الله سبحانه وتعالى من المثوبة، ولهذا قال: =

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي: يكظمون الغيظ ويعفون عمن أذاهم وأساء إليهم، فالغالب عليهم كظم الغيظ والعفو عن الناس، وهذه من صفات أهل الجنة، أهل الإيمان والتقوى.

ثم قال بعده: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ مِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

فعليك يا عبد الله أن تحرص على أن تكون من المحسنين، وأن تكون من أهل هذه الصفات، التي هي صفات أهل التقوى، أهل الجنة والكرامة، وأن تكون منفقاً حسب ما أعطاك الله من المال، وإياك والبخل والشح، فإن عاقبته وخيمته.

فعليك أن تُعوِّدَ نَفْسَكَ، وَأَنْ تُجَاهِدَهَا أَبْدًا حَتَّى تَكُونَ مِنَ الْمُنْفِقِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالإِنْسَانُ قَدْ يَكُونُ جَوَادًا وَكِرِيمًا، وَإِنْ كَانَ مَالُهُ قَلِيلًا، فَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ الْغِنَى وَالْخَيْرَ، وَيَجْعَلُ فِي نَفْسِهِ الْجُودَ وَالْكَرَمَ، وَلَوْ بِالْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ حَسَبِ طَاقَتِهِ، فَيُعْطِي الْفَقِيرَ وَالْمَسْكِينَ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَوْ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ، فَدَرَهُمْ مِنْ مَالٍ =

= قليل له محل عظيم عند الله، كالمئة والآلاف من المال الكثير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأي نوع من أنواع الظلم ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، وهذه من صفات أهل التَّقْوَى أيضاً، أنهم إذا فعلوا شيئاً من الفواحش أو المعاصي التي حرّمها الله - وسُمّيت فواحش لقبحها، فهي مستفحشة وقبيحة في عرف أهل البصيرة وأهل النفوس الزكية الطيبة - فَيَسْتَفْحِشُونَهَا، ويعتبرونها قبيحة، كالزنى، واللواط، وقتل النفس بغير حق، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والربا، وظلم العباد - بأنواع الظلم - ونحو ذلك، فكل هذه فواحش مستقبحة عند ذوي الفطر السليمة، نفوس أهل البصيرة والعقول الصحيحة والمروءة، فيستفحشونها ويستقبحونها وإن كان فيهم من الكفر والضلال ما فيهم.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بشيء من أنواع الظلم، ولو بالمعاصي التي هي خَفِيَّةٌ في نفسها، وقد لا يظهر فُحْشُهَا لكل أحد، فهم حَذِرُونَ من كل أنواع المعاصي، فالْمُسْتَفْحِشُ: الظاهر البَيِّنُ =

= منها، وكذلك غيره من سائر أنواع المعاصي وأنواع الظلم، وسواء أكان ذلك لأنفسهم أم كان لغيرهم، فهم حذرون من أنواع الفواحش والمنكرات بعيدون عنها، فهم يحذرونها ويتعدون عنها، ومتى وقع أحدهم في شيء منها بادر بالتوبة والاستغفار والندم على ما صدر منه، ولهذا قال: ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: ذكروا عظمته، وكبرياءه، واستحقاقه العبادة والطاعة، وأنه لا يليق بالعبد أن يعصيه سبحانه وأن يقع فيما يُغضبه جلّ وعلا، فذكروا أنه المحسن المنعم الخالق المتفضل، فهو جدير بالتعظيم، وجدير بالشكر، وجدير بالطاعة.

فإذا ارتكب العبدُ شيئاً من معاصيه وما يُوجبُ غَضَبَهُ فهو جدير بأن يُبادرَ ويُسارعَ بالتوبة والندم والاستغفار، قبل أن يحل به من العقوبة ما يضره، ويسبب بُعْدَهُ عن الله ودخوله سجن العذاب وسجن أهل الفساد من النار.

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: وهو يعلم ويؤمن بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله سبحانه وتعالى، والمعنى بيان أنه لا =

= غافر للذنوب سوى الله جل وعلا، فهو استفهام معناه النفي.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بل يُقْلَعُونَ
وَيَتَخَلَّوْنَ عن سائر المعاصي؛ ندماً وتوبة وهدراً من غضب الله جلَّ
وعلا، وعزماً صادقاً على ألا يعودوا إلى ذلك، والمُصِرُّ: هو الذي يُقِيمُ
على المعصية ولا يُقْلَعُ عنها، ولا يندم عليها، ولا يَعِزُّمُ على تركها،
فهذا يسمَّى مُصِرّاً، أي: مُقِيماً، فَأَصَرَ على كذا، أي: أقام عليه.

فأهل التقوى لا يُصِرُّونَ على الذُّنوب، بل إِنَّ ما عندهم من
خوف الله وتعظيمه يمنعهم من ذلك، فلهذا إذا تابوا، تابوا توبة
صادقة، فيها الندم، وفيها الإقلاع عن الذنوب، وفيها العزمُ
الصادق على عدم العود في الذنوب، ولهذا يستحقون من الله
المغفرة وقبول التوبة.

ولهذا قال بعده: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ
تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ هذا
جزاء من بادر بالتوبة والندم والإقلاع - أن يجازيه الله بالمغفرة
لذنوبه، ويجازيه أيضاً بإدخاله الجنة وإنجائه من النار؛ لأنها توبة =

= صادقة، معها العمل الصالح.

فالذي لا يُصِرُّ على المعصية، ويستقيم على طاعة الله، ويستمر
 فيما يُرضيه مع ندمه وإقلاعه من المعاصي، وعزمه ألا يعود فيها،
 فهذا استحق الجزاء بالأمرين: بالمغفرة للذنوب؛ لكونه تاب منها
 وندم، وبالجنة؛ لكونه استقام على أعمال أهلها، واستمر في طاعة
 المولى جلَّ وعلا، فجزاه الله بالأمرين، والله جل وعلا أعلم.

سورة النساء

[آيات المواريث]

❁ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلَا لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ۚ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ ❁

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمُ إِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّنُونُ مِمَّا تَرَكَتُمُ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ۚ

وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَتْ كَكَلَّةً أَوْ أَمْرَاءً وَوَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ
فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۖ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۖ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
غَيْرِ مُضَآرٍ ۖ وَصِيَّتَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ
الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ
حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ

﴿١٤﴾ [النساء: ١١ - ١٤]. [٢٨]

[شرح ٢٨] فقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات تفصيل
الموارث بياناً شافياً عظيماً، وكَمَّلَ هذا البيان بما يتعلَّق بالإخوة في
آخر السورة، فجمعت هذه الآيات مع الآيات في آخر السورة بيان
الموارث للأقارب كلَّهم، من الفروع والأصول والحواشي.
وقسمها سبحانه قسمةً عظيمة في غاية الحكمة والعدالة، سبحانه
الحكيم العليم؛ فإنه أعلمُ بأحوال عباده، وهو أعلمُ بما يصلحهم
في كلِّ وقت؛ والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن في ذلك جبر =

= الأَقْرَابَ وَجَبَرَ الزَّوْجِينَ، فَإِنَّ بَيْنَ الْأَقْرَابِ مِنَ الصَّلَةِ وَالْمَحَبَّةِ
وَالتَّعَاوُنِ مَا بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ الزَّوْجِينَ مَا بَيْنَهُمْ.

فَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ جَبَرَ هُوَلاءَ وَهُوَلاءَ بِقَسْمِ أَمْوَالِ
قَرِيبِهِمْ بَيْنَهُمْ، وَقَسَمَ مَالَ الزَّوْجِ وَإِعْطَا زَوْجَتَهُ مِنْهُ، وَهَكَذَا
الزَّوْجَةُ، وَجَعَلَ ذَلِكَ لِلأَقْرَبِينَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ، فَرَاعَى فِي ذَلِكَ -
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْقَرَابَةَ وَالأَصُولَ وَالْفُرُوعَ وَالْحَوَاشِي، وَأَحْوَالَ
الزَّوْجِينَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلُطْفًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَوْ
أَخَذَ هَذَا الْمَالَ مِنْهُمْ لِغَيْرِهِمْ - لَبِيتَ الْمَالَ، أَوْ لِغَيْرِ بَيْتِ الْمَالَ -
لَكَانَتْ الْمَصِيبَةُ مَصِيبَتَيْنِ: مَصِيبَةٌ بِمَوْتِ قَرِيبِهِمْ، ثُمَّ الْمَصِيبَةُ بِنَزْعِ
مَالِهِ لِغَيْرِهِمْ، فَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ جَعَلَ مَالَهُ لِقَرَابَتِهِ،
رَحْمَةً مِنْهُ بِعِبَادِهِ وَإِحْسَانًا مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ
العَظِيمَةِ الَّتِي فِيهَا تَوْزِيعُ هَذَا الْمَالَ عَلَى هُوَلاءِ الْأَقْرَابِ تَوْزِيعًا
عَجِيبًا حَكِيمًا مَفْصَلًا؛ فَهَذَا لَهُ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ، وَهَذَا لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ
مُقَدَّرٌ، وَهَذَا يَثْبُتُ دَائِمًا وَيُعْطَى دَائِمًا، وَهَذَا قَدْ يُعْطَى وَقَدْ لَا يُعْطَى،
وَهَذَا يُعْطَى مَعَ قَوْمٍ وَلَا يُعْطَى مَعَ آخَرِينَ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ،
= جَلَّ وَعَلَا.

= ولهذا قال في أثناء الآيات بعدما فَصَّلَ المواريث للأقارب قال:
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والمعنى: أنه لم يفصّل هذا التفصيل
عن جهلٍ، ولا عن اعتبارٍ بغير حكمة - حاشى وكلا -، بل عن
حكمة وعلمٍ، فهو الحكيم العليم، له العلمُ الكامل والحكمة
الكاملة سبحانه وتعالى.

ثم بعدما ختم تفصيل المواريث قال بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ﴾ فذكر علمه وحلمه، وأنه سبحانه وتعالى قسّم هذه
المواريث عن علمٍ، ثم عن حلمٍ، فلا يُعاجِلُ مَنْ أخطأ أو تعدّى
بالعقوبة؛ فهو حلِيمٌ سبحانه وتعالى. وهكذا في آخر السورة ذكر
مواريث الإخوة فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي
الْكَلَلَةِ إِنْ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ
وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا
تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ^١ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا^٢ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^٣﴾ [النساء: ١٧٦] يَبَيِّنُ
أن هذا عن علمٍ، وأنه سبحانه وتعالى فصّل هذه المواريث عن علمٍ
كما فصّلها في أوّل السورة عن علمٍ - جل وعلا.

= ثم راعى في حقِّ الزَّوجين ما هو لائق بهما؛ فإنَّ الزوج مصيبته في الزَّوجة أكبر؛ لأنه يلتمسُ زوجةً أخرى بدلها؛ ليلتمسَ مَنْ يَعِفُّه، ومَنْ يَسْكُنُ إليه، ومَنْ يتولى أولاده إن كان له أولاد، فهو في حاجة أكثر، بخلاف الزوجة؛ فإنها قد تُنكحُ، وقد تُجبرَ بعد موت زوجها؛ ولهذا جعلَ حقَّ الزوج أكثر؛ فأعطاه مثل ما أعطاهَا مع عدم الولد، فيُعطى النِّصْفَ، ومع الولد يُعطى الرُّبْعَ. وهي مع عدم الولد تعطى الرُّبْعَ، ومع وجود الولد للزوج تعطى الثُّمْنَ، فالله حكيم عليم جل وعلا.

وجعل الأصول والفروع مُقدِّمين على الحواشي، فالأولاد والآباء والأمهاتُ مقدِّمون، ولا يرثُ الحواشي معهم إلا في صور قليلة فيما إذا كان أولياء الولد أنثى، وفَضِّلَ شيء، فقد يأخذه أقرب العَصْبَةِ من غير الأولاد كما في أمِّ وبنيتين، أو أمِّ وبنيتٍ، أو أمِّ وأكثر من بنت، أو جدَّة، ونحو ذلك، فإنَّ ما يَفْضَلُ بعد البنات والأمِّ والجدَّة يأخذه العاصِبُ من الحواشي من بنت الأخ الشَّقِيق والأخ لأب، وابن الأخ والعَمِّ، ونحو ذلك.

= والمقصود أن هذه الآيات العظيمة فيها حِكْمٌ وأسرار ودلالةٌ على حكمة الله سبحانه وتعالى، وأنه ربُّ العالمين، وأنه الحكيم العليم، وأنه يستحقُّ لأن يُعْبَدَ وَيُعْظَمَ جَلَّ وَعَلَا، وأن العبد مهما بلغ من العلم، ومهما بلغ من الفضل والحكمة، فإنَّ علمه وحكمته بالنسبة إلى علم ربه وحكمة ربه، شيءٌ ضعيف جداً لا يُقَارِبُ ولا يُدَانِي.

ثم بعدما ذَكَرَ هذه الأحكام وفصلها - جلَّ وَعَلَا - قال:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي: فرائضه التي حَدَّها لعباده، ووَزَّعها بين عباده، ونظَّمها بين عباده، فيجب أن يستقيموا عليها، وأن يلتزموا بها، فإنَّ الحدود تُطَلَّقُ على الفرائض كما هنا، وكما في قوله جلَّ وَعَلَا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وتُطَلَّقُ الحدود على المحارم التي حرَّمها على عباده، كما قال جلَّ وَعَلَا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧] يعني: المعاصي التي حرَّمها على عباده. فوجبَ على العباد أينما كانوا أن يَلْزَمُوا حدودَ الله سبحانه وتعالى التي فرضها في الموارِيث، وفي المعاملات، وفي الجنائيات، وفي الحدود الشرعية، وفي غير ذلك. وأما حدودُه =

= التي هي المحارم، كالزنى والسَّرقة وسائر المعاصي، فإنه يلزمهم الوقوفُ عندها وعدمُ اقترافها وعدم الوقوع فيها؛ بل يجب أن يحذروها، وأن لا يقربوها، ولا يقترِفوها، فهي حِمى الله، فلا يجوزُ لهم أن ينتهكوا حِمى الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر بعد ذلك مَصِيرَ مَنْ استقام على أمر الله ولم يتعدَّ حدوده أن له الجنة والكرامة، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وهذا يبيِّن لنا أن مَنْ استقام على الحدود التي فرضها الله على عباده، ولم ينتهك الحدود التي حرَّمها، فله الجنة والكرامة والعاقبة الحميدة، أمّا من انتهك محارم الله، أو تعدّى حدود الله، فهو مُتَوَعَّدٌ بالعذاب الشديد والمُهين - نعوذ بالله - لكونه خالف أمر ربّه وانتهك حدوده وغشّي محارمه، وتعدّى ما شرع سبحانه وتعالى؛ فنسأل الله التَّوفيقَ والفقّة في الدِّين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[أسباب صلاح المجتمعات في الدنيا والآخرة]

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۗ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ۚ إِنَّ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ ۖ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ ٦١

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ

فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
 لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
 جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا
 اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ
 فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
 قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا
 أَنفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَעَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۗ وَلَوْ
 أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾
 وَإِذَا لَا تَأْتِنُهُمْ مِنَ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا
 مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۗ وَحَسُنَ
 أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٥٨-٧٠]. [٢٩]

[شرح ٢٩] في هذه الآيات توجيه إلى ما فيه صلاح المجتمع في
 العاجل والآجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا =

= حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٠﴾ فإذا حصل هذان الأمران تمت السعادة وصلاح المجتمع، فإذا أُدِّيت الأمانات وحكم بين الناس بالحق وهو العدل فقد حصلت أسباب النجاة وأسباب السعادة وأسباب الراحة في الدنيا والآخرة وأسباب استقامة العباد.

وهذه الآية يقال لها: آية الأُمراء؛ لأن الأُمراء إذا أدوا الأمانات وحكموا بين الناس بالعدل استقامت الأحوال، وجاء في التفسير: أن سبب نزولها مفتاحُ الكعبة حين أخذه النبي ﷺ من عثمان بن طلحة ثم رده عليه. وقد علم أن الاعتبار في النصوص بعمومها لا بأسباب نزولها وإنما الأسباب توضح المعنى.

فالحاصل أن الأمانات تشمل أمرين: تشمل أمانات الله من صلاة ووضوء وُعُسل جنابة وغير ذلك، وتشمل حقوق الناس من ودائع وعوارٍ وديون وغير ذلك؛ فالواجب على كل مسلم بل على كل إنسان أن يؤدي الأمانات، حتى ولو كان كافراً، فهو مخاطب بفروع الشريعة.

=

= وأعظم الأمانات توحيد الله، فعلى كل إنسان أن يوحد الله، وأن يخصه بالعبادة، وينقاد للرسول، ولا سيما خاتمهم؛ فإن الله أوجب على جميع العباد أن يتبعوه كما بعثه الله عليه الصلاة والسلام.

وعلى الأمراء والحكام ومن له سلطة أن يحكم بين الناس بالعدل، وأن يحذر الحكم بالفجور، حتى ولو حكم بين الصبيان فيما اشتجروا فيه فعليه أن يعدل، ولا يجور في أي شيء يحكم فيه، فكيف بحكام المسلمين! وكيف بقضاة المسلمين! فهذا شأنه أعظم.

فالحاصل أن الآية الكريمة تفيدنا أمرين عظيمين بهما صلاح المجتمع وبهما السعادة في الدنيا والآخرة: أداء الأمانات من حق الله وحق عباده، والحكم بين الناس بالعدل.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۗ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ هذا ديوان عظيم عام، ونظام للأمة ومنهج لها، إذا استقامت عليه تمت سعادتها، وهو طاعة الله والرسول، وطاعة =

= ولاية الأمور، ثم ردُّ ما يتنازع فيه الناس مع ولاية الأمور، أو فيما بينهم، إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله. وهذا منهج كافٍ شافٍ مختصرٌ عظيمٌ، فيه النجاة والعصمة، طاعة الله والرسول في كل شيء من أقوالك وأعمالك، في العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق، وفي القضاء والخصومات، وفي الأقالين، وفي النكاح والطلاق، فعلى العباد أن يطيعوا الله ورسوله في كل شيء، وعليهم أن يطيعوا ولاية الأمور، ولكن يُعلم من بقية الكتاب العزيز أن الطاعة إنما تكون في طاعة الله وحق الله جل وعلا.

وجاءت السنة تُقيّد هذه الآية صريحاً، والسنة تخصص الكتاب وتقيّده، كما أن الكتاب يخص الكتاب ويقيّد بعضه بعضاً، وهذا من المواضع التي قيّد فيها الكتاب بالسنة، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الطاعةُ في المعروف»^(١)، وقال: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»^(٢)، فهذا قيّد هذه الآية ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: في المعروف، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري: الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم: الإمارة (١٨٤٠).

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤٤/١٠) برقم (٢٤٥٥).

= ثم يقول - جل وعلا - فيما يتعلق بالمنازعات إذا تنازعا:
﴿فَإِنْ نَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ردوه إلى الله؛ إلى
كتاب الله، وإلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته - عليه
الصلاة والسلام - وهذا محل إجماع بين أهل العلم قاطبة؛ أن
التنازع بين الأمراء فيما بينهم، وبين الناس مع الأمراء، وبين الناس
فيما بينهم، فيجب عليهم رده إلى الكتاب والسنة الصحيحة، ولا
يجوز رده إلى آراء الناس، فالناس يخطئون ويصيبون، والعصمة لله
ولما جاء به رسوله ﷺ فيما صح عنه.

﴿فَإِنْ نَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ مَقْتَضِيَّاتِ
الْإِيمَانِ، وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلِيهِ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا، ثُمَّ قَالَ:
﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لِلْمَجْتَمَعِ وَلِلْعِبَادِ كُلِّهِمْ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَحْسَنُ
عَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ يَنْعَى عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ثُمَّ
يَتَحَاكَمُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ كَذَبَ إِيمَانَهُ وَزَعَمَهُ.

ويبين بعد هذا - جل وعلا - أن الرسل أرسلوا ليطاعوا =

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ والآية التي قبلها بيّن أن المنافقين ودعاة الباطل يدعون دعاوى طويلة ويقولون: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ فلا يغترّ بكلامهم أهل الباطل، فهم دعاة السوء لا ينبغي أن يُغترّ بها يحدثونه من تحسين المقال ومن إظهارهم أنهم ناصحون؛ فالعبرة بما يدل عليه المقال وبما تقتضيه الأعمال، لا بالزخارف وتحسين المقال، فكم من قائل قولاً طيباً ولكن أعماله خبيثة، والمنافقون كما قال الله عنهم: ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] فكلامهم عظيم وجيد بين الناس؛ حتى يلبسوا على الناس ويكتموا نفاقهم، وهكذا كثير من دعاة الباطل ومن الملحدّين، فعندهم فصاحة وعندهم بلاغة وعندهم تحسين المقال ليكسبوا الناس وليكسبوا المجتمع، وهم في الباطن من أعداء الله والرسول.

فينبغي للمؤمن أن يحذر هؤلاء، وأن لا يغترّ بهم إذا كانت أعمالهم تخالف أقوالهم، فالأعمال تفسّر الأقوال وترجمها وتبين الحقائق، فليس الاعتبار بالقول ولكنه العمل الذي يصدّقه القول، =

= وقد ذكر بعض من صنّف في أعمال أهل الزمان - وأظنه الوضّاح - في البدع والنهي عنها، ذكر عن سهل بن عبد الله التّستري المشهور قال: في آخر الزمان تحسن الأقوال وتسوء الأفعال.

ويقول جل وعلا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يبين أنه أرسل الرسل ليُطاعوا، لكن منهم من أُطيع ومنهم من عُصي، بل أكثرهم عصي ولم يطعهم إلا قليل، وبعض الرسل قتله قومه وما قبلوا منه شيئاً؛ فيأتي وحده يوم القيامة ما معه أحد، وهذا يبين لنا أن أكثر الخلق يطيع الهوى ويعصي المولى، فينبغي لك أن تحذر وأن لا تغتر بالكثرة؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالعاقل لا ينظر إلى الكثرة ولكن ينظر إلى ما ادّعي بدليله، فإن قام الدليل على صحته أخذه ولو لم يكن معه إلا القليل، وإذا ظهر له باطله تركه وإن كان معه الكثير، قال بعض السلف: لا تستح من الحق لقلّة السالكين، ولا تغترّ بالباطل لكثرة الهالكين.

وقال جل وعلا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾ =

= الآية، وهذا مطابق لما تقدم، وأنه لا إيمانَ إلا بتحكيم الشريعة؛ أما مع تركها والإعراض عنها والاعتياض بآراء الرجال وأقوال الفجرة، والرضا بها، فهذا كفر وضلال وعدم إيمان، نسأل الله العافية.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ الآية، وهذا معناه: إذا جاء الإنسان الظالم نفسه إلى الرسول ﷺ في حياته، وطلب منه أن يستغفر له وأظهر توبته وندمه، فإن هذا من أعظم أسباب قبول توبته، فالرسول ﷺ يستغفر له؛ كما فعل يوم تبوك لما جاء المعذرون، وجاء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ، فالمعذرون لما كذبوا وهم غير نادمين، وإنما جاءوا نفاقاً، لم ينفعهم الاستغفار، وأنزل الله فيهم ما أنزل؛ فدل ذلك على أن الاستغفار من الرسول ﷺ لمن ليس أهلاً له لا ينفعه ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وهكذا الأعراب لما استغفر لهم الرسول ﷺ وهم كاذبون في الدعوة - معذرون أو غير معذورين - ما نفعهم ذلك، وأنزل الله فيهم: =

.....

= ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ط
فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ط إِنَّهُمْ رِجْسٌ ط وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ط فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]

فقد بين الله أنهم رجس، وأن اعتذارهم غير صحيح، أما الثلاثة
الصادقون الذين ندموا وهم صادقون، فابتلوا بالهجر، ثم جعل الله
لهم العاقبة الحميدة، ومنَّ عليهم بالتوبة العظيمة، ورضي الله
عنهم، فالصادقون عاقبتهم الخير والسعادة، والكاذبون عاقبتهم
الخيبة والندامة.

ثم يبين - جل وعلا - أن ما يظنه بعض الجهلة وبعض من
ليس عنده علم أن الآية تعني: أن على التائبين أن يأتوا إلى قبره ﷺ
ويسألوه أن يستغفر لهم، فهذا جهل وضلال لا أساس له، بل هو
باطل، وقصة العُتبي من أبطل القصص، ولو صحت لم يكن فيها
حجة، فهي رؤيا أعرابي لا قيمة لها. فالمقصود بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ
إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ هذه تتعلق بالحياة، أما بعد الموت فليس =

= لأحد أن يأتي إلى قبرٍ ويطلب من النبي المغفرة أو الشفاعة أو الرزق أو النصر، بل هذا من الشرك بالله عز وجل، فدعاء الأموات والاستغاثة بالأموات من أعمال المشركين ومن أعمال الجاهلين، وإنما الآية فيما يتعلق بحياته عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فالاستغفار لهم كان في حياته، أما بعد وفاته فإنه لا يستغفر لأحد، عليه الصلاة والسلام.

وأما حديث: «تعرض عليّ أعمالكم، فإن وجدتُ فيها خيراً حمدت الله، وإن وجدتُ غير ذلك استغفرتُ لكم» فهو حديث لا أصل له، ولا صحة له عن النبي ﷺ، وإن كان جاء مرسلًا من طريق بكر بن عبد الله المزني، فهو غير صحيح، وقد جاء من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وهو من المرجئة ويؤتهم في مثل هذا؛ فلا يُعوّل على روايته في مثل هذا.

ولو كانت هذه القضية بعد الوفاة لكان الصحابة أعلم الناس بذلك وأسرعهم لتطبيقها، فهم أسرع الناس إلى كل خير، وأبعد الناس عن كل شر - رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين -، فالخير في =

= سير طريقهم، والهدى في سبيلهم، فهم أولى الناس بالحق، وهم أولى الناس بكل هدى، وإذا كانت الأمة لا زالت فيها طائفة على الحق منصوره لا يضُرُّها من خذلها، فالصحابة أولى الناس بهذه الطائفة وأحقهم بها؛ فلا يمكن أن يتركوا شيئاً ويتعدوا عنه، ثم يكون الحق والصواب فيمن جاء بعدهم.

ثم يبين جل وعلا في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يبين أنه من أنعم عليهم هم الطائعون لله ورسوله، وهم المرادون في قوله سبحانه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالمنعم عليهم هم أهل إخلاص الطاعة لله لا غيرهم، وهم أهل العلم والعمل، وأهل الاستقامة على دين الله، الذين قالوا الحقَّ وعملوا به ودعوا إليه وصبروا عليه، وهم أتباع الرسل، وهم الذين يُحشرون معهم يوم القيامة، بخلاف المغضوب عليهم: وهم الذين يعرفون ولا يعملون لحظهم العاجل، كاليهود وأشباههم، وبخلاف الضالين: وهم العُباد على الجهالة، الذين يتعبدون ويتكلمون ويدعون ويعملون على جهالة، كالنصارى وأشباههم، نسأل الله العافية.

[السياسة الحربية في الإسلام]

❁ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ۗ﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۗ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ
 أَشَدَّ خَشِيَةً^٤ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ
 أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ
 فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ^٥
 وَإِن تَصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تَصِبْتُمْ سَيِّئَةً^٦
 يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ^٧ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ^٨ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا
 يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ
 مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ^٩ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا^{١٠} وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَن
 يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ^{١١} وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ [النساء: ٧١-٨٠]. [٣٠]

[شرح ٣٠] في هذه الآيات الكريمة التوجيه إلى كل خير، والتحذير من كل شر، وقد سبق غير مرة أن القرآن الكريم أنزله الله ليدعو إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، وينهى عن سفاسف الأخلاق وسبب الأعمال، ويدعو هذه الأمة إلى ما فيه صلاحها ونجاتها واستقامة حالها مع ربها، ومع العباد، ويحذر الأمة من كل ما يضرها في العاجل والآجل، ويعلمها الآداب الشرعية في كل شيء. =

= وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ يأمر جل وعلا بأخذ الحذر من الأعداء، وأن الأعداء يترَبِّصُونَ بأهل الإيمان الدوائر، ويتتهزون الفرص للانقضاض عليهم، وإيذائهم وظلمهم والعدوان عليهم وإبطال مساعيهم الصالحة الخيرة - هذا شأن أعداء الله - فيجب على أهل الإيمان في كل وقت وفي كل مكان أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم ومكائدهم؛ بالتعاون على البرِّ والتقوى، والتواصي بالحقِّ، والحذر من كلِّ تساهلٍ يفتح ثغرةً على المسلمين، هكذا يجب أن يكون أهل الإيمان دائماً، فإذا تساهلوا بهذا صار ضعفاً ونقصاً في الإيمان، وتمكيناً للأعداء.

ولهذا في الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَّرَآئِكُمْ وَلِتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فهم مأمورون بأن يأخذوا الحذر والأسلحة جميعاً، =

= فالعدو لا يغفل، بل من شأنه التربص والعناية بالثغرات التي يجدها على المسلمين حتى ينفذ منها. فهكذا ينبغي للمؤمن دائماً أن يكون على حذر، وأن يكون على استعداد فيما يتعلق بالحرب مع الأعداء، وإعداد القوة لجهادهم وقتالهم حتى لا يجدوا ثغرة عند المسلمين، وإذا كانت الصلاة التي هي عمود الإسلام وأعظم فريضة بعد الشهادتين يوافيها بأخذ الحذر وأخذ السلاح وحمله؛ لئلا يهجم عليه العدو، فكيف بحال غير الصلاة من الحالات الأخرى التي هي أسهل والإنسان فيها أقدر على حمل السلاح؟

والمقصود من هذا كله التنبية على أن المؤمن لا ينبغي أن يتكبر على الإيثار، ويقول: أنا مؤمن، وكفى، وأنا معصوم وأنا مُعافي - هذا غرور - بل يجب أن يأخذ حذره مطلقاً، وأهل الإيثار هم أهل الحذر وأهل العناية وأهل الاستعداد. ولما فرط الرماة يوم أحد في الموقف، وتنازعوا فيما بينهم مع أميرهم وجرى ما جرى، ولا يخفى على أحد ما حدث بسبب ذلك من المصيبة على المسلمين والقتل والجراح بأسباب هذا الإخلال، وهم سادة مؤمنون، وهم أفضل المؤمنين وخيرة الناس من خلقه في ذلك الوقت وفي كل وقت. =

= فَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ هو أفضل الخلق، ومعه صفوة المؤمنين وأفضلهم وخيرهم بعد الأنبياء، وهم أصحابه، ومع هذا لما أخلُّوا بشيء مما يجب الأخذ فيه بالحِطة جرى ما جرى، فلا ينبغي لأهل الإيمان أن يقولوا: إن إيماننا يقتضي أن نحاط وأن نُحفظَ من كل سوء ولو فرطنا وضيعنا وأخللنا بسنة الله في الحرب، ولم نأخذ الحذر الذي ينبغي، هذا كله مما لا ينبغي قوله أو اعتقاده، فهو تفريط ونقص وضعف في الإيمان وغرّة يتمكّن منها الأعداء. وفي هذا يقول جلّ وعلا: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾، «ثباتٍ» أي: متفرّقين، أو «جميعاً» أي: على حسب ما تقتضي المصلحة، فإذا كانت المصلحة تقتضي أن يتفرقوا هاهنا وهاهنا، لسدّ الثغرات، ولحماية الحوزة والمجتمع من شر الأعداء - فعلوا، وإذا كانت المصلحة تقتضي أن يكونوا جميعاً على وجه واحد - فعلوا، فالمقصود مراعاة المصالح ومراعاة الحِطة من شرّ العدو ومكائده من جميع الوجوه.

ثم يُبيّن سبحانه وتعالى حال المنافقين، وأنّ من الناس من =

= يُبْطِئُ وَلَا يُسَارِعُ فِي الْخُرُوجِ ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وهذا في شأن أهل النفاق الذين عندهم الجُبْنُ، وعندهم الحَوَرُ والضعف، فلا يَعَجِلُوا فِي النَّفِيرِ إِلَى قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ طَمَعًا فِي الْحَيَاةِ وَخَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ، فَإِذَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ نَازِلَةٌ مِمَّا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ مَكَائِدِ الْأَعْدَاءِ فَرَحُوا بِذَلِكَ وَحَمَدُوا اللَّهَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ؛ لِئَلَّا تُصِيبَهُمُ الْمُصِيبَةُ الَّتِي أَصَابَتْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مِنْ خَوَرِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَإِنْ انْتَصَرَ الْمُؤْمِنُونَ وَفَازُوا وَظَفَرُوا، طَالَبُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ وَحَرَصُوا عَلَى أَنْ يَشَارِكُوا فِي الْغَنَائِمِ، وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَهَذَا مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ وَأَشْبَاهِهِمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ ثَبَاتٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إِيْمَانٌ أَوْ بَصِيرَةٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ صِدْقٌ، بَلْ هُمْ مَعَ الدُّنْيَا وَعَاجِلِهَا لَا مَعَ الْآخِرَةِ.

ثُمَّ يَحْتُمُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجِهَادِ وَاسْتِثْمَانَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرَةِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ التَّسَاهُلِ وَخَوْفِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا.

وَيُبَيِّنُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ أَوْ يَجْبُونَ كُلَّهُ =

.....

= مقدر، وكلُّه من عند الله، فما أصاب من سيئة، يعني: ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال، أو من حسنة من نصر على الأعداء، فكله من عند الله جل وعلا، ولكن الحسنات من فضله جل وعلا، والسيئات أسبابها من الإنسان وتقصيره، ولهذا بعدما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني قدرأ وقضاء، قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ يعني: سبب هذه المصيبة هي السيئة نفسها وتقصيره وظلمه، كما قال في الآية الأخرى جل وعلا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فما أصاب الناس مما يكرهون من تسلط الأعداء ومن هزائم ومن غير ذلك، فأسبابه أعمالهم السيئة، وتقصيرهم في أمر الله، وتأخرهم عن حق الله، وعدم قيامهم بما يجب من حق الله عليهم جل وعلا، فهذه أسباب الهزائم وأسباب النقص وأسباب المصائب، وما أصابهم من فضل ونصر وعز وتمكين فهو من فضل الله عز وجل ومن نعمته عليهم وإحسانه سبحانه وتعالى؛ فهو المتفضل بما يحصل من نصر وتأيد وجمع كلمة، وانهمزام عدو إلى غير ذلك، فكلُّه من فضله سبحانه وتعالى، =

.....

= وأسباب ذلك: طاعته، والقيام بأوامره، والوقوف عند حدوده، والإعداد لعدوه، وأخذ الحذر دائماً، حتى في الصلاة، فيؤخذ الحذر وحمل السلاح والاستعداد للعدو حتى لا يهجم العدو على غرّة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[التحذير من الغلو في الدين]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً^ط أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ^ط سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ط وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَّيَّبُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا

﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ [النساء:

[١٧٦-١٧٦]. [٣١]

[شرح ٣١] يُجَدِّدُ - جَلَّ وَعَلَا - أهل الكتاب من الغلوِّ في دينهم، وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، بإجماع أهل التفسير، وإن كان المراد هنا النصارى، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۗ﴾. وكذلك يدخل اليهود في المعنى؛ لأنهم كذبوا عيسى وأنكروه، وزعموا فيه المقالة الشنيعة، بأنه ولدٌ بغيٌّ. فالسياقُ وأن كان في النصارى لكنه يُعَمُّ الجميع، وهم منهيون عن الغلوِّ في دينهم جميعاً، فليس لليهود أن يغلوا في دينهم، في العزير أو في غير العزير، وإن غلوا في العزير فجعلوه ابن الله، وغلوا في الأخبار والرهبان فأحلوا ما أحلوا، وحرّموا ما حرّموا من غير برهان، وكذلك النصارى غلوا في المسيح، وجعلوه =

= إلهاً مع الله، أو ابنَ الله، أو ثالثَ ثلاثة، وغلّوا في أمّه أيضاً، وجعلوها إلهاً مع الله، وغلّوا في أحبارهم ورهبانهم... إلخ.

فالله عز وجل حذّر الجميع من الغلوّ، والغلوّ: هو الزيادةُ في الشيء المشروع، كالزيادة في حُبِّ الأنبياء والصالحين، والزيادة في بعض العبادات شيئاً لم يُشرَّعه الله، حتى يكون مُبتدعاً، يقال: غلّت القِدْرُ: إذا زاد ارتفاع الماء فيها بسبب النار التي تحتها، ثم زادت النارُ، فزاد الغليانُ وارتفع.

فاليهود والنصارى غلّوا في حُبِّ أنبيائهم وصالحهم حتى عبدوهم مع الله، كما زادت الطوائفُ الأخرى ممن ينتسبُ إلى الإسلام والسنة من هذه الأمة في حُبِّها للصالحين والأنبياء حتى عبدوهم من دون الله. فالغلوّ الذي حذّر الله منه أهل الكتاب، وقع فيه ضلالٌ هذه الأمة - أمة محمد ﷺ - والله جل وعلا حذّر هذه الأمة من التّشبه بمن قبلها في الغلوّ وغيره.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهي لهم

ونهي لنا، كأنهم مثلما قال حذيفة: قال: «القوم» ولم يعن به سوانا، =

= فنحن مَعْنِيُونَ كما هم مَعْنِيُونَ بالنَّهْيِ والتَّحْذِيرِ. وقال ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشْبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»^(١).

فالواجب على جميع النَّاسِ - ولا سِيَّما أهل الإيمان والتصديق - أن يَحْذَرُوا الغُلُوَّ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ وَخِيْمَةٌ، وَأَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى الحَدِّ الشَّرْعِيِّ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ، فَيَسْتَقِيمُوا عَلَى الحَدِّ الشَّرْعِيِّ فِي التَّوْحِيدِ، فَلَا يَشْرِكُوا مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا غَيْرَهُ، وَيَسْتَقِيمُوا عَلَى الحَدِّ الشَّرْعِيِّ فِي حُبِّ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَا يَرْفَعُوهُمْ فَوْقَ مَنَازِلِهِمْ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهُمْ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ، وَفِي حُبِّ الصَّالِحِينَ كَذَلِكَ، فَيُحِبُّونَهُمْ حُبًّا يَلِيْقُ بِهِمْ، فِي كَوْنِهِمْ اسْتِقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَفِي كَوْنِهِمْ صُلْحَاءَ، دُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُمْ فِي مَنَازِلِ الْعِبُودِيَّةِ أَوْ فِي مَنَازِلِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَهَنَّاكَ حُبُّ فِي اللَّهِ وَحُبُّ مَعَ اللَّهِ، الْحُبُّ فِي اللَّهِ هُوَ الْمَشْرُوعُ، وَالْحُبُّ مَعَ اللَّهِ هُوَ الْمَمْنُوعُ؛ لِأَنَّهُ اتِّخَاذُ آلِهَةٍ مَعَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَجَعَلُ

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩).

= المحبة شركاً.

والمسيح هو عيسى ابن مريم، سُمي مَسِيحاً من المَسْح؛ لأنه إذا مَسَحَ على ذي عاهة أبرأه الله، كالأَكْمَه والأَبْرَص، وقيل فيه غير ذلك.

ويقال في الدَّجَال مَسِيحٌ، وَمَسِيحٌ من المَسْح، ولكنَّ المشهور فيهما جميعاً المسيح بالخاء، وقيل للدَّجَال مَسِيحاً؛ لأنه يمسح الأرض، فَيَعْمُهَا وَيَطْوُهَا، فلا تبقى أرضٌ إلا عمَّها ووطئها، إلا الحرمين، مكة والمدينة، فإنَّ الله يمنعه منهما؛ كما في الحديث الصحيح^(١)، فإذا نزل حول المدينة رَجَفَت رَجَفَاتٌ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ منافقوها، وأهل الشرِّ. ولا يمتنع أن تكون مكة كذلك، وإن كنت لم أقف على شيء في مكة من جهة الرَّجَفَات، لكن ما دام وقع في المدينة فالذي في مكة كذلك، إذا كان فيها وقت مجيئه إليها من هو على دينه وشاكلته.

وُنُسِبَ عيسى ابن مريم لأمه؛ لأنه لا أب له، فخلقه الله من =

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٨٨١)، ومسلم: الفتن وأشرط الساعة (٢٩٤٣).

.....

= أنثى بلا ذَكَر، قال الله له: كن، فكان، أما غيره فيُنسَبون إلى آباءهم، قال الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، أما عيسى عليه السلام فقد جعله وأمه آية للناس، وأتم به قسمة الإنس إلى أربعة أقسام: قسم من طين لا من ذَكَر ولا من أنثى، وهذا هو أبونا آدم عليه الصلاة والسلام. وقسم من ذَكَر بلا أنثى، وهذه أمنا حواء، خلقها الله من نفس آدم. وقسم من أنثى بلا ذَكَر، وهذا هو عيسى عليه الصلاة والسلام. وقسم هو بقية الناس جميعاً من ذَكَر وأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣].

وبسبب كون عيسى عليه السلام خُلِقَ من أنثى بلا ذَكَر انقسمت فيه اليهود والنصارى، فاليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة - جَفَّوْا وِفَرَّطُوا وَقَصَّرُوا وَنَفَّوْا نَبُوْتَهُ وَرَسَالَتَهُ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ وَلَدٌ بَغِيٌّ، فَكَفَرُوا بِذَلِكَ كَفْرًا بَوَاحًا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَالنَّصَارَى غَلَّوْا وَزَادُوا وَأَثَبُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْهُمْ زَادُوا، فَجَعَلُوهُ ابْنَ اللَّهِ، وَجَعَلُوهُ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ، وَهَذَا مِنْ كَفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ. وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ إِلَّا الْحَنِيفِيُّونَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُؤْمِنُونَ، وَهَكَذَا مِنْ آمَنَ مِنْ =

= بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، فإنهم صدّقوا أنه رسول الله وأنه خلق من أنثى بلا ذكر، كما آمنت أمة محمد ﷺ بذلك، قال الله عز وجل له: كن، فكان. وهذا هو الحق فيه، لا كما تقول اليهود ولا كما تقول النصارى، وعلى كل مسلم أن يبرأ إلى الله مما قيل فيهما، وأن يعتقد الحق في المسيح، وأنه عبد الله ورسوله.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كلمته لأن الله قال له: كن، فكان بهذه الكلمة، وُسِّمِي «كلمة الله» لأنه كان بها ووُجد بها، و«روح منه» لأن الله خلق هذه الروح في مريم، وأنشأ عيسى منها، فالله من خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى؛ كما قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: خلقاً وإيجاداً.

ويسمى «روح الله» أيضاً من باب إضافة المخلوق إلى خالقه إضافة تشريف وتكريم، فالمعنى: روح من الأرواح التي خلقها، وأوجدها، فأضافها إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم؛ كما يقال: بيت الله، أي: الكعبة، وناقعة الله، أي: ناقعة صالح، من باب =

= التشريف والتكريم، فالبيت مخلوق والناقة مخلوقة، فإضافتهما إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهكذا في الخمس، يقال فيه مال الله، ويقال: رسول الله؛ للتشريف والتكريم، فهذا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

وقد يضاف المخلوق إلى الله إضافة خلق وإيجاد، لا بقصد التشريف والتكريم، لبيان أنه مخلوق موجود، أوجده الله عز وجل، كما يقال: أرض الله، وسماء الله، ومال الله، وعباد الله، من باب الخلق وأنهم مخلوقون لله، فالله سبحانه وتعالى أوجدهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُلِهِ﴾ أي: آمنوا أيها الناس بالله، وأنه ربكم وإلهكم الحق، وأن رسله عبيد من عبيده، أرسلهم الله إلى عباده؛ ليدعوهم إلى توحيد الحق والهدى وطاعة الله، وليسوا بأهة.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ احذروا أن تقولوا هذا الكلام، لا تقولوا ثلاثة آهة: عيسى، وأمّه، والله عز وجل، فإن هذا من أبطل الباطل. =

.....

= ثم قال: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ﴾ انتهوا عن هذا الكلام خيراً لكم، فهذا هو الواجب على جميع العباد، أن ينتهوا عن هذه المقالة، ولا سيما النصارى، وأن يقولوا الحق، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وفي الآيات فوائد أخرى، وفي آخر الآيات ذِكْرٌ للموارِيث، وقد سبق القول عليها في آيات الموارِيث، نسأل الله التوفيق.

سورة المائدة

[الوفاء بالعهود]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلْبِيدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۗ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۗ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۗ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ۗ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ۗ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَنسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِّن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ۗ الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
 الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ
 الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ
 فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ط وَأَنْقُوا اللَّهَ ءِ إِنَّ اللَّهَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ ط وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ءِ وَمَن
 يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ
 ﴿٥﴾ [المائد: ١-٥]. [٣٢]

[شرح ٣٢] هذه السورة العظيمة من آخر ما نزل على النبي ﷺ،
 وفيها أحكام كثيرة بيّنها الربُّ عز وجل لعباده، وبدأها بقوله:
 ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خاطبهم سبحانه بالإيمان لأن أهل
 الإيمان هم أهل الامتثال على الكمال، وإن كان الخطاب لجميع
 الناس، فكل الناس مخاطبون باتباع الرسول ﷺ وطاعة أوامره =

= ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فالوفاء بالعقود من العبادة ومن التقوى وطاعة الله ورسوله، واتقاء محارمه وغضبه، والإيمان به وبرسوله، وأهل الإيمان الذين قد صدقوا الله وآمنوا به وبرسوله هم أولى الناس بالامتثال، وأحق الناس بأن يُخاطبوا، لإيمانهم بالله ورسوله، وهذا موجود في القرآن كثيراً، فيخاطب أهل الإيمان وهو الأكثر، ويخاطب الناس وهو دون ذلك في آيات كثيرات.

وإذا عَلِمَ المؤمنُ هذا المعنى عرف أن الواجب عليه العناية بهذه الأوامر والانتباه لها واليقظة، ولهذا فقد ورد عن ابن مسعود قوله: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فأصغ إليها سمعك، فإنه خيرٌ تُوصى به أو شرٌّ تُصرف عنه^(١).

فأنت يا عبدَ الله محسوب من أهل الإيمان المخاطبين، ولفظ الإيمان يطلق هنا على جميع المسلمين، فالخطاب يَعُمُّ المسلمين جميعاً، وليس على الاصطلاح المعروف من أهل السنة أن المؤمن أخصُّ =

(١) انظر «شعب الإيمان» ٢/ ٣٦١.

= من المسلم، فهنا في هذا المعنى الآية عامّة، فمَرَدُّه أصل الإيمان، الذي يشمل المسلمين عموماً، فهم مخاطبون بأن يمثّلوا قوله في آية المخاطبة بالإيمان.

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني: أوفوا بما جرى من العقود فيما بينكم وبين الله وما بينكم وبين العباد، فالمسلم بإيمانه وإسلامه ودخوله في دين الله قد عاقد الله على أداء أوامره وترك نواهيه، فعليه أن يُوفي بهذا العقد ويلزمه الله سبحانه وتعالى حتى يلقاه، وذلك في ترك المحارم وفي أداء الفرائض وفي الوقوف عند الحدود.

وهكذا ما يقع بينك وبين الناس من العقود من بيع أو تجارة أو غير ذلك، عليك أن تُوفي بالعقود، وهذه الآية أصل عظيم في وجوب الإيفاء بالعقود ولزومها، إلا ما دل الشرع على أنه جائز وليس بلازم، وهي أصل عظيم في عدم التّساهل بهذا الأمر، وأن العقد شأنه عظيم، فالواجب الوفاء به وعدم التّحايل لإبطاله وإفساده بغير حقّ.

ثم بيّن سبحانه وتعالى حلّ بهيمة الأنعام، وقد تكرر في =

= كتاب الله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني إلا ما نَصَّ الله على تحريمه، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِهِ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥].

وكذا ما ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ إلى آخره، وقد قَصَّ وتلا علينا في مواضع أشياء حَرَّمَهَا علينا جلَّ وعلا؛ فهي مُسْتثْنَاةٌ.

ثم بيَّنَ جَلَّ وعلا بعد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ - وإن كان مُبَيَّنًا في آخر هذه السُّورَةِ، لكن ذَكَرَ أيضًا في أولها تحريمه لعظم شأن ذلك - إِنَّ الْمُحْرِمَ يَحْرِمُ عَلَيْهِ قَتْلَ الصَّيْدِ وَصَيْدُهُ مَا دَامَ مُحْرِمًا، فَنَبَّهَ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَفِي آخِرِهَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وعلا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ [المائدة: ٩٦] فهذا بَيْنَ لَنَا عِظَمَ شَأْنِ تَحْرِيمِ هَذَا الصَّيْدِ، وَأَنَّهُ مُحْرَمٌ تَحْرِيمًا شَدِيدًا عَلَى الْمُحْرِمِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ . =

.....

= ثم يَبَيِّنُ أشياء ونهى عن أشياء سبحانه وتعالى، بَيَّنَّ أمراً عظيماً، وقاعدةً كُليَّةً وهي التَّعَاوُنُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وعدم التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى أَبَدًا، وَأَنْ يَحْذَرُوا التَّعَاوُنَ عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ. وهذه قاعدة يجب أن تُلْزَمَ، ويجب أن تُرَاعَى دائماً، وألا يكون المؤمن عوناً على الإثم والعدوان، وأن لا يتأخَّرَ ويتقاعس عن الإعانة على البرِّ والتَّقْوَى، فهو مخاطَبٌ بهذا وهذا، مخاطبٌ بأن يُعِينَ أَخَاهُ، عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَمُخاطَبٌ بأن يَحْذَرَ إِعَانَتَهُ عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، وهذا مقتضى النَّصْرِ، ومقتضى الأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ: أَنْ تَكُونَ عَوْنًا لِأَخِيكَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَيَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ، ف«المسلم أخو المسلم»^(١). وَمَنْ كَانَ أَخَاكَ فَلَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ تَكُونَ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَا يَضُرُّهُ، وَلَا عَوْنًا لَهُ عَلَى مَا يُغْضِبُ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا، بَلْ تَكُونَ عَوْنًا لَهُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَعَوْنًا لَهُ عَلَى تَرْكِ مَا يَضُرُّهُ، وَهَذَا مِنَ الْقَاعِدَةِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

[الوضوء والغسل والتيمم]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ^٦ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا^٧ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ^٨ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

❁ [المائدة: ٦]. [٣٣]

[شرح ٣٣] قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الصلاة هي عمود الإسلام، وهي أهمُّ فرائضه بعد الشهادتين، والطهارة شرطها كما قال النبي الكريم ﷺ: «لا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طَهْوَرٍ، وَلَا صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقْبَلُ صَلَاةٌ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى =

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٢٤).

= يتوضأ^(١)، ولذلك أنزل الله - جل وعلا - بيان هذا الفرض العظيم في هذه السورة العظيمة فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة ﴿فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

أما إذا كان الإنسان على طهارة فإنه لا يلزمه الوضوء، فله أن يصلي الفروض المتعددة بوضوء واحد، كما جاء في السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولكن إذا أحب أن يتطهر من باب المزيد من الخير، ومن باب التقرب إلى الله كان فضلاً وكان مستحباً، وفيه الثواب الجزيل الذي ورد في الطهارة الشرعية.

أما الوضوء فلا يلزمه إلا إذا كان على حَدَث، وقد صلى النبي ﷺ يوم الفتح عدة صلوات بوضوء واحد، فسأله عمر عن ذلك فقال: «عمداً صنعته عمر»^(٢)؛ من أجل أن يعلم الناس أنه لا حرج في أن يصلي الإنسان صلاتين أو أكثر بوضوء واحد.

(٢) أخرجه البخاري: الوضوء (١٣٥)، ومسلم: الطهارة (٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٧٧).

= وكما تُجمع الصلاتان بوضوء واحد في السفر وغيره، والمقصود أن جمع الصلاتين أو أكثر بوضوء واحد إذا لم يُحدث الإنسان لا حرج عليه في ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وفعله أصحابه، عَلِمَ بذلك أن المراد بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة، وهكذا التيمم حُكْمُهُ حُكْمُ الوضوء، فهو رافع للحدث كالماء، فإذا تيمم للصلاة جاز له أن يصلي به عدة صلوات في أرجح أقوال أهل العلم، ما لم يحدث أو يجد الماء؛ لقول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١)، سماه طهوراً كما أن الماء طهور.

ثم بين سبحانه وتعالى الفرائض في الوضوء وأنها أربعة: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس مع الأذنين - كما جاء في السنة -، وغسل الرجلين مع الكعبين، ورتبها سبحانه وتعالى هكذا ليُعلم أن المسح مرتب، ومعلوم أن المسح غير الغسل، فلما أدخل المسح بين المغسولات، والنبي ﷺ توضأ هكذا، عَلِمَ أن =

(١) أخرجه مسلم: المساجد (٥٢٣).

= المسح مقدم على غسل الرجلين، وأنه بهذا الترتيب. وهذا الترتيب فرض لا بد منه كما رتبته الله ﷻ، وكما فعله نبيه ﷺ.

ثم الموالاتة بين هذه الأجزاء، وعدم التفريق بينها، والمقصود بالموالاتة: أن لا يؤخر غسل عضو حتى يجفّ الذي قبله، بل يوالي بينها عرفاً؛ لأن الرسول ﷺ وآلٍ بينها، فلا يكون متوضئاً مَنْ غَسَلَ وجهه ويديه ثم ترك، ثم عاد يمسح، فلا بدّ من الموالاتة مع بقاء النية؛ لأنها عبادة واحدة. فإذا وسّع النية أو فرّق بينها تفريقاً يقتضي مسافةً بين العضو السابق والعضو اللاحق بدون علة عارضة، فإن هذا يكون مخلاً بالأمر الشرعي الذي فعله المصطفى ﷺ.

ثم ينبغي مراعاة الكعبيين والمرفقين، وقد دلت السنة على أن ما بعد «إلى» داخل، مع أن الأصل أن ما بعدها لا يدخل مع ما قبلها ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآتِلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يدخل إلا بدليل يدل على ذلك، فإذا دل الدليل صارت بمعنى «مع» كما في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي: أموال اليتامى، وهكذا هنا فإن ما بعدها داخل، لما جاء في الحديث =

= الصحيح: أنه كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين^(١). فدل على أن قوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ و﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ مع المرافق ومع الكعبين. وفي «صحيح مسلم»^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ إذا غسل يديه أشرع في العَضُد، وإذا غسل رجليه أشرع في الساق، فهذا دليل على أنه ﷺ كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين. ثم قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا﴾، وهذا يدل على أنه لا بد أيضاً من الطهارة من الجنابة، يعني: لا يصلي وهو على جنابة، فالوضوء هو طهارة المحدث حدثاً أصغر كالريح والبول والغائط وأكل لحم الإبل ومس الفرج، وهذه الطهارة الصغرى، أما إذا كان على جنابة فلا بد من الطهارة منها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهَّرُوا﴾ يعني: في الغسل، وهذا محل اتفاق وإجماع من أهل العلم أنه لا بد من الطهارتين في الصلاة. وفي الآية الأخرى: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣]. =

(١) أخرجه البخاري: الوضوء (١٦٠)، ومسلم: الطهارة (٢٢٦).

(٢) برقم (٢٤٦).

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ هذا يبيِّن لنا أن التيمم يكون عند فقْدِ الماء، ويقوم مقامه في الجنابة والحدث الأصغر جميعاً، والتيمم نوع واحد، فإذا لم يوجد الماء وهو على حَدَثٍ أصغر تيمَّم، فيضرب التراب بيديه ويمسح بهما وجهه وكفيه، كما فعله المصطفى ﷺ، وكما دل كتاب الله جل وعلا، وكذلك إذا لم يوجد الماء وهو على الحدث الأكبر، فإنه يتيمم.

وهذا هو فرض التيمم، بنصّ الكتاب العزيز، وبنصّ الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ: مسح الوجه والكفين فقط، وليس معها الذراعان ولا الرأس ولا الرجلان.

والحكمة في ذلك: أن التراب فيه تغيير وتوسيع للبدن، فرحم الله العباد وكفانا سبحانه بشيءٍ قريب، الذي يؤذن بخضوع العبد لطاعة الله وتواضعه له وإذعانه لأمره، فلما حصل هذا المطلوب بتعفير وجهه وكفيه كفاه، بخلاف الماء فإن فيه نظافةً وتنشيطاً =

= وتنظيفاً للأعضاء، فكان من حكمة الله أن جعله في الأطراف ليزداد الإنسان نشاطاً وقوة على العبادة، ولتنظف هذه الأعضاء، أما التراب فليس كذلك فاكتفى الله منه جل وعلا بالشيء القليل الذي يحصل به المقصود وهو استسلام العبد لله وطاعته لأمر الله، حتى عَفَّرَ وجهه - الذي هو أشرف شيء ظاهرٍ عنده - بالتراب طاعةً لله وتعظيماً له، وعَفَّرَ يديه التي هي محل الأكل والشرب، والأخذ والعطاء، طاعةً لله وتعظيماً له سبحانه وتعالى، فدل ذلك على خضوعه وإذعانه لأمر الله ﷻ، والله تعالى أعلم.

ولهذا جعل الله هذا الوضوء كفارةً للذنوب ومن أسباب حَطِّ الخطايا، فإذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياها مع الماء أو آخرِ قَطْرٍ الماء من وجهه ويديه ورأسه ورجليه كما جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ^(١)، فالتيمم في المعنى مثله.

فالحاصل أن التيمم والغسل والوضوء، طهارتان عظيمتان مكفرتان للسيئات، أحدهما ينوب عن الآخر فالتيمم ينوب عن =

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

= الماء عند فقد الماء وعند العجز عن استعمال الماء، سواء في الطهارة الصغرى وهي الصلاة، أو في الطهارة الكبرى وهي غسل الجنابة، وكذلك الحائض أو النفساء إذا فقدت الماء أو عجزت عن استعماله، فإن التيمم يقوم مقام ذلك، فتصلي بذلك وتحل لزوجها، فضلاً من الله وإحساناً سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ الظاهر من السياق أن «منه» للتبويض، وأنه لا بد للتيمم من شيء يعلق باليد، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال قوم بظاهر الآية، وقال آخرون: لا يشترط ذلك، بل يمكن أن يمسح على كل شيء من حجر وأرض صلبة ونحو ذلك، ولا يشترط أن يكون فيها شيء يعلق باليد من الغبار ونحو ذلك. والأقرب هو الأول كما هو ظاهر القرآن وظاهر السنة، ولكن عند العجز عنه يكفي ما تيسر، فإذا لم يجد تراباً ليس له غبار تيمم بما عنده من رمال أو نورة أو سبخات أو غير ذلك، وكان النبي ﷺ يسلك الطرق الرملية وغيرها فلا يحمل معه التراب، فالإنسان يتيمم من الأرض التي هو فيها، فإن كان في أرض ترابية تيمم بالتراب ومسح، وإذا علق الكثير نفخ فيه =

= كما نفخ النبي ﷺ، لي طرح ما زاد على الحاجة، وإن كان في أرض ليس فيها تراب فيه غبار كأرض السبخات وأرض الرمال وأشباه ذلك والأرض الصلبة، فيتيمم بها وجد، والحمد لله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَنَهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الآيات فوائد تُعرف بالتدبر والتعقل، وتُعرف من كتب التفسير لمن أراد. والله ولي التوفيق.

سورة الأنفال

[توجيهات حربية للمؤمنين]

❁ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدُهُمْ ذُبْرَهُ إِلَّا أَلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيدُ ۝١٦ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ؕ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ؕ وَلِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ؕ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝١٨ إِنَّ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ❁ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۗ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
 لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
 وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ
 بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۗ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً
 لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
 تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَوْرِكُمْ ۗ وَآيَدِكُمْ بِنُصْرِهِ ۗ وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطِّيبِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ❁ [الأنفال: ١٥-٢٦]. [٣٤]

[شرح ٣٤] يُبَيِّنُ رَبُّنَا عِزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَحْكَامًا كَثِيرَةً،
 وَشَوْوَنًا عَظِيمَةً، إِذَا أَخَذَ بِهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ اسْتِقَامَ لَهُمْ أَمْرُهُمْ،
 وَصَلَحَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، كَمَا يَبِينُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ
 الْآيَاتِ مَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ عِنْدَ لِقَاءِ الْكُفَّارِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ
 عَلَيْهِمُ التَّصْمِيمُ وَالصَّدَقُ فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ وَجِهَادِهِمْ، وَالْحَذَرُ مِنَ
 الْإِنْحِرَافِ وَالتَّوَلَّى عَنِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا =

= الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ
 مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
 وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ وهذا يبين أن الواجب المضيُّ قُدماً عند لقاء
 الأعداء، وعدم التولي، وأن يكون المؤمن في غاية من النشاط
 والقوة في مساعدة أولياء الله، وإعانتهم على قتال أعداء الله، ولا
 يحمله الجُبْن وخوفُ الموت على التأخر والتولي عن أعداء الله، بل
 يُقدم وَيصبر وَيُصابِر، والله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بنصره
 وتأييده، فهو سبحانه فوق العرش ولكنه مع أوليائه بالنصر
 والتأييد والتوفيق والترشيد.

والمَعِيَّةُ مَعِيَّتَانِ، معية خاصة: وهي مَعِيَّةُ اللَّهِ مع أوليائه، ومع
 الصابرين، ومع المحسنين، ومع المتقين، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافُوا إِنِّي
 مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿لَا تَخْزَنَ
 بِرَبِّكَ اللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
 الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: =

= [١٩]، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فمن صبر على جهاد أعداء الله، وصبر على أداء حق الله، فالله معه سبحانه وتعالى بالتأييد والنصر والتوفيق، وشرح الصدر، وإنزال الرعب في قلوب الأعداء، فالله ينصر أوليائه بأنواع من النصر، ومن التثبيت على القتال، وشرح الصدور، وتقوية الإيمان، والإمداد بالملائكة، وما يُوقعه سبحانه في قلوب الأعداء من الرعب والضعف وعدم الثبات، فهو ناصرٌ أوليائه ومعينهم سبحانه وتعالى، ومعية عامة وهي لجميع خلقه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

ويبين جل وعلا أن المتحيز إلى فئة أو المتحرّف لقتال، ليس ممن يولي الأعداء، فإذا تحرّف أحد المجاهدين من مكان إلى مكان ومن صفٍّ إلى صفٍّ ليتهيأ للقتال وليساعد إخوانه على أكمل ما يكون، فليس هذا بإدبار، كذلك من انتقل من جهة إلى جهة، ومن صفٍّ إلى فئة لأجل المقاتلين، لأمر دعا إلى ذلك، لا فراراً من القتال، وولي الأمر ينظر في تدبيره وتوجيهه إلى الجهة التي يراها، =

= فولي الأمر فئة ومرجع، كما قال النبي ﷺ للناس: «أنا فتتكم»^(١).

وبيّن سبحانه وتعالى أيضاً أن المؤمنين لم يقاتلوا الناس بقوتهم ولا بجهدهم فقط، بل الله معهم سبحانه وتعالى، فهو الذي سدّد قتلهم، وصوّبه حتى أصابوا العدو فانهزم ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ فالأمر بيده جل وعلا، فهو مسدد العباد وموفقهم، وليس الإنسان بمجرد كونه أعمل السلاح، أو كونه قابلاً للأعداء، أو أطلق الرمية - يجب أن ينجح، فقد يقاتل الأعداء ولا ينجح، وقد يطلق الرمي ولا ينجح، وقد يضرب بالسيف ولا ينجح، فالأمر في حد ذاته يرجع إلى الله عز وجل في تسديد إصابة الرمية وتوفيق الرامي للنجاح في قتاله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فهو الموفق للمقاتلين وللمجاهدين حتى ينشطوا وحتى يقووا، وحتى تصيب ضرباتهم ورمياتهم لأعداء الله عز وجل، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن لا تصيب طاشت، وسلم المقاتل، كما هو واقع في مواقع =

(١) أخرجه الترمذي: الجهاد عن رسول الله (١٧١٦).

= كثيرة وحوادث كثيرة.

وَيُبَيِّنُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ حَتَّى لَا يَجْبُنُوا وَحَتَّى لَا يَضْعُفُوا، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَدِّرُ مَا يَقْدِرُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ لِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ بِلَاءِ حَسَنًا، وَلِيَنْظُرَ جُهُودَ الصَّابِرِينَ، وَصِدْقَ الصَّادِقِينَ، وَصَبْرَ الصَّابِرِينَ، وَذِكْرَ الذَّاكِرِينَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيَبْتَلِي هَؤُلَاءَ بِهَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ بِهَؤُلَاءَ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ صِدْقُهُمْ وَنَجَاحُهُمْ وَثَبَاتُهُمْ وَقَوَّتُهُمْ وَصَبْرُهُمْ وَإِقْدَامُهُمْ، وَحَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنَ الْكُذَّابِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِحْجَامُهُمْ وَجُبْنُهُمْ وَخَوَرُهُمْ وَضَعْفُهُمْ وَتَأْخُرُهُمْ، فَهُوَ إِبْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لِيَرْفَعَ أَقْوَامًا وَيَضَعَ آخَرِينَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لِيَرْفَعَ أَهْلَ الصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْمَوَاطِبَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَيَضَعَ أَهْلَ الْجَبْنِ وَالْخَوَرِ وَالضَّعْفِ وَالتَّأْخِرِ وَالْإِنْحِرَافِ.

وكذلك يُبَيِّنُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا الْوَاجِبُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا شَاءَ وَفَقَّ قَوْمًا فَأَسْمَعَهُمُ الْحَقَّ وَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا شَاءَ =

= خذل آخرين من أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة.

ويبين سبحانه أن شر الدواب عند الله هم الصم البكم، من البشر والجن الذين لا يبألون بالحق ولا يستمعون له ولا ينطقون به، بل هم في غاية من الصمم والبكم عن الحق، فلا أذن تسمع وتصغي، ولا لسان ينطق بالحق ويدعو إليه، بل هم في شر عظيم، وهم من أخبث الدواب، والإنسان دابة تمشي على قدميها، لكن الله يكرمه بالحق والهدى إذا استقام، فيكون من خير الناس ومن أفضل الناس، ويهينه ويذله إذا مال عن الحق والصواب، فيكون من شر الدواب، نعوذ بالله.

ثم يبين جل وعلا أن الاستجابة لله وللرسول فيها الحياة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فالحياة في طاعة الله ورسوله، والاستجابة لله وللرسوله، ومن أعرض عن ذلك فهو في غفلة، وإن لم يشعر بذلك، فلموت قلبه وانحرافه، قال جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، =

= فالحياة الطيبة في طاعة الله ورسوله، والشقاء والهلاك والموت في الإعراض عن الله ورسوله، وعدم طاعة الله ورسوله. ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا^٥ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِنَّا^٦ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ^٧ مَن نَّشَاءُ^٨ مِّنْ عِبَادِنَا^٩ وَإِنَّكَ لَنَهْدِي^{١٠} إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ^{١١}﴾ [الشورى: ٥٢]، فالله جعل الوحي روحاً، يعني: أن الوحي الذي جاء به النبي محمد ﷺ روحٌ تحصل به الحياة، ونور تحصل به البصيرة، فمن فاته هذا الوحي ولم يوفق للانتفاع به وللإستفادة منه، فهو لا يزال في ظلمته، وفي موته، فالحياة والنور والسعادة والبصيرة في قبول هذا الوحي والانتفاع به والإستفادة منه والسير عليه. وأما إذا أعرض عن ذلك فإنه تفوته الحياة الطيبة ويفوته النور، كما قال عز وجل: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ^{١٢} وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ^{١٣} فِي النَّاسِ^{١٤}﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن قبل الوحي واهتدى بهدى الله فقد حصلت له الحياة، ومن تعلم وتبصر في الدين حصل له النور، فإذا أعرض عن ذلك فلم يقبل الحق ولم يتبصر فيه ولم يتفقه فيه، فقد فاتته الحياة وفاته النور، نعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله السلامة.

سورة التوبة

[إعلان الحرب على المشركين]

❖ قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ ۗ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝١﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ ۗ وَرَسُولُهُ ۗ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ
الْآلِيمِ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۗ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ
كُلَّ مَرْصِدٍ ۗ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ [التوبة: ١-٥]. [٣٥]

[شرح ٣٥] هذه الآيات من سورة براءة، وهي سورة عظيمة، قالوا فيها: إنها الفاضحة، وإنها المثيرة؛ لأنها فضحت أهل النفاق وبيّنت أفعالهم السيئة.

وبيّن الله جل وعلا في صدرها براءته سبحانه وبراءة رسوله من أهل الشرك بالله والكفر به جل وعلا، وحرّض رسوله والمؤمنين على قتال أهل الشرك، وتبذير عهدهم إليهم.

وكان النبي ﷺ بعدما هاجر أُذِن له في القتال، ثم أُمر بالقتال لمن قاتله، والكفّ عمّن كف عنه كما في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

ثم إن الله سبحانه لما أعان المؤمنين وجمع شملهم، وقوي جندهم بعد فتح مكة، وصار لهم دولة عظيمة، وجهاد كبير في الدعوة إلى الله عز وجل، وجهاد أعدائه، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقاتل المشركين، وأن يصابرهم ويناجزهم، ويقعد لهم كل مرصد، ويمهل من لم يكن له عهد أربعة أشهر، ومن كان له عهد يُردُّ إلى =

= عهده وإلى مدته، وبعد هذا يكون القتال بينهم.

وقال الله جل وعلا: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ^٤ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فبين الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء لا يُخَلَّى سبيلهم إلا إذا تابوا إلى الله من الشرك، والتزموا التوحيد، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة.

وهذه الأمور الثلاث هي أعلى أركان الإسلام وأهمها، ومن أتى بها عن إيمان واقتناع أتى بالبقية والتزم بالبقية؛ ولهذا جاء في النصوص الكثيرة الاقتصار على هذا الكلام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ^٥ وَنُقِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١]، وفي سورة «لم يكن»: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ^٤ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وكذلك مثل قول رسول الله عليه الصلاة والسلام في

الحديث الصحيح في حديث ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس =

= حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله عز وجل»^(١).

ومثل ما في حديث معاذ رضي الله عنه حينما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، أوصاه بأن يدعو الناس إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، ثم الصلاة، ثم الزكاة... إلى آخر الحديث^(٢).

هذه الأشياء، وهذه الأمور الثلاثة هي الأصول العظمى للدين، وأعظمها: توحيد الله والإخلاص له وترك الإشراك به.

ثم إقام الصلاة.

ثم إيتاء الزكاة.

فإذا التزم العبد بهذه الأمور، وإذا اعتصم بها عن إيمان وعن يقين؛ أذى ما سواها من الصيام والحج والجهاد، وغير هذا من =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٣٩٥)، ومسلم: الإيمان (١٩).

= أمور الدين وترك المحارم.

وبهذا بيّن الله سبحانه وتعالى أن المشركين الذين ليس لهم عهد؛ فإنه يمهلهم أربعة أشهر، قال تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ينظروا لأنفسهم إما يقاتلوا وإما يسلموا. وأما من له عهد فيبقى على عهده حتى ينتهي عهده.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد هذا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا، يبيّن لنا أن المشركين إذا طلبوا من المسلمين أن يسمعوا القرآن وأن يسمعوا السنّة؛ فإنهم يُجَارُونَ؛ فإذا سمع ما يريد من كلام الله، وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام، بعد هذا يُرَدُّ إلى مَأْمَنِهِ، ويردُّ إلى بلاده، ولا يُنَالُ بسوء؛ لأنه جاء بأمان ليسمع كلام الله، ويبيّن له شرع الله؛ فإن أسلم فالحمد لله، وإلا رُدَّ إلى بلاده.*

* س: هل يُقاتل المسلم على ترك الحج؟ أو على ترك الصوم؟ =

= ج: لم يرد في هذا شيء، إنما يقاتلون على ترك الصلاة، وترك التوحيد، وترك الزكاة؛ لكن من أصر على ترك الصيام وترك الحج وهو قادر فيستحق التأديب؛ يعززه الإمام، ويؤدبه حتى يتوب. أما إذا جحد وجوب الصيام أو جحد وجوب الحج مع الاستطاعة؛ فهذه ردة عن الإسلام، يُقتل.

س: المستتاب بالكفر، إذا قتله الإمام حدّاً مثلاً، هل يصلّى عليه، وهل يرثه أهله؟

ج: هذا يُعتَبَرُ كافراً، ولا يصلّى عليه، ففي ترك الصلاة مثلاً، أو في سب الله، أو أي ناقض من نواقض الإسلام، هذا يكون مرتداً - نسأل الله العفو والعافية - قال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١)، ولا يرثه أقاربه المسلمون؛ بل يكون لبيت المال.

س: هل يجوز استقدام الكفرة للعمل في بلاد المسلمين؟

ج: الكفرة لا ينبغي توريدهم معها أمكن إلا عند الضرورة.

س: والمسلمين الذين لا يدرون الشريعة؟

ج: المسلمون شيء آخر، فالمسلمون إذا جاؤوا في عمل وكان منهم

جاهل، وجّهوه إلى الخير، يؤمّرون بالمعروف ويُنهون عن المنكر، ولو أنهم

غرباء، - يجب على أهل الإسلام أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر - =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٣٠١٧).

= ولا يقال: هذا يَمَنِيٌّ أو هذا شامي أو هذا مصري، ولكن يجب أن يؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، من أي جنس كان.

أما إذا كانوا كفاراً فلا ينبغي استعمالهم معها أمكن ولا سيما في الجزيرة العربية؛ لأنها بلاد الإسلام ومهد الإسلام، فلا ينبغي أن يؤتى إليها بالكفار إلا بصفة مؤقتة عند الضرورة إليهم، ثم يُبْعَدون، وما أمكن الاستغناء عنهم بأهل الإسلام فهو الواجب. وهكذا في بلاد أخرى غير الجزيرة.

س: هل تجزئ الصلاة في البيت بدون عذر؟

ج: الصحيح أنها تجزئ، ولكن صاحبها يستحق أن يؤدَّب إذا صلى في البيت بدون عذر، فلا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ أمر أن يصلى في المساجد، وقال: «من سمع النداء فلم يأتِه، فلا صلاةَ له إلا من عذر»^(١)، وكذلك جاءه الأعمى يستأذنه، قال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد؛ فهل لي من رخصة أن أصلي في بيتي؟ فَرَّخَصَ له، ثم قال له: «هل تسمع النداء للصلاة؟» قال: نعم. قال: «فأجب»^(٢)، وفي رواية: «لا أجد لك رخصة»^(٣)، وهمَّ الرسول ﷺ أن يحرق على المتخلفين بيوتهم؛ لأنهم لا =

(١) أخرجه أبو داود: الصلاة (٥٥١)، وابن ماجه: المساجد (٧٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: المساجد (٦٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود: الصلاة (٥٥٢)، وابن ماجه: المساجد (٧٩٢).

= يشهدون الصلاة في الجماعة في المساجد^(١)، وكذلك همّ بمن تخلف عن الجمعة أن يحرق عليه بيته.

فالمقصود أن كل هذا يدل على أنه يجب أداء الجُمُوع والجماعات في المساجد، وهذا فرض عين، ولكن الجمهور ذهب إلى أنها تصح لو صلاها في البيت مع الإثم، ولا يلزمه الإعادة. وقال قوم: بل تلزمه الإعادة، وجعلوا الجماعة شرطاً لذلك.

والحاصل الذي عليه جمهور أهل العلم أنها تصح مع الإثم؛ فيلزم أن يحضر في المسجد، ويصلي مع الناس.

ولا يكفي أيضاً صلاتها جماعة في البيت، فليس له ذلك؛ لأن الرسول ﷺ أمر الأعمى - وهو ليس له قائد - أن يحضر ويصلي مع الجماعة، فكيف بالبصير القادر؟! كذلك همّ بحرق بيوت من لا يشهدون الصلاة، ولم يقل: لا يصلون جماعة في بيوتهم؛ بل قال: «قوم لا يشهدون الصلاة مع المسلمين في المساجد». وهذه المساجد عمّرت لهذا الأمر، لما يُقام فيها من شعائر الإسلام الظاهرة العظيمة؛ فلا يجوز أن يتخلف الناس عن هذا.

والفارق بين بلاد الكفر وبلاد الإسلام في الظاهر: إقامة الشعائر، وإقامة المساجد، والصلاة فيها، فليست عمارتها بأن تُقام بالحجر والإسمنت =

(١) أخرجه البخاري: الأذان (٦٤٤)، ومسلم: المساجد (٦٥١).

= والحديد، وأن تُزَيَّنَ ومُحَسَّنَ بالأصباغ، أو بغير ذلك، فهذا ليس عمارة لها، بل عمارتها؛ أن تُعَمَّرَ بطاعة الله؛ بالصلاة والقراءة، وحلقات العلم، والاعتكاف وذكر الله وقراءة القرآن.

س: بناءً على الآيات الواردة في سورة براءة الأمر بقتال المشركين حتى يدخلوا في الإسلام، لا بد من إعداد العدة، وإعداد العدة اليوم لا يحصل إلا بالآلات التي اخترعوها، وهذا لا يحصل إلا بالاختلاط بهم والاكتماب من بعض أخلاقهم في بعض الأحيان، فما هو الموقف أحسن الله إليك؟

ج: يقول الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فيجب إعداد القوة لهم بإيجاد المصانع، وإيجاد المخترعين والمهندسين.

س: وإن احتجنا إلى الخبراء منهم؟

ج: لا بأس إذا احتيج إليهم؛ مثلما أقرَّ النبي ﷺ اليهودَ بخيبرَ للحاجة، ثم أُجِّلُوا بعد السنة، ومثلما احتاج عبد الله بن أريقط الدَّيْلِي ليدلَّهُ على الطريق إلى المدينة، فهذه أشياء مؤقتة، فإذا احتيج لهم مؤقتاً فلا بأس، وقد يجب عند الحاجة إلى ذلك بما يتعلق بالإعداد الذي يجمله المسلمون، ويحتاجون إليه، فلا بأس أن يُسْتَعَانَ بهم في هذه المسائل.

= س: ولو بالذهاب إلى بلادهم؟

ج: في هذا تفصيل، فإن أمكن أن نجيء بهم ليعلموا ثم يُعَدُوا فهو أسلم من الذهاب إلى بلادهم، وإن دعت الحاجة إلى ذلك فضرورة، ويُختارُ الناسُ الطيبون، الذين يصلح وجودهم هناك؛ لعلمهم وفضلهم وديانتهم وتعليمهم وتوجيههم إلى الخير؛ حتى ينفعوا هناك دعوة وتعلماً، ويستطيعون أن يدافعوا عن الإسلام، وأن يزيلوا الشبهات، وأن يدعوا إلى الله عز وجل، ويتعلموا أيضاً ما يحتاجون إليه. أما إرسال الشباب الضعيف والناس الذين ليس عندهم بصيرة، فهذا لا يجوز؛ لأن إرسال الجاهل خطر، ولو كان شيخاً كبيراً، لأنه يتعلم منهم شرهم، ويغترُّ بشركهم، وتشكيكهم، وشبهاتهم، فلا يذهب إليهم إلا المتعلم المتبصر، الذي يستطيع أن يدافع عن دينه ويُدبِّ عنه، وأن يُعلِّم غيره، ويزيل الشبهات، إذا أدليت عليه، والله المستعان.

[سلوك رجال الدين من

اهل الكتاب والتحذير منه]

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا
كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا
أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ
وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي
الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا

لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ^٤ زَيْنَ لَهُمْ
 سُوءَ أَعْمَالِهِمْ^٥ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾
 يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ^٦ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ
 الْآخِرَةِ^٧ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
 ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا^٨ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ
 لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا^٩ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
 سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
 كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى^{١٠} وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
 الْعُلْيَا^{١١} وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٣٤-٤٠]. [٣٦]

[شرح ٣٦] ربُّنا عز وجل ينادي أهل الإيمان، مخبراً لهم بحال هذه
 الطوائف الثلاث، ليحذروا أخلاقهم الذميمة، وهذه الطوائف
 الثلاث هي: الأحرار والرهبان والتجار الكانزون للمال. =

= فالأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد، والكانزون: هم أهل الأموال. فيخبر عباده من أن هذا واقع، وأن هؤلاء مُتَوَعَّدُونَ بالعذاب الأليم بسبب ما فعلوه من أكل أموال الناس بالباطل، ومن الصَّدِّ عن سبيل الله، ومن عدم الإنفاق من تلك الأموال في سبيل الله.

والمعنى: أيها المؤمنون، احذروا هذه الأخلاق، واحذروا هذه الصفات، فقد كان فيمن قبلكم في بني إسرائيل وفي غيرهم - من كان بهذه الصفة - من كان عالماً، لكنه لم ينفعه علمه، بل أكل أموال الناس بالباطل، وصدَّ الناس عن الحق، بسبب اتِّباع الهوى، وكان في الناس ممن قبلكم كان فيهم العباد والرهبان أيضاً، ولكنهم لم تنفعهم عباداتهم، بل صاروا يأكلون أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، من الرُّشَا والرِّبا وغير ذلك من أنواع الأكل بالباطل. ومع هذا ما كفاهم، بل هم يصدون عن سبيل الله، يصدون الناس عن الحق بتلبيس الحق عليهم، وإدخالهم في الباطل بأنواع الشُّبه، وأنواع التسفيه، وأنواع الخداع؛ حتى لا يُفطنَ لهم، =

= وحتى لا يُعَرَفَ باطلهم، وحتى يلتبس على الناس أمرهم في
أكلهم أموال الناس بالباطل.

هذان الصنفان: الأخبار والرهبان، وهم الذين اتخذهم بنو
إسرائيل أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فإياكم يا
معشر أمة محمد أن تفعلوا مثل هؤلاء، وأن تصيروا إلى خُلُقهم
الذميم الذي غضب الله عليهم بسببه، وواعدهم النار، وساءت
سمعتهم وساءت أخبارهم بسبب ذلك.

ثم يحذّر أيضاً أهل السَّعة والمال من أن يكونوا مثل هؤلاء
الكنّازين الذين كنزوا الأموال ولم ينفقوها في سبيل الله؛ وفي
الجهاد، وفي طاعة الله ورسوله، ولم يخرجوا حقوقها، بل كنزوها
لحاجاتهم ولشهواتهم، أو كنزوها بُخلاً وُشْحاً حتى لم ينتفعوا بها لا
هم ولا غيرهم، بل حُرِّموا خيرها وصار عليهم وبأهلها! فبعض
الناس قد يكثر المال ولا ينتفع به، بل همُّه الحرص والجشع والجمع،
ولكن لا ينتفع بذلك، فلا يأكل ولا يشرب إلا يسيراً، وربما كان =

= يأكل على حساب غيره، ويكنز المال ويحفظه حتى يكون لمن بعده، فيكون عليه إثمُه ويكون لمن بعده منفعتهُ.

وكما أن هذا واقع فيمن قبلنا فهو واقع في هذه الأمة أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشْبَرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ»^(١). فكما أن في بني إسرائيل وغيرهم من الأحرار مَنْ لم ينفعه علمه، ولم يُظهر علمه للناس، بل كتّمه، وأكل المال بالباطل، وصدَّ عن سبيل الله اتّباعاً للهوى وإيثاراً للعاجلة، فهكذا في هذه الأمة مَنْ فعل ذلك من علماء السوء، وهكذا كان العبّاد الذين صدّوا عن الحق، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتظاهروا بالعبادة وهم براءٌ منها، فكذلك هنا في هذه الأمة وقع ذلك.

وهكذا الكنازون، كما كان فيمن قبلنا كنازون لم ينتفعوا بأموالهم، ولم ينفعوا بها الناس، ولم ينفقوها في سبيل الله؛ فصار عليهم آثامها، وصار لغيرهم نفعها، فكذلك في هذه الأمة وقع ذلك. =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩).

= فيجب الحذر من هذه الصفات الذميمة، ويجب على طالب العلم أن يُعنى بإظهار علمه والعمل به، والحذر من أن يكون هذا العلم سبباً لدخوله النار.

وهكذا العابدُ عليه أن يتقيَ الله، وأن يُخلص في عمله لله سبحانه وتعالى، وأن يكون داعيةً خيرٍ بحسب ما أعطاه الله من علم وعبادة، وألا يكون سبباً وداعيةً إلى ضلالٍ غيره وهلاكٍ غيره، كما أهلك نفسه.

وهكذا صاحب المال، يشكر الله على ما أعطاه له من المال، وينفق في سبيل الله، في وجوه الخير، في الجهاد، في تعمیر المساجد، في الإنفاق على الفقير والمسكين وابن السبيل إلى غير ذلك، وفي أداء الحقوق من زكاة وغيرها، حتى لا يكون هذا المال وبالاً وشرّاً عليه، ولكي لا يدخل في هذا الوعيد العظيم: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. هذه الأموال جمعوها وحرصوا عليها، ثم صار عليهم وبالها، فصاروا يعذبون بها يوم القيامة، من كيٍّ في جباههم وجنوبهم وظهورهم - نسأل الله العافية. =

= ثم يقال لهم تقرّيعاً وتوبيخاً وتعذيباً: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، يُخَاطَبُونَ بهذا الخطاب الذي فيه تقرّيعهم، وفيه توبيخهم، وفيه زيادةٌ عذابهم ونكالهم في هذا المال الذي كسبوه وجمعوه، وربما أن يكونوا كسبوه من طرق حرام أيضاً، فقد يجتمع على الإنسان أن يكسب المال من الطرق الحرام ولا ينفقه، فيكون عليه وبالاً، نعوذ بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم؛ هذه هي الشهور الأربعة، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد منفرد وهو رجب ما بين جمادى وشعبان.

وقد خطب النبي ﷺ يوم حجة الوداع فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم...» الحديث^(١)، فبين ﷺ أن الله جل وعلا =

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣١٩٧)، ومسلم: القسامة والمحاربين (١٦٧٩).

= جعل عام حجة الوداع عاماً فيه اعتدالُ الأمور، ورجوعُ الشهور إلى حالها، وكانت قريش تغيرُ الشهور وتنسى بعضها وتعجل بعضها على حسب أهوائها، فربما جعلوا المحرم صفرًا، وجعلوا صفرًا المحرم؛ لأهوائهم وقصدتهم الإغارة على أحد، والتعدي على أحد، إلى غير ذلك، فهم يلعبون في الشهور، فكانت سنة حجة الوداع - بحمد الله - سنة استدار فيها الزمان، ووافق عدة الشهور عند الله عز وجل على حالها، ليس فيها تغيير، واستمر الأمر على ذلك على حاله، فذو القعدة هو ذو القعدة، وذو الحجة هو ذو الحجة، والمحرم هو المحرم، فالنسيء الذي فعلوه قد ذهب، واستدار الزمان في حجة الوداع وعاد كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض ورتبه سبحانه وتعالى.

وفيه التحذير من ظلم النفس في هذه الشهور، وأن الواجب على المسلم أن يحذر ظلم نفسه بالمعاصي والسيئات في جميع الشهور - وإن كانت في المحرم أشد من غيرها، وأكد من غيرها - لكنه منهي عن ظلم نفسه بالمعاصي والشرك في جميع الزمان في السنة كلها، عليه أن يحذر ما حرم الله عليه، وأن يؤدي ما فرض الله عليه =

= في جميع الزمان، حتى يرضى ربه عز وجل. فالعبادة ليست خاصة بزمان دون زمان، بل في كل الأزمان، فالمسلم يتقي الله في جميع الزمان، ويؤدي فرائض الله في جميع الزمان، ويحذر محارم الله في جميع الزمان، والمعاصي ظلم للنفس، وأعظم الظلم: الشرك بالله والكفر به سبحانه وتعالى، ثم يلي ذلك ظلم البدع، وظلم المعاصي، فهي أيضاً من الظلم الشنيع الخبيث.

فعليك يا عبد الله أن تحذر الظلم كله، صغيره وكبيره في جميع الزمان، قال الله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يعني: الموت؛ فالإنسان مأمور بالعبادة في جميع الأحوال حتى يلقى ربه، فالرسل هم أعلى الناس، وهم أعلى الطبقات، ثم يليهم جميع الناس، إذ عليهم أن يعبدوا الله وأن يؤدوا فرائضه، وأن يدعوا محارمه في جميع الزمان؛ حتى يلقوا ربهم وهم على ذلك؛ هذا هو سبيل النجاة وطريق السعادة*.

* س: لماذا خاطب الله المؤمنين بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]؟ =

= ج: ﴿أَنَا قَلْتُمْ﴾ يعني: ملتم إلى الهدوء والدعة وعدم الجهاد، وهذا وعيد شديد، يحذرهم من الكسل والتشاغل عن الجهاد، وأنه متى قيل لهم: انفروا، ينفروا فيسارعوا إلى الجهاد ولا يتقاعسوا.

كذلك حين أمرهم: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، المعنى: قاتلوهم جميعاً كما أنهم يقاتلونكم جميعاً لا تقاعسوا، ولا يتأخر بعضكم، بل متى أمر ولي الأمر بالنفير وجب النفير، والجهاد واجب على الجميع، كما أن أعداء الله يقاتلوننا جميعاً ويجمعون جهودهم جميعاً ضدنا، فعلينا أن نقاتلهم جميعاً.

وهذه من الدلائل على وجوب الجهاد، وعلى قتال المشركين بدءاً ودفاعاً، كآية السيف المتقدمة في أول السورة، وهذا هو الذي استقرت عليه الشريعة أن المسلمين يجاهدون أعداء الله بدءاً ومقابلة ودفاعاً، لا دفاعاً فقط كما يظن بعض الغالطين من الناس، بل الشريعة جاءت بالجهاد بدءاً ودفاعاً هذا الذي استقر عليه الأمر، وكانت الشريعة قبل ذلك فيها الجهاد والدفاع فقط، من اعتزّلنا اعتزّلناه، فلما قوي أمر المسلمين وعظم سلطانهم أمرهم الله بما هو أعظم وأنفع لعباد الله وهو بدء المشركين بالقتال.

وأى لوم على الإسلام في هذا، وأي نقص على الإسلام؟ بل هو شرف للإسلام وأهله، وهو دليل على حكمة الله العظيمة، وأنه أرحم =

= بعباده منهم بأنفسهم، كون المسلمين يجاهدون أعداء الله، حتى يخرجوهم من الظلمات إلى النور، وحتى يخرجوهم من أسباب الهلاك إلى أسباب السعادة، وحتى ينقذوهم من الجور والظلم إلى العدل والحق والهدى.

فهذا خير عظيم ورحمة من الله عظيمة، وشرف للإسلام، ومن المحاسن العظيمة أن يبدأ الجهاد، وأن يُغير عليهم المسلمون في بلادهم، وأن يهاجموهم في بلادهم، لا لأموالهم، ولا لذرياتهم، ولا لنسائهم، ولكن يهاجموهم ويبدؤوهم مع الدعوة إلى الله ومع التبليغ، يبدؤوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، لينقذوهم من الشر، ليعبدوهم عن ما هم فيه من الباطل والظلم والجور والعبادة لغير الله إلى عبادة الله وحده، وللعادل الذي في الإسلام، وللراحة والخلق الكريم في الإسلام.

س: بمناسبة ذكر الكتّازين، دلّت النصوص على وجوب الزكاة في كل مال بلغ النصاب وحال عليه الحول، فما الدليل في إخراج المعدّ للإيجار من الزكاة؟ وأن الزكاة لا تجب إلا إذا حال الحول على المال؟

ج: الدليل هو أن الأصل في الأموال أنها مباحة للعباد أن ينتفعوا بها، وأن يتصرفوا فيها كما شرع الله، فجاءت الزكاة تخص شيئاً من المال يخرج لله عز وجل، فوجب التقيد بما جاءت به النصوص في الزكاة، فحدد الزكاة في أموال معينة كالحبوب والثمار والنقدين، وأخذنا، ثم جاءت أدلة تقتضي =

= إخراج ما يعد للبيع والتجارة فأخذنا بها، وبقي ما عدا ذلك على الحال الأولى أن المال لصاحبه، ينفقه فيما ينفعه، ولا يجب عليه أن يخرج إلا ما أمر الله بإخراجه من الزكوات، والإنفاق على الأولاد والأهل ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمس أوسق صدقة»^(١)، فعلمنا أن هناك أشياء فيها صدقة وأشياء ليس فيها صدقة، فالشيء الذي فيه صدقة نخرجه، والشيء الذي ليس فيه صدقة لا نخرجه.

فالمال المُعدُّ للإجارة ليس مالاً مُعدّاً للبيع، وليس من عروض التجارة، وإنما أُعدَّ للتأجير، وليس داخلاً فيما يُعد للبيع، فلم تجب فيه الزكاة، لأن في حديث سمرة على ما فيه من الكلام فقال فيه: «كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نُعدُّ للبيع»^(٢).

فدل ذلك على أن ما لا يعد للبيع ليس فيه شيء إذا كان ليس بنقد وليس من بهيمة الأنعام، وليس من الحبوب والثمار، فإن تلك فيها أنصباؤها وفيها زكاتها، ما بقي بعد ذلك على الأصل وهو الإباحة.

س: ما تجب فيه الزكاة يحتاج إلى مخصص واضح، وليس هناك شيء =

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٠٥)، ومسلم: الزكاة (٩٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود: الزكاة (١٥٦٢).

= واضح في الكتاب؟

ج: القرآن ليس فيه شيء مخصص، كل ما جاء فيه أموال صدقة مطلقة، فجاءت السنة تفسر ذلك وتبين ما فيه زكاة وما ليس فيه زكاة، تبين زكاة الذهب والفضة وبهيمة الأنعام والحبوب والثمار فقط، ولم تأت في غير ذلك إلا ما أُعِدَّ للتجارة، فلا تُخْرَج الزكاة إلا بما جاء به النص يبين حكمه.

س: ابتلي الناس في هذا الزمان بأن عندهم عقارات؟

ج: عساهم يُخْرِجون الزكاة من المال الآخر ويكفي، وإذا أخرجوها من مالهم ونقودهم وما أُعِدَّ للتجارة، فيه خير عظيم عسى الله أن يتقبل ذلك.

س: الذين يقولون: إن السلف الصالح إنما فتحوا البلاد وأسلم أصحاب هذه البلاد بسبب أخلاقهم، ومعاملاتهم... إلخ، لا بسبب السيف، كيف هذا؟

ج: هذا هو الأغلب، وأنه بسبب الإسلام وعلو إيمان وأخلاق المسلمين وصفاتهم الحميدة، فقد هدى الله بهم من هدى، ولكن السيف يؤيد الإسلام ويعين المسلمين على دفع شر أعدائهم إذا عاندوا، ومن دخل في الإسلام بالدعوة إلى الله وبالقرآن فهذا هو المطلوب، كأهل المدينة وغيرهم ممن دخل في الإسلام، ومن أبى وعاند كالروم وفارس فإنهم قُتلوا، فقُتل الرؤساء لكن الرعايا دخلوا في الإسلام، ثم فتحت البلاد فرأوا =

= حسن الإسلام، ورأوا ما فيه من الخير العظيم، لا بالسيف ولكن بما شاهدوا من أخلاق أهله، فإنهم لو ائتمنوا على الجزية لم يُلزموا، لكن تؤخذ الجزية ممن بقي على الكفر من قوم فارس. ولكن أكثرهم دخل في الإسلام؛ لما رأى من خير الإسلام وأخلاق الإسلام والخير العظيم والأخلاق العظيمة والعاقبة الحميدة، وإن كان الرؤساء أبوا إلا بالسيف، فالرؤساء قد يمنعهم حب الرياسة وحب الظهور حتى لا يستجيبوا، لكن متى فتحت البلاد ونشر فيهم العدل ورأوا أخلاق المسلمين وسمعوا كلام الله دخلوا في دين الله.

س: إذا كان عليّ دين عشرون ألفاً مثلاً، ثم أخذتُ أجمعها، فحال عليها الحول عندي، هل أزكي عنها؟
 ج: نعم زكّ، ولو أنها معدة للزواج أو لقضاء الدّين أو لأشبه ذلك، فتزكي عنها إذا حال عليها الحول.

س: أزكيها أنا المدين ثم يزكيها الدائن مرة ثانية؟
 ج: زكّ المال الذي عندك، وزكّ الديون التي عليك، وإذا كنت من المعسرين، فالصحيح أنه لا زكاة فيها.

س: زكاة بهيمة الأنعام تُخرج زكاتها منها أم نقوداً؟
 ج: الأصل أن تخرج منها، لكن ذهب جمع من أهل العلم أنه إذا رأى =

= ولي الأمر أن تُخرج نقوداً فلا بأس؛ لأنها تصلح للفقراء، وأثبت للحق، وأقل للخيانة والكذب، فلا بأس. ويحتجون على هذا بحجج منها: أن الرسول ﷺ أجاز أخذ عشرين درهماً عن جبر النصاب، إذا كانت الزكاة فيها جبر، مثل من يجب عليه جَذَعَة وليس عنده جَذَعَة، يأخذ حِقَّةً ويعطينا حِقَّةً، وهكذا العكس عنده حِقَّةً، ولكن لا يعطي حِقَّةً، وعنده جذعة يسلم الجذعة ويُعطى جُبراناً وأشياء أخرى.

والخلاصة في هذا أن المرجع في هذا المصلحة؛ فمرجع الزكاة مصلحة الفقراء ومواساتهم وما أشبه ذلك؛ فإذا رأى ولي الأمر أن تؤخذ الزكاة نقداً لا عيناً لمصلحة الفقراء، أو لأن أخذ العين قد يفضي إلى موتها لأن البلاد جذب وقحط، فلو أخذها هلكت أو بيعت بأبخس الأثمان، ولو رأى أن بقاءها عند أهلها أصلح لأمر الفقراء؛ فالحاصل أنه يدور مع المصلحة الشرعية.

سورة الكهف

[مثل الحياة الدنيا]

❁ قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٢٢﴾ كِتَابًا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٢٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ؕ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٢٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأَحِيطَ بِشَرِّهِ فَاُصْبِحَ

يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ
أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا
﴿٤٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ
نُسِرَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ
زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا
يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾
* مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا
كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾
 وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا
 مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
 وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ
 يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ^ط وَبُجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ^ط
 وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ
 رَبِّهِ فَاَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ^ط إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^ط وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ
 يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ^ط لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ
 بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ^ط بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ
 دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا
 لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ [الكهف: ٣٢-٥٩]. [٣٧]

[شرح ٣٧] في هذه الآيات الكريبات تذكيرٌ من ربنا عز وجل لعباده
 لحال الدنيا وحقارتها وزوالها وانتهاء أمرها، وأنَّ هناك بعدها أمراً =

= عظيماً، وهو أمرُ العَرَضِ على الله عز وجل، ومجازاة العباد بأعمالهم خيرا وشراً، ثُمَّ مَصِيرُهُمْ إِلَى دَارِ الْهُوَانِ أَوْ لِلنَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَالْحَبْرَةِ.

وَيُذَكَّرُ أَيْضاً بَعْدَ ذَلِكَ بِالشَّيْطَانِ وَحَالِهِ، وَعَدَاوَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ لِبَنِي آدَمَ، تَحْذِيرًا مِنْ طَاعَتِهِ وَحَثًّا عَلَى عِصْيَانِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

وَيُذَكَّرُ بِحَالِ الْعِبَادِ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَجِيءِ الرُّسُلِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالِامْتِثَالِ لَهُمْ.

وَيَحْذِرُ أَيْضاً مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَمَا يُذَكَّرُ وَيُوعَظُ وَيُنَبَّهَ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْعَبْدِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الْاسْتِجَابَةُ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، وَأَنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنِ ذَلِكَ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ، الَّذِينَ يُذَكَّرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَيذَكَّرُونَ بِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ، وَيذَكَّرُونَ بِنِعْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثُمَّ يُعْرِضُونَ عَنِ ذَلِكَ وَلَا يُبَالُونَ وَلَا يَتَّبِعُونَ، وَيَنْسَوْنَ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ وَقَضَايَا خَطِيرَةٍ، وَيَرْتَعُونَ كَمَا تَرْتَعُ الْأَنْعَامُ، =

= ولا يُبالون بها وراء ذلك.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آتَى أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ۗ﴾، فربُّنا عز وجل يضرب الأمثال للناس ليعُوا ويتذكروا، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۗ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، هذا شأن الدنيا، مثلها كمثل هذا النبات الذي بعد نزول المطر يخرج وينمو ويخضر، ويُعجب الناظرين، ثم بعد مدة يسيرة تمر عليه الرياح فييبس ويتكسر، ويضمحل وينتهي.

هذه الدنيا شأنها يظهر عند الناس وبينهم، بينما الإنسان فيها في نعمة وخبرة وسرور وفي عز وغير ذلك من أنواع النعم، فإذا أصابته مصيبة ونزلت به كارثة؛ فتغيرت الأحوال وصار إلى حال أخرى لا تشبه الحال الأولى، فأصبح في ذل وهوان وفقر وحاجة، أو تنزل به مصيبة الموت، فيرفع من هذا النعيم ويزول عنه إلى ما قدم من أعمال سيئة، ومصائب عظيمة وسيئات كثيرة، يَبوء بسببها =

= بغضب الله عز وجل وعظيم عقابه؛ نسأل الله العافية والسلامة.

فالمقصود أن هذه الدار لا يغترُّ بها إلا مغرورٌ، فليست دار نعيمٍ ولا دار إقامةٍ أو دار نُخْلِدُ، ولكنها دارٌ ابتلاءٍ وامتحان، ودار أكدارٍ وأحزانٍ، ودار عملٍ وإعدادٍ للآخرة لمن عَقَلَ. فينبغي للمؤمن وللعاقل أن لا يغترَّ بها، وأن لا يصيرَ فيها كحال الأكثرين الذين ﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، فيجبُ على العاقل أن يتتبه، وأن يعلم أن هذه الدار برزخٌ وليست دار إقامة، ولكنها دارٌ خلقت لغيرها لا للبقاء ولكن للفناء، خلقت ليعمل سكانها ما ينبغي أن يعملوا، ويُعدُّوا ما ينبغي أن يُعدُّوا، وليست داراً للإقامة، وليست داراً للخلد، أو داراً يتنعم فيها أهلها بدون مُنغصات، بل هي دار فيها الأكدار والأحزان، ثم بعد ذلك الزوال والاضمحلال، وانتقال أهلها منها إلى غيرها.

ثم يُبيِّن سبحانه وتعالى أن المال والبنين زينة هذه الحياة ﴿أَمْ أَلْمَأُومَاتٌ لِّأَمْوَالِهِمْ وَالْبَنُونَ وَالزَّوْجَاتُ الَّتِي هُنَّ فِي حُلِيِّهِمْ وَقَالُوا لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَغْتَرَّ بِالْمَالِ، وَلَوْ بَلَغَ مَا بَلَغَ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ وَالرَّفْعَةِ =

= والخدم والقصور وغير ذلك، فهو زائل. وهكذا البنون وإن أعجبوه وإن حموه وإن سعوا في مصالحه، فمصيبرهم إلى الموت والزوال، وقد يكونون بعد ذلك أعداءً في آخر أمرهم، فقد يؤذونه ويضرونه ويسعون في أسباب هلاكه، فلا ينبغي أن يغترّ بالبنين وإن كانوا زينةً في الدنيا، لأنهم قد يكونون بعد ذلك شرّاً عليه وبالأكثر ونكداً، ولا سيما في آخر الدنيا - وفي مثل هذا العصر - عند غربة الإسلام وقلة العلم، وغلبة الشهوات والهوى.

ولهذا قال بعده: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ «البقيات الصالحات»: ما يُقدّم من أعمال صالحة، من طاعة الله ورسوله، ومن أذكارٍ وصلواتٍ وصيامٍ وجهادٍ وأمرٍ بمعروفٍ ونهي عن منكرٍ وغير ذلك، ومن هذا التسبيح والتهليل كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «استكثروا من البقيات الصالحات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١)، أي: هذه الأذكار وأشباهاها من البقيات الصالحات، =

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٧٥)، وابن حبان (٨٤٠).

= والباقيات الصالحات أشمل وأعم، نسأل الله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله* .

* س: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وبين قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]؟

ج: لا مُنافاة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، نعم، فهو سبحانه وتعالى يرى حسناته وما حصل بها من الخير العظيم، ومحو السيئات وما ترتب عليها من الأجور المضاعفة، فهذا يرى حسناته بعشر، وهذا يرى حسناته بمئة ضعف، وهذا يرى حسناته بآلاف الحسنات قد ضُعبت، وهذا يرى سيئاته باقية، وهذا يرى سيئاته مُحِيَّتْ، وهذا يرى سيئاته قد بُدِّلَ بكلِّ سيئةٍ حسنةٍ؛ بسبب توبته الصادقة وعمله الصالح، فلا مُنافاة، فهو سبحانه يرى هذا وهذا ويرى ما يترتب على الجميع.

س: القول القائل: إن إبليس كان اسمه عبد الرحمن، وأنه كان من

الملائكة. ما مدى صحة هذا القول؟

ج: الله أعلم جلَّ وعلا فرُبُّنا أخبر أنه من الجنِّ، وللعلماء في هذا قولان:

أحدهما: أن الجنَّ طائفة من الملائكة يقال لهم: الجنُّ؛ لاستخفائهم =

= وعدم ظهورهم، وأنهم كانوا من جنس الملائكة، ولكن لهم حالة أخرى في الصفة، ثم خرج عن حال الملائكة، وفسق عن أمر الملائكة، وخرج عن طاعة الله وعصى، وتكبر على آدم ولم يسجد، فطرده الله ولعنه وأبعده.

والقول الثاني: أن الجنَّ غير الملائكة، أي: من جنس آخر وعنصر آخر خُلق من النار، كما قال جل وعلا: ﴿وَالْجَنَّ خَلَقْنَا مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وهذا هو الأقرب والأظهر، فإن المخلوقات من الملائكة الإنس والجن أقسامٌ ثلاثة: قسم خُلق من النور: وهم الملائكة. وقسم: خُلق من النار: وهم الجنُّ، وأبوهم ورأسهم الشيطان. وقسم: خُلق من طين: وهم الإنس، ورأسهم وأبوهم آدم عليه الصلاة والسلام.

فالشيطان وذريته الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله وهم أعداؤنا، ومن صلح منهم وأطاع ربه ولم يتشطن مثل أبيه، فهو من إخواننا في الله عز وجل، ولهذا قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿وَأَنَا مِمَّنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن: ١١]، فالمقصود أن الجنَّ فيهم الصالح وفيهم الطالح، فيهم المبتدع وفيهم السنِّي، وفيهم الكافر وفيهم الفاسق. والشياطينُ من الجن هم الأعداء، أي: خرجوا عن طورهم وما يجب عليهم، حتى صاروا أعداء لعباد الله، وصاروا شرّاً على عباد الله، وما من إنسان إلا معه ملك ومعه شيطان، قرينه من الملائكة وقرينه من الشياطين. =

= س: هل يعني ذلك أن الجن أصلهم وأبوهم هو إبليس؟
 ج: هذا المشهور عند جمع من أهل العلم، أن إبليس هو رأسهم
 وأبوهم، كما أن آدم هو أبو الإنس، وهو اختيار أبي العباس ابن تيمية، وابن
 القيم وجماعة.

س: في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾
 [الكهف: ٥٠] أن الملائكة سجدوا لآدم، وكان إبليس من الساجدين، إلا أنه
 رفع رأسه من بينهم؛ فقرأ هذه الآية، فوجد الكتاب قد سبق عليه؟
 ج: هذا كلام باطل ليس له أصل، وهو مُكذَّب للقرآن، فربُّنا - جلَّ
 وعلا - قال: ﴿أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرُ﴾ [البقرة: ٣٤]، أبى السُّجودَ ولم يسجد، وقال
 أيضاً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، فلو سجدَ مع الملائكة
 ما قيل له هذا الكلام.

سورة مريم

[قصة إبراهيم مع أبيه]

❁ قال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ^ع إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

❶ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي

عَنكَ شَيْئًا ❷ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ❸ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ

الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ❹ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ

عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ❺ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ

عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمُ^ع لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا

❻ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ^ع سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا

❼ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى

أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ❽ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ^ع إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ^ع وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ❾ وَوَهَبْنَا

لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ❿ وَأذْكَرُ فِي

الْكِتَابِ مُوسَى^ع إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ❶١ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ

جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتَهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ
نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا
﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا
نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا
مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا
﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا
﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنَزِّلُ
إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۚ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ۚ وَمَا
كَانَ رَيْكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ
وَأَطِيعْ أَمْرَهُ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴿مريم: ٤١-٦٥﴾. [٣٨]

[شرح ٣٨] في هذه الآيات ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام =

= مع أبيه، وقصة موسى وهارون وإسماعيل وإدريس، والثناء على الجميع بالخير العظيم، وأنهم من العباد والبكائين من خشية الله جلّ وعلا، وذكر من خَلَفَ بعدهم من الخُلوف التي أضاعت أمر الله، وركبت محارم الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر من تاب من أعماله السيئة وأناب إلى ربه، وأن الله جلّ وعلا قد وعده الجنة والكرامة والعاقبة الحميدة.

يقول جلّ وعلا: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان صديقاً مع النبوة، والصديق: هو الذي بلغ في الصّدّيقية إلى النهاية، وتصديق أخباره عز وجل، وتصديق من مضى من رسله عليهم الصلاة والسلام، فكان - مع رسالته ونبوته وخُلته - صديقاً أيضاً، فهو رسول، ونبى، وصديق، وخليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، وهو أفضل الأنبياء وأكملهم بعد نبينا محمد ﷺ.

ثم ذكر قصته مع أبيه قال: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ هذا فيه أن الله جلّ وعلا يسمع ويبصر، =

= وأن الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ليست أهلاً لأن تُعبد من دون الله، وفي هذا رد على الجهمية والمعتزلة وأشباههم ممن أنكروا صفات السمع والبصر، فالله جل وعلا موصوف بالسمع والبصر، فهو سميع بصير جل وعلا.

ولهذا بين سبحانه وتعالى على لسان نبيه إبراهيم وخليله، بطلان عبادة غير الله، وأن هذه الأصنام التي تعبدها يا آزرُ ليست صالحة لذلك؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً عن عابديها، بخلاف الرب عز وجل، فإنه يسمع ويبصر، يسمع دعاء الداعين، ويبصر أحوالهم، وهو قادر على كل شيء سبحانه وتعالى، وهو الذي يصلح للعبادة؛ لغناه وقدرته العظيمة، وعلمه بأحوال عباده، وسمعه وبصره وسائر صفاته جل وعلا.

﴿يَتَأْتِبِ إِيَّيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يبين أنه عليه الصلاة والسلام كان عنده من العلوم التي جاءت عن الله عز وجل ما ليس عند أبيه، وأن الواجب على الجاهل أن يتبع العالم وأن يستفيد من علم العالم، فهذا نبي الله تأتيه العلوم من ربه عز وجل =

= فالواجب على أبيه آزر، وعلى غيره من أمته أن يتبعوه وينقادوا له؛ لأنه عنده من العلم والهدى والبصيرة ما ليس عندهم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، يعني: أرشدك إلى صراط واضح سوي ليس فيه اعوجاج ولا خفاء، وهو صراط مستقيم، وهو عبادة الله وحده، وطاعة أوامره وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده، هذا هو صراط الله المستقيم في حق كل نبي من عهد آدم إلى آخر الدهر.

وصراط الله المستقيم: هو الإخلاص لله وأتباع ما جاءت به الأنبياء في كل زمان ومكان، وآخر الأنبياء وخاتمهم هو نبينا محمد ﷺ. وصراط الله المستقيم بعد بعثة محمد ﷺ: هو الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وأتباعه والاستقامة عليه، وهذا هو الصراط المستقيم المذكور في قوله عز وجل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ =

= يبين له أن الواجب عليه: عبادة الله وحده، والحذر من عبادة
 عدو الله - الشيطان -، بطاعة أوامره وركوب ما نهى عنه الرسل
 عليهم الصلاة والسلام، فعبادة الشيطان مصير أهلها النار، وعبادة
 الله مصير أهلها الجنة والكرامة، فإبراهيم يحذر أباه من طاعة
 الشيطان في عصيان الرسل، وعدم طاعة ابنه إبراهيم عليه الصلاة
 والسلام، والرضا بعبادة الأصنام والأوثان، وأن هذه هي عبادة
 الشيطان، فالذي يدعو إلى عبادة غير الله، ويدعو إلى الشرك بالله هو
 عدو الله وعدو أوليائه.

﴿يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
 لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فَإِنَّ مَنْ خَذَلَهُ اللهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ طَاعَتِهِ وَعَنْ وِلَايَتِهِ
 صَارَ وِلِيًّا لِلشَّيْطَانِ - نَعُوذُ بِاللَّهِ - فَإِنَّ هُنَاكَ وِلَايَتَانِ، إِمَّا وِلَايَةَ اللهُ
 بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعَ مَا جَاءَ بِهِ أَوْلِيَائِهِ، وَإِمَّا وِلَايَةَ الشَّيْطَانِ بِعَصْيَانِ
 الرُّسُلِ وَطَاعَةَ الشَّيْطَانِ نَعُوذُ بِاللَّهِ، وَفِي هَذَا الْحَثِّ وَالتَّحْرِيزِ عَلَى
 طَاعَةِ اللهِ وَرِسُولِهِ، وَالحِذْرِ مِمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَرِسُولُهُ.

ثم ذكر امتناع أبيه - آزر - وعدم إجابته للحق، وأمره لابنه أن =

= يهجره، وأن يتركه وما عليه، واستنكاره عليه رغبته عن آلهته، وكل هذا يبين لنا ما جرى بين إبراهيم وبين أبيه من النزاع والخصومة في طاعة الله وتوحيده، وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أبلغ في البيان لأبيه ولقومه، ولكن الهداية بيد الله جل وعلا ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وهكذا موسى وهارون أبلغا وبينا، وهكذا إسماعيل، وهكذا إدريس، وهكذا الأنبياء كلهم، كلهم بلّغوا رسالات الله، وكلهم بلّغوا أمر الله ونهيه، وبلّغوا ما بعثهم به من الحق والهدى، فمن الناس من آمن - وهم القليل -، ومن الناس من كفر - وهم الأكثرون -، فأكثر الخلق عصوا الرسل وخالفوا ما جاؤوا به عليهم الصلاة والسلام.

حتى إن بعض الرسل يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، لأنه ما أجابه أحد، بل يأتي يوم القيامة وقد قتله قومه، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عباس^(١) وغيره، فهذا يوجب للإنسان =

(١) أخرجه البخاري: الطب (٥٧٠٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢٠).

= الحذر من طاعة الشيطان والهوى، وأن الإنسان على خطر في هذه الحياة إن لم يوفق من قِبَل الله عز وجل؛ فالذي ابتلي به الأكثرون من أتباع الهوى وعصيان الرسل هو داء الأولين وداء الآخرين، فيجب عليك أن تحذره لئلا يُصيبك ما أصاب أولئك، وعليك أن تسأل ربك دائماً أن يهديك صراطه المستقيم، وأن يُعيدك من طاعة الشيطان والهوى، وأن يعصمك من أتباع الهوى، وطاعة الشيطان، وعدم الانقياد لأمر الله ورسوله؛ فأنت على خطر ما دمت على قيد الحياة.

ويبين بعد هذا سبحانه وتعالى أنه خَلَفَ بعد الرُّسل وأتباعهم خَلَفٌ؛ والخَلَفُ بالتَّسكين هو خَلْفُ السَّوءِ، أي: جاء بعدهم أناس منحرفون عن الهدى، قد أطاعوا الشيطان، وضيَّعوا الصلواتِ ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ في هذا الحذر: من طريقة الخلوف، والدَّعوةُ إلى أتباع الرُّسل، والاستقامةِ على ما جاؤوا به من الهدى، وأنَّ في طاعة الرُّسل النِّجاةَ والسَّعادةَ والعاقبة الحميدة، كما أنَّ في طاعة الخلوف =

= واتباعهم الهلاك والعذاب والعاقبة الوخيمة، نعوذُ بالله. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدَائِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ فُسِّرَ الْغِيُّ بِأَنَّهُ الْخَسَارُ وَالذَّمَارُ، وَفُسِّرَ بِأَنَّهُ وَاذٍ فِي جَهَنَّمَ، خَبِيثٌ طَعْمُهُ، بَعِيدٌ قَعْرُهُ.

فالْحَاصِلُ أَنَّ مَنْ تَابَعَ الشَّهَوَاتِ وَضَيَّعَ الصَّلَاةَ فَقَدْ أَضَاعَ الدِّينَ، فَالصَّلَاةُ هِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، فَعَبَّرَ بِإِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَاتَّبَاعِ الشَّهَوَاتِ بِأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكَوا الْحَقَّ وَانْحَرَفُوا عَنْهُ إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَالْهَوَى.

ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ طَرِيقًا لِلْخَلَاصِ، وَهُمْ سَبِيلًا لِلنَّجَاةِ، وَذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ نَجَا وَسَلِمَ مِمَّا تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ الَّذِينَ ضَيَّعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] هَذَا فِيهِ تَبَشِيرٌ لِلْمُسْلِمِ بِأَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ نَجَاةٍ؛ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ وَأَنَابَ، وَإِنَّ الْأَبْوَابَ مَفْتُوحَةً لَهُ، فَمَا دَامَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فَلْيُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، وَلْيُسَارِعْ إِلَيْهَا، وَإِنْ فَعَلَ =

= ما فَعَلَ من الشُّرُورِ والمعاصي والبلايا والمِحَنِ.

فالله عز وجل فتح باب التوبة، فليبادر وليسارع بالتوبة إلى الله، والإنابة إليه بِتَرِكِ الذُّنُوبِ والمعاصي والكفرِ بالله عز وجل، والنَّدَمِ على ما مضى منها، والعَزَمِ الصَّادِقِ على أن لا يعود فيها، وبهذا يَقْبَلُ اللهُ توبته، وَيُنْجِزُهُ ما وَعَدَهُ، وَيُحَسِّنُ له العاقبة. ثُمَّ عليه بعد ذلك أن يُتَبِعَ التوبة بالإيمان الصادق، وبالعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: يتوبُ عَمَّا مضى من الذُّنُوبِ، ثم يُتَبِعُ التوبة بالاستقامة على أمر الله، والسَّيرِ على طريقه، والحذرِ مما نهى الله عنه ورسوله، وهذا هو الدليل على صحة التوبة وسلامتها، حين تاب وأتبع التوبة بالإيمان والعملِ الصَّالِحِ؛ فله الجنة والكرامة والعاقبة الحميدة، وهذا يوجب للإنسان أمرين:

الأول: أن يحاسب نفسه وأن ينظر ما قدم، حتى يبادر بالإصلاح والتوبة.

الثاني: البِدَارُ بالتوبة، قبل أن يحلَّ به من أمر الله ما لا قِبَلَ له =

= به، فَإِنَّ الْأَجَلَ لَا يَدْرِي الْإِنْسَانَ مَتَى يَهْجُمُ عَلَيْهِ.

فالواجب أن يبادرَ بالتوبة والإصلاح قَبْلَ أن يُحَالَ بينه وبين ذلك، فالإنسان خطّاءً، وهو محلُّ الذُّنُوبِ، فالواجب أن يحاسبَ نفسه، وأن يجاهدَها لله، ويبادرَ بالتوبة قَبْلَ أن يُحَالَ بينه وبين ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله* .

* س: هل صحّت سجّادات التلاوة كلّها التي في القرآن؟

ج: سجّادات القرآن المتَّفَقُّ عليها عشرة، والمختلفُ فيها خمسة، والصَّوابُ أنَّ فيها السُّجُودُ، فهنَّ خمس عشرة سجدة معروفة، وخصَّصَ منها ثلاثة في النَّجْمِ والانشقاق واللَّيل، والاثنا عشر الباقيون في باقي السور، والصواب أنها باقية وأنها غير منسوخة، فكان النبي ﷺ يقرأ القرآن على أصحابه في بعض مجالسهم، فإذا مرَّ بالسجدة كَبَّرَ وسجد وسجدوا معه ﷺ، حتّى قد لا يجد الإنسان مكاناً لجهته من شدّة الرُّحام في بعض الأماكن، لكن هذه السُّنة أنه إذا مرَّ بآية سجدة يَسْجُدُ، ويسجد معه مَنْ حضرَ، ويكونُ القارئ هو الإمام إذا كان صالحاً لذلك.

س: وما مكان المأمومين من الإمام في سجود التلاوة؟

ج: الأفضل والأولى أن يكونوا خلفه كهيئة الصلاة، لكنّ ظاهر =

= النُّصُوص التي جاءت عن النبي ﷺ ليس فيها دعوة لهذا الشيء؛ لكننا نأخذُه من جهة شروط الصلاة وشروط سجود السَّهْو وسجود الشُّكْرِ، فإذا فعلوها على وجه الصلاة كان أَوْلَى، وهو قول جمهور أهل العلم.

س: هل ورد التكبير في الرفع منها؟

ج: لم يرد، إنَّما ورد في السُّجُود.

س: أوردَ في السُّجُود؟

ج: نعم، ورد في السُّجُود خاصَّةً، في حديثٍ رواه أبو داود، والحاكم بسندٍ جيد^(١)، وإن كان في سنده لين، لكنَّ روايةَ الحاكم من حديث عبد الله ابن عمر لا بأس بها، وجاء من طريق عبد الله العُمَرِيُّ عند أبي داود وطريق أخيه عُبَيْدِ اللهِ عند الحاكم، وعبد الله فيه ضعفٌ، أما عُبَيْدُ اللهِ فثقة.

س: هل هو من طريق المُكَبَّرِ عبد الله؟

ج: عند أبي داود من طريق المُكَبَّرِ، وعند الحاكم من طريق المُصَغَّرِ، هكذا يكون من الطريقتين.

س: وهل ورد التكبير في الرَّفْع؟

ج: لم يرد فيه شيء، إلا إذا كان في الصلاة فيُكَبَّر عند كل خَفْضٍ ورفْع، فإذا كان في الصلاة فالأفضل والأولى أن يكبر عند السجود وعند =

(١) أبو داود: الصلاة (١٤١٣) بذكر التكبير، والحاكم (٢٢٢/١) بدونه.

= الرفع؛ لأن الرسول ﷺ كان يكبر في الصلاة عند كل خفض ورفع، من حديث أبي هريرة^(١)، وفي سجوده عليه الصلاة والسلام، وسجود التلاوة من جملة سجود الصلاة.

س: في التكبير عند الرفع من الركوع، هل يرفع يديه إلى السماء؟
ج: مثل السجود، حذاء منكبيه أو حذاء أذنيه، فعند الرفع من الركوع مثل الركوع.

س: وهل وَرَدَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يكبر خارج الصلاة؟
ج: هذا لم يرد إلا في السجود خارج الصلاة، أما في داخل الصلاة فالأولى أن يكبر عند الرفع والخفض؛ عملاً بالأحاديث الصحيحة المستفيضة أنه ﷺ كان إذا سجد كبر وإذا رفع كبر، فالسجود هذا داخل في جملة سجود الصلاة، فلما سجد فيها كان من جملة سجوداتها.

س: وإذا كان خارج الصلاة؛ من حيث استقبال القبلة؟
ج: هو الأولى، لكنه ليس شرطاً، ولكن إذا فعلوها على هيئة الصلاة كان أولى إذا تيسر؛ لأن جمهور أهل العلم على هيئة الصلاة، فالأولى أن يكون كالصلاة، وكان - عليه الصلاة والسلام - يستقبل القبلة في سجوده.

س: أيكون على طهارة، في السجود خارج الصلاة؟

(١) أخرجه البخاري: الأذان (٧٨٥)، ومسلم: الصلاة (٣٩٢).

= ج: نعم، إذا تيسر سجد على طهارة، ولكنه ليس بشرط، فالجمهور يشترط الطهارة، ولكن الصحيح أنه لا يشترط الطهارة، فيروى عن ابن عمر رضي الله عنه، وعن الشعبي - التابعي الجليل رحمه الله - عدم الاشتراط، وهو أولى لعدم الدليل، فهي من جنس الذكر كأنواع الذكر وقراءة القرآن، ولا يشترط لها الطهارة.

س: أعتبر صلاة؟

ج: لا تعتبر صلاة، بل من باب الذكر والخضوع لله والعبادة.

سورة الحجرات

[من أدب الحديث مع الرسول ﷺ]

❁ قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانفُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ ۗ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۗ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانَ ۗ

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنِ اللَّهِ وَنِعْمَةً^٤ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا^٥
 فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ
 اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا^٦ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ^٧ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ [الحجرات: ١-١٠]. [٤٤]

[شرح ٤٤] في هذه السورة العظيمة فوائد وأحكام جليلة، المسلمون في أشد الحاجة إلى تفهمها وتعقلها والاستفادة منها، ففي أولها: التحذير من التقدم على الله ورسوله، وأن الواجب على أهل الإيمان أن يكونوا متبعين لا مبتدعين ولا متقدمين على الله ورسوله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، قال

أهل العلم في ذلك: لا تقولوا حتى يأمر الله ورسوله، ولا تفعلوا حتى يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام ويشرع؛ فلا تتقدموا عليه بقول ولا بفعل، وكونوا متبعين لما يرسمه لكم وما يوضحه لكم من التشريع، وهكذا يكون أهل الإيمان لا يخترعون من عند أنفسهم عبادات وأحكاماً لا أساس لها في شريعة الله. =

= ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم - جل وعلا - لا تخفى عليه خافية، يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم؛ فيعلم ما قالوا بالحق وغيره، ويعلم ما فعلوا وقالوا بالحق وغيره، فالمعنى: راقبوه - سبحانه - واحذروه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، ويسمع ويعلم بأحوالكم؛ فيجب عليكم أن تكونوا متبعين لا مبتدعين في شريعة الله عز وجل.

ثم يبين سبحانه وتعالى أن الواجب عليهم التأدب معه - عليه الصلاة والسلام - وألا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، ولا يجهروا كجهر بعضهم لبعض؛ بل يتأدبون معه ويكونون خافضي الصوت، يخاطبونه مخاطبة الإجلال والاحترام والتعظيم، لا مخاطبة الند بالند أو فوق ذلك، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لئلا تحبط أعمالكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فرفع الصوت والجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، قد يترتب عليه ما لا تُحمد عقباه من حبوط العمل، والإنسان لا =

= يشعر بذلك، وذلك يدل على وجوب التأدب معه عليه الصلاة والسلام على حضوره ووجوده ومكالمته ومخاطبته، ويؤخذ من ذلك: التأدب مع السنة بعد وفاته ﷺ - وفي حياته أيضاً - ويكون الإنسان تابعاً لها لا متقدماً عليها، ولا يجوز له أن يُحْكَم آراءه ويُحْكَم اجتهاداته المخالفة لشرع الله اعتقاداً منه أن ذلك أولى وأحق مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فيحبط عمله، ويضل عن الدين، ويخرج عن دائرة الإسلام بأسباب ما أحدثه من الردة، نسأل الله السلامة.

ثم يبين سوء أدب من نادى الرسول من وراء الحجرات، وكان ذلك من بعض جفاة الأعراب، كانوا ينادونه: يا محمد، يا محمد، فبين الله لهم أن هذا خلاف الذي ينبغي منهم؛ بل ينبغي الصبر حتى يخرج إليهم ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۗ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۗ ﴾.

بين جل وعلا أن الواجب على الرعية وعلى الأمة التأدب معه عليه الصلاة والسلام وأن يصبروا، وألا يُخرجوه عليه الصلاة =

= والسلام؛ بل ينبغي الصبر حتى يخرج إليهم؛ لأن خروجه معروف وعاداتهم معروفة في هذا، فعلى ذوي الحاجة الصبر من غير سوء أدب؛ بل يصبر ويحتسب ويبقى، أو يذهب ويرجع حتى يأخذ حاجته، أما أن يؤذيه بكلام فلا يجوز، والنبى ﷺ في حجرته، وقد يكون مشغولاً، وقد يكون مستريحاً، إلى غير ذلك، فلا يليق من المؤمن مثل هذا الفعل، ولهذا وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون؛ لأن الغالب على جفاة الأعراب وعلى سكان البادية عدم التبصر بهذه الأمور وعدم النظر لها؛ بل من عاداتهم التكلف وإلقاء الأمور على غير حكمة ونظر بسبب قلة العلم وقلة البصيرة..

ثم يبين جل وعلا أن الواجب عدم أخذ أقوال الناس دون النظر ودون التثبت، ولا سيما إذا جاء خبر من طريق الفساق؛ فإن الفاسق لا يُؤْمَن، فإذا كان فاسقاً فسقاً أصغر لا يُؤْمَن أنه سَلِم من أن يُفتن بفسق أكبر، والمقصود أن من عُرف بفسقٍ فالواجب التثبت من خبره، والمجهول كذلك؛ لأنه قد يكون فاسقاً وأنت لا تشعر، ومن هذا أخذ أئمة الحديث الجرح بالجهل، وأن المجهول =

= من الرواة مجروح لا تقوم به الحجة؛ لأنه قد يكون فاسقاً، فهذا لا يصدّق خبره حتى تثبت عدالته، فقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ يعني: فتثبتوا، فالتثبت: النظر في الأمر والعناية حتى يظهر ما يدل على صدقه أو كذبه، ولا يقال: يُردُّ خبره؛ لأن الفاسق قد يصدق وقد يكون خبره صحيحاً، فلا تعجلوا في قبوله ولا في رده؛ بل تثبتوا حتى توجد دلائل تدل على صدق هذا الخبر أو على كذبه؛ فإن قامت الدلائل على صدقه أخذ به، وإن قامت الدلائل على كذبه رُدَّ على قائله.

وكذلك خبر الكافر، فإن وُجدت دلائل تدل على صدقه أُخذ بخبره بالدلائل على صدقه، لا أنها من رواية الكافر والفاسق والمجهول.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فلو أن الشريعة جاءت بأهواء الناس لأصابهم العنت والمشقة والبلاء ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، ولكنه - سبحانه - هو أحكم وأعلم، فهو يشرعُ لنبيه ﷺ ما هو خير للمسلمين وما =

= هو خير للعباد والمصلحة وإن خالف بعض أهوائهم، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فالحق ليس بأهواء الناس؛ فقد يوافق الحق هوى زيد ولكنه يخالف هوى عمرو، والله أعلم بما هو فيه صلاح العباد، وأعلم سبحانه وتعالى بما فيه نجاتهم؛ فلهذا جاءت الشريعة بأشياء قد تخالف هوى بعض الناس، فلا عبرة بأهواء الناس؛ وإنما العبرة بما شرعه الله ورسوله، والرسول مبلغ عن الله عز وجل وهو المعلم، ولو أن الرسول ﷺ تابع أهواءهم لعنتوا ووقعوا في الحرج والمشقة؛ لأنهم قد يقولون أشياء تضرهم ولا تنفعهم، ولكنهم لا يعقلوها؛ بل سارعوا إليها لأول وهلة، بسبب اتباع أهواءهم، فلو أن الشرع وافقهم في ذلك وجاء بأهوائهم لخرجوا ووقعوا في مضار كثيرة ومهالك لم يعقلوها ولم يفهموها أولاً.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا من

فضله سبحانه وتعالى على الصحابة وعلى كل من تابع الصحابة =

.....

= ودخل في دين الله؛ فالله تفضل عليه بأن حُبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهذا من فضله وجوده وكرمه سبحانه وتعالى، فعلى من رُزق ذلك أن يحمّد الله ويشكره ويستقيم على الأمر ويحافظ عليه، ويسأل ربه الثبات عليه، وقد حكم الله على هؤلاء أنهم الراشدون، قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فمن رُزق هذا الأمر، بأن حَبَّبَ اللهُ إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو الراشد، بالمعنى الكامل ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ حصرياً، كأنه قال: هم الراشدون لا غيرهم، والمقصود: أن هذا يدل على أن فضل الله على العبد بأن يحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه ويكرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهذا من النعم العظيمة؛ ولهذا قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

فجدير بالعبد الموفق لهذا الخير أن يشكر الله كثيراً، وأن يحمده كثيراً بقلبه، وأن يلزم هذا الشيء ويحافظ عليه ويسأل ربه الثبات عليه حتى يلقاه سبحانه وتعالى.

=

= ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه عليم حكيم، وأن ما يرزقه لعباده ويمنُّ بها عليهم عن علمٍ وعن حكمة، لا عن مصادفة أو عن جهل؛ فهو - سبحانه - العليم الحكيم بما يشرعه لعباده، ويهدايته لبعض الناس وإضلاله لآخرين، ومن توفيقه لبعض الناس العلمَ وعدم توفيقه للآخر، إلى غير ذلك، فهو الحفيظ العليم بأقواله وأفعاله وشرعه وقدره سبحانه وتعالى.

ثم يبين جل وعلا ما قد يقع من بعض الطوائف من القتال والفتنة والانقسام والمشاقة، ويبين الواجب على المؤمنين أن مثل هذه الفتنة - متى وقعت - فالواجب عليهم أن يكونوا في صف من بُغي عليه لا في صف الباغي، قال تعالى: ﴿وَلِإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَعَنَيْتُمَا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهذا يبين لنا أن من الواجب الإصلاح أولاً بين المتقاتلين والمتنازعين؛ فإن لم يتيسر الصلح وأبت إحدى الطائفتين وبغت، وجب أن تقاتل الفئة =

= الباغية، وأن يكون المؤمنون الآخرون في صف الذي بُغِيَ عليه؛ حتى تزول هذه الفتنة، وحتى يُقضى عليها.

ثم يُبيّن سبحانه أنهم مؤمنون مع هذا الإنقسام ومع هذا التقاتل، وفي هذا حجة ظاهرة لأهل السنة والجماعة؛ لأن المعصية لا يكفر بها المؤمن ولو كانت قتلاً، وهو معه أصل الإيمان، وإن كانت المعصية تضعف الإيمان وتُلحقه بالفَسَاق إن لم يكن له تأويل؛ لكننا لا نخرجه من دائرة الإسلام، وقد خاطبهم الله أنهم مؤمنون، فقال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فدل ذلك على أن الإيمان موجود، والأخوة موجودة مع هذا القتال؛ لأن القتال متأول، ولأنه قتال لا يخرج صاحبه عن دائرة الإسلام إذا لم يستحلّه - فهذا تأويل - كما علم بذلك أن الإنسان قد يُقتل وقد يُقتل وهو في دائرة الإسلام وفي دائرة الإيمان، لا يخرج عنهما؛ لأن ذلك قتل الذي وقع منه ومقدماته لم يحصل الاستحلال فيما حرم الله، وعاقلته مبرأة من أمر الله؛ ولكنه عن تأويل وعن نظر فيما دعاه إلى ذلك؛ فقد يخطئ وقد يصيب؛ فهما موصوفان بالإيمان والإسلام مع ما وقع منهما من =

= الفتنه والقتال، ومع وجوب قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ومع الأخوة أخوة الإيـان؛ فالمعاصي تُضعف الإيـان وتُنقصه إذا كانت عن غير تأويل، وصاحبها على خطر إن لم يغفر له الله سبحانه وتعالى.

ثم إن القتال ونحوه إذا وقع عن جهادٍ وعن قصدٍ للحق وعن تأويل؛ فصاحبه بين أمرين: إما يكون مُصيباً فله أجران، وإما أن يكون مخطئاً فله أجر؛ كما وقع بين أهل الشام وأهل العراق، وما أشبه ذلك بين عليٍّ وأصحابه وبين معاويةَ وأصحابه، فكلاهما مجتهد، وكلاهما طالب للحق؛ لكن أحدهما أقرب إلى الحق من الآخر وأصوب؛ فيكون له أجران والآخر له أجر واحد من أجل اجتهاده، وخطؤه مغفور، إن شاء الله.

وهكذا ما يقع من المؤمنين من هذا الجنس بالتأويل والاجتهاد؛ فإن صاحبها بين أمرين: إما مجتهد مصيب فله أجران؛ وإما مجتهد مخطئ فله أجر واحد، وفي هذا ردُّ على المعتزلة والقدريّة النُّفاة، وعلى الخوارج أيضاً القائلين بأن المعصية يكفر بها المؤمن أو =

.....

= يخرج بها من دائرة الإسلام، ويقولون بالمنزلة بين المنزلتين. كل هذا من أبطل الباطل عند أهل السنة والجماعة؛ بل صاحبها لا يخرج من دائرة الإسلام ما دام يؤمن بالله واليوم الآخر، وما دام لم يستحلَّ ما حرمه الله عز وجل، وإنما تأول بذلك أو فعل ذلك عن هوى ورغبة في حظه العاجل، مع علمه بأنه ما حرم ذلك الشيء، وهذا الحكم جاءت به النصوص من الكتاب والسنة، وكما ترى في الأخبار عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من أن الله يُخرج من النار مَنْ كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، سواء كان زنى أو قتل أو سرق أو غير ذلك، فهذه المعاصي تُضعف إيمانه وتُنقصه، وتعرضه لغضب الله وعذابه؛ ولكن لا تُخرجه من الإسلام ما دام لم يستحلَّها وغلب عليه الهوى والشيطان. نسأل الله العافية والسلامة.

سورة الحشر

[التقوى وموجباتها]

❁ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١١٨]. [٣٩]

[شرح ٣٩] هذه الآية الكريمة كآيات كثيرات غيرها، يأمر الله بها عباده المؤمنين أن يتقوه، وقد جاء هذا المعنى في عدة مواضع من كتاب الله عز وجل، وذلك يدل على أن المؤمن يُؤمر بالتقوى كما يُؤمر بها غيره.

وقد جاء في آيات أخرى توجيه الأمر إلى جنس الناس ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَأْنٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

= فالعبادة والتقوى مأمور بها جميع الثقلين: الجن والإنس، فكلاهما مأمور بتقوى الله وعبادته، ولهذا خلُقوا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فوجب على كل ذي عقل من الجن والإنس أن يُعنى بهذا الأمر الذي خلُق من أجله، وأن يلتزم بما أمر به، وبما فرض عليه من تقوى الله سبحانه وعبادته وحده دون كل ما سواه.

وتقوى الله: هي توحيدة والإخلاص له ومراقبته بتعظيم أوامره وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده في جميع الزمان والمكان، وهي أيضاً العبادة التي أمرنا بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فإن عبادة الله: هي توحيدة، والإخلاص له، والخضوع له، والذلُّ لعظمته في جميع الشؤون وفي جميع الأحوال، ولا يكون هذا إلا بفعل الأوامر وترك النواهي، أما الذي لا يمثل أمر الله ونهيه، فإنه لم يعبد ولم يتقه.

فأما أمرُ الناس بالتقوى والعبادة، فهو ظاهر؛ لأنهم خلُقوا لذلك، وفيه سعادتهم ونجاتهم، فوجب عليهم أن يتقوا الله وأن =

= يعبدوه ويعظّموه.

وسُمِّي الدين تقوى لأنه يقي من التزمه عذاب الله وغضبه،
 فلهذا قيل للإسلام والإيمان والهدى: تقوى؛ لأن من التزم بالإسلام
 واستقام عليه وقاه الله عذاب الدنيا والآخرة، وأحسن له العاقبة.

وسُمي إسلاماً لما يتضمنه من الذل لله والانقياد له، بفعل
 المأمور وترك المحذور، يقال: أسلم فلانٌ لفلان إذا انقاد له،
 فالإسلام: هو الانقياد، فسمي الإسلامُ دينُ الله إسلاماً؛ لأن أهله
 يلزمهم أن يستسلموا لله، وأن ينقادوا لعظمته، وأن يعظّموه ويُجلّوه
 ويلتزموا أمره ونهيه.

وسُمي إيماناً لأن التزام العبد بما أمر الله به ورسوله، وتصديقه
 لله ورسوله هو الإيمان، فالإيمان مصدر آمن يؤمن إيماناً، مَنْ
 صدَّق، فصاحب الدين والمنتسب للإسلام قد صدَّق الله ورسوله،
 فالتزم بدين الله، وعظّم أمر الله ونهيه، وصدَّق أخباره، فهو مؤمن،
 ويسمى دينه إيماناً.

ويسمى ديننا أيضاً هدى؛ لأن صاحبه مهدي، ولأنه يهدي =

= من التزمه إلى طريق الخير والرشاد.

وسُمي إحساناً لما فيه من الإحسان إلى نفسك، وإلى عباد الله، فأنت بعبادة الله وحده والإخلاص له وعبادته كأنك تراه، قد أحسنت إلى نفسك، وقد أحسنت إلى عباد الله بفعل المأمور وترك المحذور، وبإلزامهم بالحق، وبأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، إلى غير ذلك.

فلهذا يقول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ووجه أمرهم بالتقوى وهم متقون: أن الإيمان ذو شُعَبٍ قولية وفعلية، ظاهرة وباطنية، فهم مأمورون بأن يلتزموها ويعظموها ويستمروا عليها. هذا معنى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: الزموا تقواه وسيروا عليها، وهكذا قوله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، فالنبي رأس المتقين - عليه الصلاة والسلام - فمعنى أمره بالتقوى: هو الأمر بالتزامها والسير والصبر والثبات عليها، وهكذا المؤمنون، يُؤمرون بالثبات على التقوى، ولزومها والسير عليها، والنظر في جميع الشُّعب والفروع التي تتفرع عنها حتى =

= يلتزموها ويأخذوا بها.

فأنت مأمور بلزوم التقوى، ثم مأمور أيضاً بتفقد حالك ومحاسبة نفسك حتى لا تدع شيئاً من التقوى، ولا تفرط في شيء منها، وهكذا يأمرك بالإيمان لتلتزمه وتستقيم عليه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فالمعنى: التزموا الإيمان واستقيموا واثبتوا عليه وسيروا عليه.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: انظروا ماذا قدمتم للآخرة، فلتنظر كل نفس ماذا قدمت لآخرتها، فقد يترتب على الغفلة تضييع بعض الأوامر، أو ركوب بعض النواهي، فإذا حاسب الإنسان نفسه ونظر وتأمل فقد يعرف ما فرط فيه، وقد يعلم ما ركبه من محارم، فيبادر بالتوبة والإصلاح.

فالنظر فيه فوائد: ففيه حساب للنفس، وفيه تتبع لأعمالها وأقوالها، وفيه نظر فيما ضيعت من أمر الله أو تساهلت فيه أو ارتكبتة من محارم الله، فواجب على كل مكلف أن ينظر وأن يتأمل =

= ويحاسب نفسه، وألا يجازف في الأمور، وألا يغفل، فقد يكون على سيئة وهو غافل، وقد يكون مضيعاً لواجب وهو غافل، فوجب عليك أن تنظر فيما أنت عليه، وأن تحاسب نفسك، وأن تنظر ماذا قدمت لآخرتك.

وسُميت الآخرة غداً، تقريباً لها؛ لأنها هي التي تلي هذا اليوم، فالدنيا بمثابة يوم، وبعد هذا اليوم غداً، وهو يوم القيامة، فالدنيا كلها كيوم واحد، من أولها إلى آخرها، فهي أمرٌ زائل منتهٍ له حد، وما بعده هو الآخرة، فجدير بالنفس الزكية، وبمن تعزُّ عليه نفسه، وبمن يهمه خلاصها ونجاتها أن يعد العدة، وأن ينظر للآخرة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ لِّمَآ تَعْمَلُونَ﴾ فإذا اتقى ربّه

وحاسب نفسه عرف ما له وما عليه، كالذي يحاسب نفسه من جهة البضاعة، أو يحاسب شركاءه، فيعرف النتيجة، وهذا أعظم وأهم، فمحاسبة النفس فيما يتعلق بأمر الله وأمر الآخرة، من أهم الأمور وأعظمها؛ لأنك مخلوق لتعبد ربك وتقيه، ومخلوق لتحاسب هذه النفس عن أخطائها وتجاهدها بما يجب عليها.

=

.....

= ونتيجةً المحاسبة أن المؤمن يعرف بعدها ما له وما عليه، فإن ظهر له أنه مستقيم وأن سيره على الهدى ثابت، حمّد الله، وسأله الثبات، وعرف قدر هذه النعمة، وشكر الله عليها، واستمر في الخوف والوجل حتى لا تزول أو يزول بعضها. وإن ظهر له بعد الحساب تفريطٌ وأخطاء كثيرة وأغلاط وعيوب، - وهذا هو الأغلب والأكثر - فعند ذلك يبادرُ بالتوبة وإصلاح ما وقع منه من أخطاء، وما زلّت فيه قدمه، وما أضرّ من أمر الله، وليجاهد نفسه لله، وليتبّ إلى الله مما فرّط فيه، ويجدد له حالاً مع الله في ترك نواهيه والتزام أوامره والوقوف عند حدوده.

[النهي عن التشبه بأعداء الله]

❁ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ^٤

أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. [٤٠]

[شرح ٤٠] ينهانا سبحانه عن التشبه بأعداء الله الذين نسوا الله، يعني: أضاعوا أمره، وتركوه، وعاملوه معاملة من نسي، وقد لا ينسون، لكنهم لا يبالون، فقد غلبت عليهم الأهواء، وشغلوا بالشهوات، وغفلوا عن حق الله، فصاروا على خطر عظيم، وعلى شفا جرف هارٍ.

فينبغي لك يا عبد الله أن تحذر مشابهة أعداء الله الذين أضاعوا أمره، ونسوا حقه، وارتكبوا نبيه، ولم يقفوا عند حدوده، فتهلك كما هلكوا، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني: أنهم لما نسوا الله بإضاعة الأوامر وترك النواهي أنساهم الله أنفسهم، إذ أنساهم أسباب النجاة والسعادة، وهل هناك شيء أعظم من أن تنسى نفسك، وتنسى نجاتها وأسباب سعادتها؟! =

= وهل عند الإنسان شيء أغلى من نفسه ليسعى لنجاتها
وخلصها؟!!

فإذا ضيَّع أمر الله ولم يبالِ، ونسي حقه فإنه هالك، ومن عقوباته
أن ينسيه الله نفسه، فينسى أسباب سعادتها، وينسى أسباب نجاتها،
وينسى أسباب رُقِيَّها ورضا الله عنها، ويقع في ضد ذلك من أسباب
هلاكها وغضبِ الله عليها وسوء مصيرها، نسأل الله العافية.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فَمَنْ نَسِيَ رَبَّهُ وَأَنْسَاهُ اللَّهُ نَفْسَهُ فَهُوَ
الخاسر، وهو الفاسق، والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله، والفسقُ:
هو الخروج عن الشيء، ومن قول العرب: فسَقَتِ الرُّطْبَةُ، أي:
خرجت منها النواة، وسُميت الفُوسِقَةُ - المعروفة -؛ لأذاها
وخروجها عن طبيعة أمثالها من الحيوانات الأخرى التي لا تؤذي.

[حال المتقي]

❁ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. [٤١]

[شرح ٤١] ثم يبين حال من اتقى الله، وهم أهل الجنة، وحال من أضاع التقوى، وهم أهل النار، وأنها لا يستويان، فلا يستوي هؤلاء وهؤلاء.

فهل يحسُنُ بالعاقل ويليق به أن يرضى أن يكون مع الهالكين، وأن يكون مع أصحاب النار؟! لا ينبغي له ذلك، ولا ينبغي له أن يسير في ركاب الهالكين، فالواجب عليه أن يأخذ بأسباب النجاة، وأن يكون حازماً في الأمور كلها، لعلَّه يكون مع الناجين.

ولهذا قال سبحانه: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أصحاب الجنة - الذين أعدُّوا العدة، وسارعوا إلى مرضاة الله، وانتهوا عن محارمه - هم الناجون، وهم السعداء، وهم الفائزون بالعاقبة الحميدة والفضل الكبير والنجاة يوم القيامة.

[عظم القرآن الكريم]

✽ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. [٤٢]

[شرح ٤٢] ثم يبين سبحانه أن هذا القرآن العظيم جدير بأن يتعقله المؤمن، ويُقبل عليه، ويعالج به أمراض قلبه ومجتمعه، وألا يغفل عنه، فهو صراط الله المستقيم وهو جبل الله المتين، وهو الهادي للتي هي أقوم، وهو الشفاء لما في الصدور.

لو أنزل القرآن على جبل أصم مكلف به، وأمر بما فيه لخشع هذا الجبل خشوعاً عظيماً، وهو جبل حجر، ولربما تصدع وتفتت من خشية الله عز وجل، كما في الآية الأخرى في الحجارة: ﴿لَمَّا يَهَيِّطُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، فهي لها إحساس إذا كُلفت بشيء، إحساس يليق بها ويناسبها، وربها سبحانه وتعالى هو الذي يعلم بها.

= فلو كُلفَ الجبل بما في القرآن لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وأنت يا عبد الله، الذي أعطاك الله عقلاً وروحاً وتمييزاً، قد عرضتَ عن هذا الكتاب، ولم تخشع، ولم تخف ما فرطت فيه من تضييع أمر هذا الكتاب. فالمعنى أن هذا الجبل لو كُلف بهذا القرآن لكانت له حال غير حالك، وهذا بالنسبة إلى أغلب الخلق، وإلا فالخلاصة من عباد الله لهم شأن مع كتاب الله، وامثال عظيم وعناية وحذر وإقبال، ولكن أغلب الخلق ليسوا كذلك.

والمقصود من هذا: تنبيهك أنك جدير بأن تُعنى بكتاب الله، وأنت الذي أعطيت عقلاً، ولست كالجماد، إذ يهملك أن تعنى به، وأن تستقيم عليه، وأن تعالج به قلبك حتى يظهر من أمراضه، وأن تعالج أمراض المجتمع حتى يستقيم على طاعة الله ورسوله.

ثم يبين صفاته العظيمة وأسماءه الحسنى، وأنه جلّ وعلا هو الإله الحق الذي لا إله غيره، وأنه مسمى بهذه الأسماء العظيمة:

[أسماء وصفات الله الحسنی]

❁ قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿الحشر:﴾

[٢٢-٢٣]. [٤٣]

[شرح ٤٣] فيبين سبحانه وتعالى هذه الأسماء العظيمة المشتملة على معانٍ جليلة، لتنتبه يا عبد الله لهذه الأسماء، وتتعلّقها، وتعرف منها صفات ربك وأسماءه الحسنی، وأنه جل وعلا المستحق الذي يُعبَد ويعظَّم.

ويختتم آية إنزال القرآن على جبل بأن الآيات إنما تُفصّل وتُوجّه لمن يتفكر ومن يتعقل، والأمثال ليست لغير العقلاء، وإنما توجه وتُضرب لأهل التفكير والتعقل والنظر، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: =

[٤٣]، فأنت يا عبد الله مأمور بالتعقل والتفكر والنظر؛ حتى تستفيد من أمثال الله ومن قصصه وأخباره، ومما يلفت إليه أنظار العقلاء من عبادته؛ لتكون منهم. نسأل الله التوفيق.

فهرس الموضوعات

سورة البقرة

- ٧ ٤٤-٤٠ الآيات - التذكير بنعم الله على بني إسرائيل
- ١٢ ٥٩-٥٨ الآيات - بيان ما وقع لبني إسرائيل من العقوبات
- ٢٠ ١٤٧-١٤٢ الآيات - تحويل القبلة
- ٢٧ ١٦٤-١٥٣ الآيات - فضل الصابرين والمقاتلين في سبيل الله
- ٣٧ ١٧٧-١٦٥ الآيات - التوجيه إلى مكارم الأخلاق
- ٤٩ ١٩٩-١٨٩ الآيات - خلق الأهلّة حكم وأسرار
- ٦٥ ٢١٨-٢١٧ الآيات - حكم القتال في الشهر الحرام
- ٧٤ ٢٢٧-٢٢٢ الآيات - أحكام الحيض
- ٨٣ ٢٤٣ الآية - كيف تحيا الأمم
- ٨٧ ٢٥٧-٢٥٤ الآيات - الحث على الإنفاق
- ١٠٦ ٢٦٤-٢٦١ الآيات - عاقبة المرائي
- ١١١ ٢٧١-٢٦٧ الآيات - بعض أحكام الإنفاق
- ١١٨ ٢٨١-٢٧٥ الآيات - خطورة الربا
- ١٢٩ ٢٨٣-٢٨٢ الآيات - أحكام المداينة
- ١٤٠ ٢٨٥-٢٨٤ الآيات - إحاطة علم الله وتمام ملكه وقدرته

سورة آل عمران

إثبات التوحيد لله، وإنزال الكتب على رسله - الآيات: ١-٧ ١٥٣

إن الدين عند الله الإسلام - الآيات: ١٩-٢٥ ١٦٥

التحذير من موالاة الكافرين - الآيات: ٢٨-٣٣ ١٧٤

عظمة قدرة الله تعالى في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام -

الآيات: ٣٨-٤١ ١٨٧

قصة عيسى عليه السلام - الآيات: ٥٢-٥٥ ١٩٨

من مواقف أهل الكتاب - الآيات: ٦٤-٧٤ ٢١٢

الميثاق المأخوذ على الأنبياء - الآيات: ٨١-٨٦ ٢١٧

نداء لأهل الإيمان - الآيات: ١٠٠-١٠٧ ٢٢٨

فضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم - الآيات: ١١٠-١١٤ ... ٢٣٧

التحذير الشديد من اتخاذ الكفرة بطانة للمؤمنين -

الآيات: ١١٨-١٢٠ ٢٤٦

غزوتنا بدر وأحد - الآيات: ١٢١-١٢٥ ٢٥٥

النهي عن أكل الربا والحث على الإنفاق - الآيات: ١٣٠-١٣٦ ٢٦٨

سورة النساء

آيات المواريث - الآيات: ١١-١٤ ٢٨٢

- أسباب صلاح المجتمعات - الآيات: ٥٨-٧٠..... ٢٨٩
- السياسة الحربية في الإسلام - الآيات: ٧١-٨٠..... ٣٠١
- التحذير من الغلو في الدين - الآيات: ١٧١-١٧٦..... ٣٠٩

سورة المائدة

- الوفاء بالعهود - الآيات: ١-٥..... ٣١٨
- الوضوء والغسل والتيمم - الآية: ٦..... ٣٢٤

سورة الأنفال

- توجيهات حربية للمؤمنين - الآيات: ١٥-٢٦..... ٣٣٣

سورة التوبة

- إعلان الحرب على المشركين - الآيات: ١-٥..... ٣٤١
- سلوك رجال الدين من أهل الكتاب والتحذير منه - الآيات: ٣٤-٤٠ ... ٣٥١

سورة الكهف

- مثل الحياة الدنيا - الآيات: ٣٢-٥٩..... ٣٦٦

سورة مريم

- قصة إبراهيم مع أبيه - الآيات: ٤١-٦٥..... ٣٧٦

سورة الحجرات

من أدب الحديث مع الرسول ﷺ - الآيات: ١-١٠ ٣٩٠

سورة الحشر

التقوى وموجباتها - الآية: ١٨ ٤٠٢

النهي عن التشبه بأعداء الله - الآية: ١٩ ٤٠٩

حال المتقي - الآية: ٢٠ ٤١١

عظم القرآن - ٢١ ٤١٢

أسماء وصفات الله الحسنی - الآيتان ٢٢-٢٣ ٤١٤

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنها الله الفردوس

www.moswarat.com